

أنين

رواية

اسم الكتاب: أنين
تأليف: شريف ثابت
تصميم الغلاف: أحمد مراد
رقم الإيداع: 2012/3058
الترقيم الدولي: 978-977-6376-24-3



إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع - 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
محمول: 01000405450 - 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت
ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر؛
يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

شريف ثابت

أنين

رواية

obeikandi.com

إلى ما تبقى..

obeikandi.com

شكر مستحق لـ..

د. أحمد خالد توفيق.. د. محمد المهدى..
أحمد العايدى.. تامر إبراهيم.. حسام دياب.. محمد الغزالى.. باسم
شاهين.. طارق مصطفى.. محمد الدسوقي..

obeikandi.com

البحر غضبان ما يضحكش..
أصل الحكاية ماتضحكش..
البحر جرحه ما بيدبلش..
وجرحنا.. ولا عمره ديل..

نجيب سرور

obeikandi.com

سر الحياة.. لو تعرفيه.. يا حبيبتى..
سر الحياة.. نبض الحياة.. أنا وانتى..

الكلمات تنبعث من السماعات المتصلة بـ dvd player.. وتكاد موجاتها الصوتية تتداخل مع سحب الدخان السابحة في فراغ الغرفة..
العينان شاردتان تحدقان في اللاشئ.. وكأنهما تخترقان ظلام الغرفة إلى خارجها، حيث يتألق القمر الفضى كامل الإستدارة غامراً صفحة البحر بضوءه البارد المنعش..

الشفتان تطبقان بقوة على سيجارة ملفوفة بإتقان.. تسحبان نفساً طويلاً.. يتوهج طرف السيجارة في ظلام المكان.. لحظة من السكون..
ثم تنبعث سحب الدخان من فتحتى الأنف..
الجسد مسترخ على الفراش.. عارٍ من أية ملابس.. ساكن تماماً وكأنه جزء من الفراش.. اللهم إلا من حركة ميكانيكية ترفع الجوان إلى الفم ثم تخفضها..

الجسد الراقد بجواره يتقلب.. يعتدل جالساً.. ضوء القمر ينعكس على استداراته البارعة..
- نائم..؟..

يهز رأسه ببطء نافياً.. ثم.. المزيد من السحب..

قلب الحياة جواه.. بنورة مسحورة..
قلب الحياة مليون.. أحلام صغيرة..

- Shower سريع ثم نأكل..
لا رد.. تنحنى لتطبع قبلة سريعة على شفثيه.. تغادر برشاقة.. صوت المياه المنهمرة قادم من الحمام..

مش كل شئ بيغوت.. ف عمرنا يبجرح..
قلب الحياة مليون.. حاجات وبتفرح..

ينظر بعينين خاويتين إلى سيلويت جسدها الواضح من خلف باب
المسبح الزجاجي.. المياه الساخنة تنهمر عليه بغزارة..
طرف السيارة يتوهج..
يدير عينيه.. ينهض.. يفتح النافذة الزجاجية العريضة..
الهواء البارد يندفع ليجتاح الغرفة.. الستائر الحريرية الرقيقة تتطاير
بقوّة..

نفتح بيبان الروح.. من تاني ع الآخر..
ادخل ف قلبي بشوق.. مايكونش ليه آخر..

يتنفس بعمق.. يملأ صدره بالهواء النقي.. يسعل.. يسعل..
السماء صافية تماماً.. حقاً يبدو القمر مزهواً ببهائه وسط النجوم في
مثل هذه الليلة الرائعة..
صفحة البحر الزرقاء اللامعة تمتد أمامه إلى ما لا نهاية.. أصوات
الأمواج تداعب أذنيه برقة..
يرنو إلى أسفل.. إلى قمم الأشجار الواقعة أسفل الجرف.. حتى في ليلة
مقمرة مثل هذه لا يستطيع بفعل الارتفاع الشاهق تمييز قمم الأشجار
من كتل الصخور المشرفة على ساحل البحر..
لدقائق ظل يرقب هذا المشهد الساحر ..

فساتين السما ألوان.. بتطفى و تنور..
و أنا و انت كلمة حزن.. جَوَّانا بتغبر..

- (أحمد).. الشباك مفتوح..؟..

لا رد ..

- يبي please الشباك.. سأصاب بالبرد..

لا رد..

- الشيااااااالك..

تخرج من المسيح غاضبة وقد أحاطت جسدها العاري المتل

بمنشفة بيضاء عريضة..

- ألا تسمع يا..

بترت عبارتها وهى تحديق مشدودة فى الغرفة الخالية.. النافذة مفتوحة تماماً.. ضوء القمر يغمر الغرفة.. الستائر الرقيقة تتطاير بفعل الهواء..

- (أحمد).. أين أنت..؟..

هرعت لتبحث خارج الغرفة.. لا جدوى.. الباب الخارجى موصد كالعادة من الداخل، والمفتاح موضوع فى ثقب الباب..

- (أحمد)..

فتشت الغرفة بينما قلبها يخفق بقوة..

- (بصوت مرتجف): (أحمد).. please stop it..

وفى اللحظة التالية وقعت عيناها على النافذة المفتوحة.. وبخطوات واجفة تقدمت منها..

مش كل شئ ييفوت.. فـ عمرنا يبجرح..

قلب الحياة مليون.. حاجات وبتفرّح..

obeikandi.com

الجزء الأول

المشكلة

obeikandi.com

د. حازم أبو زيد

مرحباً بك في (باراديس هايتس) ..

هى - كما تعلم - تبعد بضعة أميال في عرض البحر عن ساحل (الإسكندرية) .. وبالطبع يمكنك رؤيتها بسهولة من على الشاطئ إذا كان لديك منظراً مقرباً ..

سيلفت إنتباهك على الفور ذلك المسطح الشاسع من الخضرة الذى يتكون منه حزام الأشجار المحيط بالجزيرة والملتف -كأفعى خضراء هائلة الحجم- حول الربوة الشاهقة التى تتوسط الجزيرة ..

لكنك بالطبع من هذه المسافة لن تتمكن من ملاحظة أية تفاصيل .. فمثلا لن تميز القصور الفاخرة التى يربو عددها عن خمسمائة قصر ، والمتناثرة وفق نسق معمارى بالغ الروعة والدقة -خططت له واحدة من كبريات الشركات الاورويية- في أنحاء الجزيرة ..

أعلم الإجراءات الأمنية في الميناء مبالغاً فيها، وبخاصة بالنسبة للزوار .. أنت تعلم الشخصيات الهامة التى تقطن هاهنا .. ولكن أعتقد أن الأمر يختلف بالنسبة لك .. لقد أبلغت إدارة الميناء بشخصيتك وموعد وصولك ، لذا لم تستغرق إجراءات مرورك وقتاً طويلاً ..

حسناً .. لتكن ضيفي .. و لأكون مرشدك هاهنا ..

هل تزعجك السرعة التى أنطلق بها ..؟ نعم ..؟.. هه .. سيكون عليك أن تتلصق مشاعرك يا صديقى .. طريق الـ (high way) الممتد من المرفأ وحتى قلب الجزيرة ويدور حولها لا يسمح بالسرعات البطيئة .. لذا تجدني مضطراً ، فاعذرنى ..

بالطبع لدى سائقي الخاص، ولكنى أحب ممارسة القيادة بنفسى من آن لآخر ..

هل تدخن ..؟.. إنه سيجار كوبى فاخر .. لا ..؟.. كما تحب .. فقط إسمح لى بأن أفعل .. ناولنى قذاحة السيارة ..

(نفس عميق ثم) .. وووووف ..

هل ترى تلك المساحات الخضراء الواسعة...؟! إنها أشهر وأفخم أندية في بر (مصر).. أنشطتها يصعب حصرها.. واشتراكاتها خيالية التكلفة.. لذا لن تجد مثلها في (الإسكندرية) أو أى مكان في (مصر) ، لأن روادها - القادرين على الاشتراك بها - لن تجد أى منهم في (مصر) سوى هاهنا..

مرحباً بك في (باراديس هايتس)..
الطريق واسع جداً، ومزدان بالشجيرات.. كل طرق (باراديس هايتس)
هكذا.. بالتأكيد لن تعاني من أزمات مرورية من أى نوع.. الجزيرة
شاسعة فعلاً، وعدد سكانها محدود.. كما أنّ التصميم الحضري الذي
وضعه أحد أشهر مهندسو (أوروبا) محكم بحق، ولا يسمح بأزمات
من هذا الطراز.. يمكنك -على فكرة- إغلاق النافذة المجاورة لك إذا
مضايقك الهواء المندفع بسبب السرعة.. ستجد زر الإغلاق في المسند
حوارك..

(نفس من السيجار ثم).. ووووووف...
هذا الكوبرى الذى نصعده هو كوبرى (السلام) .. إنه أكبر كبرى
الجزيرة.. ويعبر ما يقرب من عرضها.. وهو أهم المنافذ التى تتقل
بك مباشرة الى المناطق السكنية..

هل ترى...؟.. توجد بأسفل الكوبرى منطقة الـ down town .. إنها تضم أضخم وأروع منطقة تسويقية وترفيهية في الشرق الأوسط .. وكم المولات فيها لا يصدق..

الساعة الآن الثانية عشر ظهراً.. لن تجد الكثير من الروّاد هاهنا.. لن تجد أحداً مستيقظاً من الأصل.. الجميع هاهنا -وأغلبهم من الشباب- لا يستيقظون قبل ساعتين من الآن.. و..

فوووووووووووووووووووووووووووووو...

هل لمحت هذا الوميض...؟.. إنها سيّارة (هاني عزيز) البورش الجديدة.. إنه -الطائش- لا ينطلق بها بسرعة أقل من مائتي كيلومتر في الساعة.. وأكّـم من حوادث تسبب فيها خلال العشرة أيّام الماضية التي انقضت منذ شرائه لها.. ولكن من يملك محاسبته...؟.. ماذا...؟.. ألا تعرفه حقاً...؟.. إنه نجل (حامد عزيز).. أكبر رجل أعمال في البلد،

وأحد الرؤوس الكبرى في الحزب.. فمن يملك أن يرفع إصبعاً في وجهه فضلاً عن محاسبته..؟..

(نفس من السيجار ثم).. ووووووف..

لا.. لن نهبط من هذه التفرعة.. إنها تؤدي إلى واحدة من أهم المناطق على الجزيرة.. المنطقة التي تضم محطات الطاقة ولوحات التوزيع التي تغذي الجزيرة كلها بالطاقة.. كلها بالطبع تتبع شركة (Egy Nergy -) كما تعلم.. لذا فمن غير المسموح لنا ولوجها..

مرحباً بك في (باراديس هايتس)..

بالفعل ملاحظتك سليمة.. الطرق والشوارع تكاد تكون خالية من المارة.. لو ظلمت تراقب ستلاحظ أن هذا يكاد أن يكون مستمراً طيلة ساعات النهار.. اللهم إلا من الدراجات البخارية التي تقوم بتوصيل الطلبات إلى المنازل.. عشرات الـ delivery boys يقطعون الشوارع ليلاً نهاراً حاملين الأطعمة والأدوية وكافة المستلزمات إلى الفيلات والقصور.. لا.. ولا هذه التفرعة أيضاً.. لأنها -لو لم تك- تؤدي إلى منطقة معزولة هادئة تضم مستشفى (باراديس هوسبيتال) العام، إلى جانب بعض المستشفيات التخصصية منها مستشفى الذي أنشأته مؤخراً لعلاج الأمراض النفسية والعصبية (و هي الأمراض الأكثر شيوعاً هاهنا).. وهذه ليست وجهتنا بطبيعة الحال..

النفق الذي نعبه الآن يمر خلال باطن الجبل.. وهو يؤدي مباشرة إلى المربع السكني الذي تقع فيه فيلتي.. دائماً ما أستغرق ثلاثة دقائق بالضبط في عبوره.. ألا تصدقني..؟..

حسناً.. لأهدئ السرعة لأننا سنهبط الكوبري من خلال التفرعة التالية..

كما ترى.. الأرضيات والممرات مرصوفة بالأحجار الفرعوية.. الأشجار الخضراء والحمراء والصفراء في كل مكان.. ماذا..؟.. هذه الموسيقى المنبعثة في كل مكان..؟.. هل تروق لك..؟.. إنه النظام الصوتي الممتد في أرجاء المكان، والذي يبعث أروع المقطوعات الموسيقية طيلة الوقت.. إمتزاج هذه النغمات الرقيقة مع خرير شلالات المياه الموزعة بإحكام عبر الشوارع والميادين يبعث استرخاء غير عادي في الأعصاب..

مرحباً بك في (باراديس هايتس)..

تفضل.. البيت بيتك..

اقدم لك زوجتي: الدكتورة (نشوى عبد الظاهر).. رؤسـتى -
إحم.. لنقل زميلتي- في قسم الأمراض النفسية والعصبية بكلية طب
(الاسكندرية).. دعنى أهمس لك بألا تمد يدك لمصافحتها لأنها تؤمن
بعدم جواز مصافحة الرجل للمرأة إتباعاً لسنة رسول الله (صلى الله
عليه و سلم) فلا تخرج نفسك.. إنها مشغولة اليوم في تشذيب أشجار
الحديقة - و هى تعشق أداء هذه المهمة بنفسها -لأن جدولها اليوم
خال من أية محاضرات أو أعمال..

- (مبتسماً): هل لدينا طعام لضيفنا اليوم يا دكتورة..؟

- (بمرح وهى تنفض أوراق الشجر الجافة من على معطفها): خير ربنا
كثير يا (حازم).. ماتقلقش..

ثم تستطرد بابتسامة ترحاب :

- تفضلا في ال reception ريثما أنتهى من إعداد الغداء

- (بينما نحن نبتعد) : على فكرة.. (مودى) إتصل من (كلورادو) و سأل
عليك..

(مودى) ..؟.. إنَّه (محمّد) إبـنى .. ألم أخبرك بشأنه ..؟.. يحضّر
رسالة الدكتوراة في ال states.. فى أى مجال ..!!؟.. سؤال غريب.. فى
مجال تخصصه بالطبع.. جرّاح مخ و أعصاب.. فيم سيقدم رسالته
البحثية..؟.. فيزياء الصواريخ مثلا..؟.. هه هه.. لا تعبس هكذا.. أنا
أمزح معك فقط..

نعم.. لدى إبنة أخرى هى (آية).. طالبة فى السنة الثانية بكلية الاعلام
بجامعة (باراديس كوليدج).. وهى -إبنتى- شيطانة حقيقيّة.. عاصفة
من الحيويّة والنشاط وخفة الدم.. أين هى..؟.. تعيش حالياً مع
زوجها فى الخليج..

أحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقنى لتربية هذين العيزين وفقا لما
أنزل على نبيّه الكريم (صلى الله عليه و سلم) فى كتابه الكريم.. وإن

كان لا يخفى عليك مدى صعوبة ذلك، و خاصة في مجتمع مثل مجتمعنا هنا في (باراداييس هايتس)، حيث كل عوامل الإنحراف متوافرة وبغزارة.. وماعليك الا أن تهبط الى أى coffe shop أو أى night club بعد منتصف الليل و سترى هولاً..

عندما تخلو حياة الفتى أو الفتاة من أية مصاعب أو احتياجات.. عندما يجد أمامه كل ما يشتهى بمجرد التفكير.. عندئذٍ يسيطر الفراغ على كيانه.. ويبدأ في التفكير في طرق غير شرعية لمقاومة هذا الفراغ.. وهو حال 90 % من الشباب على هذه الجزيرة.. ومن نعم الله تعالى على أن رزقني زوجة عاقلة مثقفة تدرك مهمتها، وتعرف جيداً كيف تقوم بها خير قيام برغم مشاغل عملها..

الطقس حار قليلاً اليوم.. هل ترغب في بعض المياه الغازية أم تريد شيئاً معيناً يعده لك الخدم..؟.. خذ راحتك تماماً كأنتك في بيتك.. ماذا..؟.. مياه غازية.. أى نوع منها..؟.. (بيبيس)..؟.. أعذرنى.. أنا مقاطع للسلع والمنتجات الأمريكية.. ما رأيك في (شويبيس)..؟.. فليكن.. بففففففف (صوت فتح علبة الcan).. تفضل..

أعلم أن الفضول ينهشك يا صديقى لمعرفة الأمر العاجل الذى ألححت عليك أن تأتى الى هنا لأقصه عليك.. هل تفضل أن نتحدث الآن أم بعد تناول طعام الغداء..؟.. الآن..؟.. حسناً.. كنت أتوقع هذا.. لحظة واحدة..

.....

.....

.....

.....

لا تؤاخذنى.. إستمع معى الآن إلى هذه التسجيلات الصوتية المطبوعة على هذه المجموعة من الديفيديهات.. إنها تسجيلات لبعض جلسات العلاج النفسى التى خضتها مع أحد مرضاى منذ مدة ليست طويلة.. لحظة حتى أأا.. play ...

ماذا..؟.. إصبر قليلاً يا أختى وستعرف كل شئ..

فقط أنصت..

(لحظات من الصمت المشوّب بخرفشة خافتة لوجود بعض الـ bytes التالفة على القرص المضغوط ثم)..

- هل تحب عملك..؟..

- (ضاحكاً): من ممّا يفترض أن يسأل الآخر..؟..

- من فضلك أجبنى..

- أعتقد أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقول بثقة أنه يحب عمله..
إنه عملي وكفى.. بدون حب أو كره..

- منطق غريب بالنسبة لطبيب نفسى..

- وما وجه غرابته..؟..

- وجه غرابته أنه لا يتفق وطبيعة عملك الّتى تتطلّب صبراً طويلاً
لدراسة ظروف وخلفيات المريض النفسى للوقوف على أبعاد عقده
وأسابها.. ومثل هذا الصبر لا أعتقد أنه من الممكن توافره إلا لدى من
يعشق مهنته ويستمتع بممارستها لأطول وقت ممكن..

- يمكننى أن أقول لك أن هذا الصبر يتحوّل بمرور الوقت والتجرب
إلى جزء من إحترافية المهنة.. ولكن أخبرنى أنت.. هل تحب مهنتك..؟..

- أكيد.. رغم كل شىء..

- هلا شرحت لى أكثر..؟..

- (يزفر بحرارة): أغلب من أتعامل معه يكون محتفظاً فى ذاكرته بنماذج
معينة من الديكورات سبق أن رآها فى أماكن أخرى وأثارت إعجابه،
فيرغب فى الحصول على نماذج مثلها فى الفراغ الذى يرغب فى تسيقه..
بغض النظر عن مدى ملائمة تلك النماذج لطبيعة فراغه.. وهو ما
أرفضه تماماً.. وفى أغلب الأحيان يحدث صدام عنيف بينى وبين العميل
بخصوص هذه النقطة، وينتج عنه اعتذارى عن الاستمرار فى العمل..

- ألا يكون من الأفضل أن ترضى رغبة عميلك وتصنع له ما يشاء..؟..

- (بانفعال): وما فائدتى إذن..؟.. ولم لا يقوم هو بهذا العمل بدلاً
منى مادامت لديه تصوّراته الخاصة التى لا يرغب فى سواها..؟..

- هدى من روعك يا باشمهندس..

- (يزفر بحلق) ..
- هل لهذا دخل بمشكلتك التي تعاني منها؟..
- مُطلقاً..
- هلا شرحت لى ما هى مشكلتك بالضبط..؟..
-
- هل هى معقدة إلى هذه الدرجة..؟..
- لا أدرى..
-
- (لحظات من الصمت ثم بغتة): هل تؤمن بتناسخ الأرواح..؟..

obeikandi.com

- تناسخ الأرواح..!!؟..

- نعم..

صمت يشوبه أزيز غامض ثم..

- تناسخ الأرواح عقيدة بدائية تقوم على أن الروح عند موت صاحبها و مغادرتها جسده، تعود مرة أخرى وتحل في جسد آخر.. وتتوقف طبيعة الجسد الجديد على مدى صلاح الروح في جسدها القديم.. فإذا كانت شريرة فإنها تلقى عقابها بأن تحل في جسد حيوان أو حشرة.. - أليس هناك تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة..؟..

- ليست ظاهرة.. إن هى إلا خرافة تحولت إلى عقيدة لدى البدائيين.. ولكن

- و لكن ماذا..؟..

- هناك شواهد أو فلنقل قرائن تشير بوضوح إلى هذه الخرافة..

-

- ولكن لماذا تسأل عن تناسخ الأرواح..؟..

- (ببطء وبعد لحظات من الصمت): أعتقد أنّ روحى عاشت حياة سابقة لحياى هذه.. وقد كانت نهاية هذه الحياة السابقة شنيعة حقاً..

أعلم يا دكتور (حازم) أنّك لن تصدق حرفاً ممّا أقول .. و لربما كنت الآن في شرك تلعن حظك العاثر الذى أوقعك بين يديّ لتصغى لهذيان شاب تافه (كأغلب شباب هذه البلدة) لا يجد ما يشغل به وقت فراغه إلا الانصياع لهواجس عقله الفارغ المريض..

ولكن دعنى يا سيدى أوكد لك أنّى لست من هذا النوع من الشباب.. قد أكون تعاطيت المخدرات في مرحلةٍ ما من عمرى على سبيل التجربة، ولكننى لم أسمح لها بالسيطرة علىّ.. طيلة حياى وأنا مغرم بخوض التجارب الصعبة والغريبة.. و كل تجربة كنت أخرج منها

و قد تعلّمت حقيقة جديدة من حقائق الحياة..
سأضرب لك مثلاً.. أعلم أنّك رجل محافظ، وأنّ كلامي قد يسبب
لك ضيقاً، ولكنني أيضاً أعلم أنّك ستتحمّلني لأن هذا جزء من حرفة
الطبيب النفسي كما تسميها.. هل تصدق يا دكتور أنني خضت تجربة
جنسيّة مثليّة كاملة..؟.. لست شاذاً على الإطلاق.. ولكنّها الرغبة في
إستكشاف المجهول.. تلك الرغبة التي تمتع بقدر ما تؤلم بقدر ما
تترك أثاراً محفورة على جدار روحك..

قفزت بالمظلات.. أتقنت الأيكيدو في (بورما).. تسلقت جبال (الأنديز)..
عاشرت نساء وفتيات من كل الأشكال والألوان.. مارست اليوجا بانتظام
لأعوام.. تعلّمت إطلاق النار.. السافاري في الصحراء.. إلخ..

ما علينا.. كنت أقول لك أنني لست من نوعيّة الشباب الفارغ الذي
لا يجد ما يفعله.. كدت بالفعل أن أكون كذلك وقد وقرّ لي أبي - وأنت
بالتأكيد تعلم مدى ثرائه - كل ما كان يخطر ببالي.. كل شيء إلا أهم شيء..
أبوته ذاتها.. بمرور الوقت و مع عدم وجود أيّة رغبة يمكن للمرء
أن يسعى لتحقيقها (فقد تم اشباع أي رغبة في مهدها).. تصبح الحياة
ذاتها مملة لا قيمة لها.. وهو ما شعرت به فعلاً وأنا أسحب موسى
الحلاقة الذي أخذته من أحد الخدم على أوردة معصمي الأيمن، وأرى
الدماء الحمراء القانية تتدفق منه بغزارة حاملة حياة أنا في أشد الشوق
لمفارقتها..

بعد نجاتي -بمصادفة سخيّة- سافرت إلى (أوروبا) بصحبة أمي
للاستجمام ولتهديّة أعصابي.. وهناك.. في (فينسيا) تحديداً.. حدث شيء
ما.. بينما القارب الذي نستقلّه يشق مياه الشوارع العائمة.. وقفت
مبهوراً أمام طرز مباني المدينة العظيمة.. شعرت بأنني قفزت قروناً إلى
الوراء.. الأبنية الحجرية.. الأسقف المغطاة بالقرميد الداكن.. الأغصان
الملتقّة حول الأعمدة القديمة.. الكنائس الضخمة بقبابها الهائلة.. رنين
الأجراس.. خريز الماء المحيط بنا.. شقشقة الطيور.. اللغة الإيطاليّة
السريعة كطلقات مدفع رشّاش.. لم أكن لأندھش لو رأيت مبارزة
بالسيوف الرفيعة بين اثنين من النبلاء يرتديان ثياباً مزركشة وحرملة
واسعة..

في تلك اللحظة.. أدركت أن تاريخ الأمم والشعوب يمكن تدوينه في صورة مبنى قديم.. ردهة مدخل.. قبة كنيسة.. عمود رخامي.. لوحة زيتية متسخة.. هل تفهمنى يا دكتور (حازم)..؟.. في هذه اللحظة السحرية.. أدركت أنني عثرت أخيراً على ما عشت أفتقده طيلة سنوات حياتي الماضية.. ولكم كانت دهشة امي وفرحتها عندما أخبرتها أنني أنوى الإرتحال إلى (لندن) لدراسة العمارة.. أما الصدمة الحقيقية فكانت من نصيب شلة النادي..

- تدرس العمارة..؟؟... هل جنتت..؟؟!!!!!!
- (يرشف من زجاجة الكيلا الموضوع أمامه): عمارة..؟؟!!
- ما المثير في هذا المجال كي تضحي بسنوات عمرك فيه..؟؟!!!!
- (كحككح (يسعل).. هل تفكر في العمل يا صايع..؟؟!!
- مادام الأمر كذلك.. فلم لا تعمل في إحدى شركات والدك..؟؟!!
- (بسخرية): هل وافقت مامى على مفارقتك أحضانها..؟؟!!
طبعاً لم ألق بالاً لتعليقاتهم الساخرة وأسئلتهم البلهاء التي ألقوها
بينما drugs تسرى في دمائهم.. وكان رد (مايا) هو الأعنف..
- Go to hell you son of bitch

وأعقبت هذا بسيل من الشتائم النابية، وهى تدفن سيجارتها المشتعلة في صدرى العارى.. ماذا..؟؟.. لم أخبرك من هى (مايا) أصلاً..؟؟ (مايا أبو العيون) .. رفيقتى في ذلك الوقت.. حب..؟؟.. طبعاً لا.. يمكنك القول بأنه كان مجرد توافق جسدى.. جسدانا يرتاحان لبعضهما البعض.. لا أكثر ولا أقل.. ألا تعرفها..؟؟.. إنها ابنة (أكرم أبو العيون) رجل الأعمال الشهير.. لبؤة شرسة شبة طيلة الوقت.. دعك منها على أية حال..

وهذا هو بالمناسبة ما قلته لنفسى بينما عجلات الطائرة ترتفع لتفارق أرضية ممر الاقلاع بمطار (باراديس إير بورت) متجهة شمالاً إلى المملكة المتحدة..

متى بدأت المشكلة..؟؟..
لا أذكر تاريخاً محدداً.. ولكننى أذكر جيداً أنني لم أكن أعانى من أية

هواجس طيلة فترة دراستي في (لندن)، والأشهر التي تلت عودتي إلى (مصر)..

لا لا.. لم أعد على الفور إلى (باراديس هايتس).. كان إلحاح أبي كبيراً كئى يفتتح لي شركة كبرى للمقاولات.. ولكنى كنت أملك خطأً من نوع آخر..

قمت بشراء شقة صغيرة في (العامة) وأعدتها لتكون مكتباً هندسياً.. كنت أعرف أن فرص العمل في (القاهرة) أفضل بكثير، ولكن طموحاتي كانت مرتبطة بـ (الإسكندرية) بشكل خاص.. بالفعل تم تحقيق الكثير من الإنجازات على مستوى تجميل الشوارع والميادين، غير أن هذه الإنجازات لم تمتد للعديد من الأحياء والمناطق العشوائية التي يقطنها عشرات (أو مئات) الآلاف من البسطاء.. أى أن الأمر اعتمد بصورة رئيسية على جمال السطح دونما اعتبار للباطن الملئ بالمشاكل.. لذا، فلك دكتور (حازم) أن تتصور مدى حاجة سكان هذا الباطن المهمل لما في جعبتي من علم حديث في مجال التخطيط و المعمار..

وبالطبع لم يرق هذا لأبي على الإطلاق..

- يا (مودى) يا حبيبي.. هذه الفرصة يحلم بها أى شاب في مثل عمرك.. إننى أحتفظ بالفعل بعلاقات وثيقة مع شخصيات نافذة.. وفي خلال عام واحد ستصبح المقاول رقم واحد في البلد.. وستجري الأموال كالنسيم بين أصابعك..

- (منهمكاً في إعداد ماكيت لمبنى من طابق واحد): وهل تنقصنا الأموال يا أبى..؟

- (ينفث دخان سيجاره بغضب): هل تغربت طيلة الأعوام الماضية لتعود فتنغمس في هذه الأعمال التافهة..؟ (و ضرب الماكيت الذى أعمل عليه بظهر يده فطار ليتحطم على أرضية الغرفة)..
تما لك غضبي وقلت بهدوء:

- هذه الأعمال التافهة كما تسميها هى من صميم عمل المعمارى.. تصميم الفراغ المناسب لمتطلباته.. مهما كان حجم هذا الفراغ أو أهميته.. أما ما تريدنى أن أفعله فهو أعمال المقاولين.. وأنا لم..
- لا أريد سماع محاضرات..

ثم...

- (متلفاً حوله بازدراء): هل ستمارس عمل المعمارى الذى تتكلم عنه فى هذا الوكر..؟..

- (ساخراً): لن يستطيع أى من عملاى الوصول إلىّ لو اتخذت مكتباً فى الـ (هايتس)..

- و ما حاجتك إلى عملاء من خارج الـ (هايتس)..؟.. أين ستجد عملاء من هذا المستوى فى أى مكان آخر..؟..

- هؤلاء بالذات لا حاجة لهم بى.. لديهم شركاتهم الأجنبية التى يتعاملون معها.. أما عملاى الحقيقيون.. فهم البسطاء.. الذين يعيشون فى العشش والعشوائيات، ويناموا أسفل الكبارى..
- (يرمقنى بنظرة ساخطة): غي..

وتحرّك نحو باب الحجرة، وقبل أن يجتازه إلتفت إلىّ وأشار بسيجاره قائلاً:

- هؤلاء البسطاء سكان العشش وأسافل الكبارى يستحقون ما هم فيه من بؤس.. إنهم حيوانات راضية بما هم منقوعون فيه.. عقود وعقود وآدميتهم تسلب منهم وهم لا يرون أبعد من أنوفهم، ولا يحركون ساكناً تجاه من يسرقهم.. بل على العكس.. تراهم ينتفضون بقوة ضد من يحاول إيقاظ عقولهم وإنارة طريقهم.. لذا.. فلا تتوقع أيّها الرفيق (ماركس) أن ينتظموا صفّاً وراءك لإستعادة حقوقهم..

كدت أرد عليه بأننى لا أحاول ارتداء عباءة الزعامة، و أننى فقط أرغب فى افادة هؤلاء البسطاء بما تعلّمته.. غير أنه لم يمنحنى الفرصة..

- طيلة عمرك ترغب فى خوض التجارب بنفسك.. لا بأس.. خض هذه التجربة أيضاً.. وعندما تستيقظ على الحقيقة المرّة.. ستجدنى بانتظارك.. ودون كلمة اخرى غادر تلك الشقة التى اتخذتها مكتباً.. راقبته من النافذة بينما سائق سيّارته المرسيدس يغلق باب السيّارة خلفه، ثم ينطلق بها متجهاً نحو المطار..

الحق دكتور (حازم) أننى لم أكن ألعب دور الزعيم كما توهم أبى .. غير أننى كنت شديد التأثير بتعاليم استاذى الانجليزى الدكتور (إدوارد

هيجز).. كان الرجل اشتراكياً قديماً، وعضواً في حزب العمال.. واسع العلم شديداً الثقافة ذو كاريزما غير عادية..

«لعنة الرأسمالية هي أنها ألهمت الأشياء.. فبدلاً من أن يصير المرء مالكا لها.. صارت هي مالكة له.. و صار هو عبداً تابعاً لها»..

ويقول وهو يحاول إشعال غليونه:

- انظر إلى المآسى التي حاقت و تحيق بعالمنا البائس .. لن تجد شراً واحداً لا و كانت الرأسمالية وراءه بشكل أو بآخر..

- وما هو الحل الذي تراه يا دكتور ..؟..

- الاشتراكية ولا شئ سواها..

- ولكن الاشتراكية فشلت في (الإتحاد السوفييتي) بلد منشؤها..

- (بيتسم و يداعب لحيته الشقراء القصيرة): لم تفشل في (الإتحاد السوفييتي) لفساد النظرية.. بل لخطأ التطبيق.. ولعلمك الخاص.. لم تنشأ الاشتراكية في (الإتحاد السوفييتي) أيام (ماركس).. بل هي أقدم بكثير..

والتمعت عيناه الزرقاويتين وهو يقول بحماس:

- أنت مصرى مسلم مستر (أحمد).. فهل قرأت تاريخ الفتح العربى لبلدك (مصر)؟..

- مستغرباً علاقة السؤال بالموضوع): لا..

- عندما دخل المسلمون (مصر) طالبوا بتوزيع أراضيها - وكانت شديدة الخصوبة حول وادى (النيل)- على الجنود الفاتحين.. واستندوا في ذلك لإحدى التعاليم الواردة في كتابهم (القرآن) والتي تقضى بتوزيع الغنائم بنسب معينة على أهل رسولهم (محمد) وعلى المقاتلين في الجيش وعلى الفقراء والبؤساء وغيرها من موارد الإنفاق.. ولكن الخليفة المسلم آنذاك - (عمر بن الخطاب) إن لم تخي الذكرة أعلن أن هذه الأرض -أرض (مصر)- ستظل بين أيدي فلاحيها المصريين مقابل ضريبة ما.. ورفض نزعها من أيديهم و توزيعها على عدد قليل من الأفراد.. كنت أنظر إليه مشدوهاً لسعة علمه بينما هو يستطرد مبتسماً (فتبرز عظام وجهه النحيل):

- أليست هذه هي عدالة الاشتراكية في أرق صورها..؟.. ومتى ..؟.. قبل

ولادة (كارل ماركس) بقرون طويلة..

سنوات ممتعة بحق قضيتها أنهل من علم هذا الرجل العظيم.. كان أحد أتباع مدرسة المعماري الألماني الكبير (ميس فان درو) صاحب نظرية الوظيفة..

- الوظيفة قبل أى شئ.. بدونها يفقد العنصر قيمته مهما بلغت درجة جماله.. فما قيمة الجمال العنصر إذا ما كانت وظيفته ضعيفة..؟..
و كان سعيداً بى بشكل خاص.. قال لى ذات مرة ونحن جالسين أمام المدفأة فى غرفة المكتب بمنزله فى (ديفون):
- خروجك عن النمط الرأسمالى الذى نشأت فيه سيكون بمثابة ميلاد جديد لك..

إبتلعت ما بقمى من (أبو فرة) وقلت:

- خرجت لتلقى العلم..

- وقد كنت مخلصاً مجتهداً.. وأشهد لك بذلك.. ولكن هناك درس أخير لابد أن تعيه جيداً.. لأنه سيكون معيار تطيقك لما تعلمته.. تطلعت إليه متسائلاً.. مال نحوى.. نيران المدفأة تنعكس على عويناته الصغيرة فتخفى عينيه تماماً:

- قناعات المعماري الإجتماعية والسياسية لا تنفصل أبداً عن حرفته.. بل على العكس.. فهى المؤشر والبوصلة اللذان يوجهان هذه الحرفة.. وبدونهما لا يستحق المعماري أن يكون كذلك فعلاً مهما بلغت حرفيته وبراعته.. ويصبح بالفعل مجرد مقالول كل مهمته هى بناء أكبر عدد من المكعبات الخرسانية العملاقة لحشر أكبر عدد من البؤساء داخلها.. ظللت أنظر إليه مأخوذاً بكلماته بينما هو يتابع:

- وفى بلد مثل بلدك (مصر) - جميعنا يعرف الوضع المزرى الذى صارت إليه - الحاجة ماسة إلى كل عقل متحرر من قيود الأنانية والرأسمالية لإنتشالها من مستنقع الجهل والتخلف والدكتاتورية التى غرقت فيه.. سيقضى منك هذا التضحية بالكثير من الرفاهية والملذات التى تحقها لك الرأسمالية على حساب الكثيرين.. ولكن ثق أن التاريخ - إذا ما صمدت وأصررت على قناعاتك - سيكتب إسمك بحروف من نور..

وامتزجت قرعة الأخشاب الخافتة بين نيران المدفأة بصوته العميق:
- وعندئذٍ .. تصبح المعمارى كما يجب أن يكون..

تذكرت هذه الكلمات وأنا أرقب الصفحة العملاقة الزرقاء من حولي
بينما اللانش يشق أمواجها الهادئة - أمواج البحر المتوسط - بسرعة
شديدة متجهاً نحو مرفأ (باراداييس هايتس)..

إلى جوارى يجلس سكرتير أبى الشاب.. منظار داكن يغطى عينيه.. بينما
ابتسامة آلية هى جزء من عمله ترسم على شفتيه..

هدير محرّك القارب السريع يمتزج بهدير الأمواج المحيطة وصيحات
طيور النورس المحلقة فى السماء الصافية من فوقنا فيصنع هذا
الإمتزاج منظومة متكاملة من الضوضاء..

«و فى بلدٍ مثل بلدك (مصر) - جميعنا يعرف الوضع المزرى الذى
صارت إليه - الحاجة ماسة إلى كل عقل متحرر من قيود الأنانيّة
والرأسماليّة لانتشالها من مستنقع الجهل و التخلف و الدكتاتوريّة التى
غرقت فيه»..

أدّرت رأسى.. أقيت نظرة طويلة على مرفأ نادى المهندسين بـ
(الإسكندريّة) وهو يتعدّد.. ويتعدّد..

للأسف بروفيسور (هيجز).. لم تعد بلدى بحاجة إلى عقول متحررة
من الأنانيّة والرأسماليّة لانتشالها من الجهل والفقر والدكتاتوريّة.. بلدى
صارت بالفعل بحاجة لشيء آخر..

بلدى بحاجة إلى قنبلة نوويّة تهوى عليها فتحرق كل شيء.. البشر..
المبانى.. الأفكار.. العادات.. التقاليد.. كل شيء..

النار هى الحل الوحيد للشيء الذى صارته (مصر)..

لا يا أستاذى.. لست مغالياً ولا متجنّياً.. ما تعيشه (مصر) حالياً
هو نتاج مئات السنين من القهر و الذل.. لقد التوت طبيعة الناس
أنفسهم.. صاروا كما قال أبى حيوانات راضية بما هم منقوعون فيه..
وبمرور السنين أصبح النفاق الفج والذل والخضوع للأقوى جزء من
طبيعتهم.. وصاروا يقفون بقوة ضد أى محاولة للارتقاء بهم..

«سيقتضى منك هذا التضحية بالكثير من الرفاهية و الملذات التى

تماماً من مسئوليتهم .. و كأنّ عملهم يتلخص في الجلوس إلى مكاتبتهم ،
و إخفاق أى مشروع يطمح للإصلاح ..

تريد مثلاً .. ليكن ..

بعد شهور طويلة من السعى و الإخلال بالمواعيد .. حصلت على
موعد مع رئيس حيّ شرق .. و ذلك بالطبع بعد أن تعرّف مدير مكتبه
على إسمى ، فنظر إلى متشككاً من خلف عويناته و تساءل :
- حضرتك إبن السيّد (ممتاز خشبة) رجل الأعمال المعروف ..؟
- (أزفر بحق) : نعم ..

و لم تكد تضى دقائق حتى كنت جالساً على المقعد المجاور لمكتب
رئيس الحيّ .. إستقبلني الرجل - أشهد - ببشاشة .. أنصت إلىي بأدب و أنا
أعرض عليه مشروعى لاعادة تنظيم و تطوير منطقة (العامة) و اعادة
تأسيس شبكات البنية التحتيّة و الخدمات الأساسيّة وفقاً لمخطط دقيق
إستغرقت ما يقرب من عام في وضعه وفقاً لأحدث تقنيّات تخطيط
المدن التي درستها .. استمع الرجل إلىي حتى انتهيت فأثنى بشدة على
المشروع و أهدافه الوطنيّة ، و رجاني أن أترك نسخة منه لعرضها على
المحافظ قبل تشكيل لجنة من أساتذة هندسة المدن لإعتماد المشروع
و إتخاذ ما يلزم للبدء في التنفيذ على الفور .. ثم سألتى و هو ينظر
إلى نظرة لم أفهمها في حينها :

- هل يعتزم السيّد الوالد المشاركة في هذا المشروع ..؟
أجبتُه مندهشاً :

- لا شأن لوالدى بهذه النوعيّة من المشروعات ..
أطلق ضحكة مفتعلة و قال :

- آه .. بالطبع ..

شكرنى و وعدنى بالإتصال بى لتحديد موعد مع السيّد المحافظ في
أقرب وقت ...

أسابيع طويلة قضيتها أحلم بنجاح المشروع و أنتظر الإتصال دون
جدوى .. بدأت من جديد سلسلة من المحاولات المضنية لمقابلة
الرجل .. و عندما فعلت كان الجواب هو أنّ المشروع قيد الدراسة

.. مرّت شهور .. تكررت المقابلات و الإجابات .. مازال المشروع قيد الدراسة .. إلى أن جاء اليوم الذي التقيت به رئيس الحيّ - و كان قد مرّ أكثر من عام على لقائي الأوّل به - و قال لي بأسف أن اللجنة لم توافق على المشروع لأن تكاليف تنفيذه لا تتفق مع النتائج المرجوة من وراءه ..

- و لكن يا (سيّد) بك هذا مشروع خدمي لسكان هذه المنطقة الذين يعانون من تدنّي مستوى الخدمات الأساسيّة .. ليس لديهم صرف صحي سليم .. يشربون مياه مخلوطة بمياه الصرف .. و غيرها الكثير من المشكلات .. و بالتالي فلا مجال لإعتباره مشروعاً تجارياً ترتجى أرباحاً من وراءه .. الربح الوحيد من وراء مثل هذه النوعيّة من المشاريع هو تحقيق راحة و رخاء الناس ، لأنّ هذا هو واجب الحكومة تجاههم .. ابتسم كأنّما يحدث طفلاً و قال :

- و ماذا عن التمويل يا باشمهندس ..؟.. ما الذي يغري مستثمر أو رجل أعمال لتمويل مثل هذا المشروع ..؟.. هل سيفعل ذلك لوجه الله ..؟..؟

- لا أتكلّم عن رجال الأعمال أو المستثمرين ..؟؟.. أتكلّم عن الحكومة ومسؤوليّتها ..

- لا شأن للحكومة على الاطلاق بمثل هذه المشروعات .. لم تعد لدينا أيّة شركات تستطيع المشاركة بها .. كان لدينا فيما سبق و لكنّها بيعت كلّها لمستثمرين عرب و أجانب .. و دور الحكومة الآن أصبح مقصوراً على المتابعة و الاشراف على التنفيذ .. و مال نحوي قائلاً :

- ودعني أنصحك بالأ تشغل بالك بمشروعات من هذا النوع لأنها لن تعود على أحد بفائدة .. لن يكسب من وراءها أحد .. لا أنا و لا أنت و لا الحكومة و لا أي مستثمر .. و لو سألت والدك السيّد (ممتاز) لقال لك نفس الشيء ..

- (باستنكار) : و ماذا عن سكّان المنطقة البؤساء ..؟؟..

- (بتهمك) : ماذا عنهم ..؟؟.. انهم يعيشون على هذا النحو منذ عشرات السنين .. و لم يحدث أن شكّا منهم أحد ..

و ضحك مستطرداً :

- دعهم على ما هم عليه و لا تحاول ازعاجهم و تعكير حالة الرضا
التي يعيشون عليها ..

ثم أردف بجديّة :

- والا فستجدهم أنفسهم أوّل من يتصدى لك ..

وجدت يا دكتور أنّ اللعبة أكبر مما كنت أحسب..
كنت أمشي بين الناس في الحوارى و الأزقة.. أجيل بصرى في الوجوه
الصفراء الذابلة والأجساد الناحلة المعروقة.. في العشش والبيوت
الآيلة للسقوط.. في أسراب الذباب الكثيفة المحلّقة فوق الرؤوس و بين
الأجساد.. أسير محاذرا الخوض في برك الطين وروث البهائم.. أكم
أنفاسى لكيلا تتسلل لأنفى روائح البول والفضلات مختلطة بروائح
الأطعمة المنبعثة من فتحات البيوت.. شتائم بذيئة وضحكات صاخبة
تخرج من أفواه نخر السوس أسنانها الصفراء.. وأجواء معبقة بدخان
المزاج..

كنت أخوض في كل هذا.. وعقلى يصرخ: هل من الممكن حقاً إصلاح
مثل هذا المسخ...؟..

تنمو مشاعر التقزز بداخلى وتتضخم.. ومعها كانت ذكريات حياتى في
(باراداييس هايتس) تراودنى فأشعر بحنين شديد إليها..
يوماً بعد يوم.. كانت فكرة محددة تترسخ في ذهنى: هذا ليس مكانى..
وهؤلاء ليسوا قومى..

ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير..

كانت هذه القشة هى (سميرة).. من (سميرة)..؟.. تلك الفتاة التي
عملت لىدى فى مكتبى الوليد.. مزيج من السكرتيرة ومديرة المنزل
والخادمة.. ثلاثينية سمراء على شئ من الامتلاء.. صموت كسيرة العينين..
أقبلت على العمل فى مكتبى بنشاط وتفان بالرغم من تواضع أجرها..
كانت تاتى للمكتب باكراً.. تقوم بتنظيفه وترتيبه (وهى مهمة شاقة حقاً
نظراً لفوضويّتى الصارخة).. أستيقظ من نومى (لاحظ أننى أقيم فى نفس
الشقة) فأجدها لامعة برّاقة، وأجد فطورى جاهزاً ومّج النسكافيه

يتصاعد منه البخار.. وتكون هي قد أبدلت ثيابها وارتدت ثوباً أنيقاً
إبتعته لها وتجلس خلف مكتبها لتقوم بمباشرة عملها كسكرتيرة
للمكتب..

كم ظل هذا الوضع..؟ ما يقرب من العامين.. كنت في ذروة
الإكتئاب والإحباط بعد تجاهل الجهات الرسميّة للمشروع الذي أنفقت
عاماً كاملاً في دراسته و التخطيط له.. عدت إلى المكتب وصفقت الباب
خلفى بعنف.. كانت جالسة خلف مكتبها ووجهها مدفون بين كفيها
و كأنها مستغرقة في النعاس.. سمعت صوت الباب يُصفق فجفلت
ورفعت وجهها إلى.. نظرت لها حانقاً.. كدت أصرخ فيها بأنّ السكرتيرة
التي تنام في العمل لا تصلح له وأنها مفصولة، لولا أن لمحت خيطان
لامعان من الدموع يترقرقان على وجنتيها سارعت أصابعها لمسحهما..
هبت واقفة..

- مساء الخير يا (سميرة)..

- مساء الخير يا باشمهندس..

إقتربت منها..

- هل كنت تبكين..؟..

أحنت رأسها..

- (بصوت مختنق): لا أبداً..

أمسكت ذقنها بين سبابتي وإبهامي ورفعت رأسها إلى.. نظرت في
عينها الواسعتين السوداويتين المبللتين.. شعرت بأنني أغوص فيها..
مرت الثواني والدقائق.. بحركة لا إرادية ضممتها إلى صدري..
كانت أكثر من عاشرت في حياتي حرارةً و عاطفةً.. ضاجعتها وكأنني
أفرغ بداخل جسدها كل طاقة الغضب والسخط المحتشدة بداخلي
منذ شهور.. أمّا هي فكانت أشعر بأصابعها تنغرس في لحم ظهري..
تعتصرني بقوة وكأنّها تخشى أن أفر منها.. كانت لحظات نادرة من
الحميميّة الصادقة لم تمر بي من قبل على كثرة علاقاتي.. بعد المرّة
الأولى نظرت مفزوعة إلى الدم وراحت تبكي بكاءً مريراً وهى تضم طرفي
قميصها المفتوح.. فيما بعد عرفت أنّها كانت تبكي لدى دخولي بسبب
معايرة زوجة أخيها المقيمين معهم في نفس البيت لها بتأخر زواجها..

حكّت لى عن ظروف أسرتها شديدة العوز و الفقر والّتى تنفر أى عريس من الإقتراب منها.. بائسة حقاً كانت عطشى للحب والحنان.. نمنا سويّاً عشرات المرّات على مدى الأسابيع التالية لدرجة أنّها باتت ليالٍ عديدة معى فى المكتب.. تحدق فى وجهى كل مرّة عقب انتهائنا.. عيناها السوداويّتان يطل منهما مزيجاً مدهشاً من الرضا والحب والبؤس والرجاء.. هذا الرجاء بالذات حيرنى لبعض الوقت حتى بدأت أفهم.. أكاد أسمعها تردد فى أعماقها..

- ما تستر علىّ و تتجوزنى واعيش خدمة تحت رجلك..
ألتقط سيجارة من علبتى وأشعلها.. أنفث الدخان بعمق وأنا أنظر إليها.. وجهها الأسمر.. خصلات شعرها المجددة.. عينيها الضارعتين الحزيتين.. هل ستصدقينى يا صغيرتى عندما أخبرك أننى لا أعترض عليك لشخصك..؟.. هل ستفهمينى عندما أقول لك أنّ هذا العالم القذر المحيط بنا لا يستحق علاقة محترمة نقيمها فنكافئه بها..؟.. لا يستحق أطفالاً نجلبهم إليه فتتمزق أرواحهم بين تروس الرأسماليّة والإستهلاكيّة من جهة، وتروس الجهل والتخلف من جهة أخرى..؟.. هل ستد..

متى بدأ الكابوس..؟.. لا أذكر تاريخاً محدداً..
طرقات عنيفة على الباب.. تجفل.. تهب واقفة وتستر عريها بثيابها الملقاة.. أنهض أنا.. أغلق باب الغرفة من خلفى.. أخطو عبر الردهة نحو المدخل.. الطرقات تزداد عنفاً.. أفتح الباب.. وجوه شرسة ناضحة بالغضب..

- من أتمم..؟.. وماذا تريدون..؟..
فى الواقع لا أذكر كثيراً ما جرى وما قيل بعد ذلك.. أذكر فقط أول ضربة هوت على رأسى فأسقطتنى أرضاً.. ثم..
"هو ابن الكلب ده اللى ضحك عليها و غواها" .. «هى فين..؟»..
«شوفوها جوه».. صوت صراخ (سميرة).. الضربات تنهال على جسدى من جميع الجهات.. الألم رهيب رهيب.. «إدبحوه و ادبحوها»..
«خدوها ع البيت الوسخة».. (سميرة) تصرخ.. أتلوى على الأرض.. الضربات.. مذاق الدم.. سنتى الأماميّة تنكسر..

فيما بعد.. روى لي (فتحي) -الدليلر الذي يمدني بالحشيش- وهو يجفف الدماء المتجلطة على وجهي بقطنة مبللة كيف هرع إلى هنا بعدما رأى أهل الفتاة قادمين والشر «ينبط من عندهم»، وأنه عندما رآهم يكادون يقتلونني اطلق من حلقه «شخرة طيرت الطير من ع الشجر» وفتح عليهم مطواته صارخاً بأنه سيقطع أول يد تمتد نحوي.. - يعني إنت يرضيك يرمط شرفنا ف الطين و نسييه يا معلم (فتحي)؟..؟..

- هو كان ضربها على إيدها..؟.. ماهي قدامكم أهي إسألوها..
- يا معلم مايصحش كده إنت تفهم ف الأصول ..
- اللي أفهمه دلوقتي إنكوا تاخدوا بنتكم و تغوروا من هنا .. و اللي انكسر يتصلح .. وانا بالليل هانعدى عليكم و تتفق على كل حاجة..
- بس يا معد..
- (بغلظة) : مابشش .. ياللا غوروا من هنا قبل ما الشيطان يوزني واعملها معاكو..

و غمس قطنة جديدة في الماء و هو ينظر لي بلوم قائلاً:
- مالقيتش يا باشا غير البت المعفنة دي و تمام معاه ..!!؟ دي حتى معصعة و فقرية و أهلها كلهم ولاد كلب جريانيين.. ما كت قلت لي إنك ليك غرض ف النسوان و آني كنت نجيبك اللي أجمل و أنصف منها ميت مرة زي مابنجبولك مزاجك..
و ناولني سيجارة حشيش مشتعة مردفاً بجديّة:
- بس خلّي بالك.. آني ادبتهم كلمة إنك هاتصلح اللي إنكسر.. العالم دي معفنة بس ف موضوع العرض ده مايرحموش.. وانت برضه كسرت برشامة بنتهم..

نفث دخان الحشيش و سعلت متسائلاً بصوت متحشرج :
- يعني إيه..؟..
- تعقد عليها يا باشا.. حبر على ورق.. وبعد كده ابقى إرميلها هي وأهلها قرشين وكل واحد يروح لحاله ويا دار ما دخلك شر..
لم أجادله لأنني كنت أشعر باختناق وأرغب في الفرار من كل هذا الهراء بأى ثمن.. نفذت السيناريو حرقياً.. وعقب خروجي من دارهم

سحبت الموبايل من جيبي وطلبت رقماً.. سمعت الصوت العزيز..
- (بصوت مخنق) : بابي.. أرسل إليّ من يأخذني من هنا..

(صمت طويل .. طويل ..) ثم ..
- (بصوت خفيض) : حتى الآن لم أعرف ما دخل تناسخ الأرواح بهذا
الموضوع ..

- Sorry دكتور .. لا أدري لم استفضت بهذه الصورة ..
- لا عليك .. تكلم كما تشاء ..
- (يتنهد) : عدت غير نادماً إلى (باراديس هايتس) .. مرّت أيام عديدة
قبل أن أسمع الأنين ..
- أنين...!!..

- (بصوت متوتر): أنين طويل متألّم تسلل إلى أذنيّ.. كأنّ أحدهم قد
تمزقت أوصاله منذ وقت قليل في الجوار..

ليه أمشي حافي، ونا منبت مراكيكم..
ليه فرشى عريان، ونا منجد مراتكم..
ليه بيتى خربان، ونا نجار دواليكم..
هى كده قسمتى؟..
الله يحاسبكم..
يرم التونسي

- إفتحى الشّبّاك شويّة يا وليّة .. الدنيا حر ..
- الصهد كده هايدخل يا (ابو فوزى) ..
- يدخل والا يطلع .. يا وليّة افتحى آنى خلاص هانتخّنق ...
- بعد الشر عليك يا خويا ..
مسحت قطرة من العرق سالت على جيبنى و كادت تتسلل الى عينى
لتحرّقها ... نفس عميق .. أشعر أن الشقّة - الضيقّة أصلا - تضيق أكثر
و أكثر حتى لتكاد تخنقنى ..
سمعت الولدان يصرخان و يتعاركان فى غرفة النوم الوحيدة بالبيت ..
هتفت :

- بطلّ خناق يا كلب منكّ له أحسن و رب العزّة نقومو لكم ...
«مشروعنا (إيجى — نيرجى) من المشروعات الطموحة الّتى تستهدف
بالدرجة الاولى تحقيق نهضة صناعيّة و خدميّة للوطن بأكمله ...»..
بعينين لا تكادا تريان .. و باذنان لا تكادا تسمعان .. رحت اتابع تلك
الفقرة الإعلانيّة مدفوعة الأجر الّتى يعرضها برنامج (مساء الخير يا
مصر) ...

«يعانى العالم كلّهُ من مشكلة تناقص مصادر الطاقة ... و دخلت جميع
الدول فى سباق محموم لتوفير طاقة رخيصة و نظيفة.. دول لجأت الى
الطاقة الشمسيّة ... و دول اخرى اعتمدت على الطاقة النوويّة.. و دول

ثالثة مازالت تعتمد على مخزونها من البترول و الغاز الطبيعى ..»
القدر يسرى فى جسدى بعد صحنى البصرة اللذين التهمتهما.. ومذاق
البصل مازال يحرق جوفى بشدة..

- فىن البطيخ يا ولية ..؟..

«(إيجى — نيرجى).. أول شركة مصريّة عالميّة متخصصة فى إنتاج
وتوليد وإستخلاص طاقة الرياح.. وقد أثبتت الأبحاث والدراسات
العلميّة أنّ طاقة الرياح من أهم و أوفر مصادر الطاقة المتجددة غير
المستغلّة.. ووفقا لجداول الاحصاءات والدراسات الجغرافيّة وتقارير
متابعة الأرصاد الجويّة فإن المنطقة الممتدّة بطول الساحل الشمالى
لـ (مصر)، والمطلّ على البحر الأبيض المتوسط تعتبر من أغنى مناطق
العالم بطاقة الرياح نظراً لتلاقى تيارات هوائية مختلفة أقواها بالطبع
الرياح الشمالية الغربية القادمة من (أوروبّا) شمالاً»..

شرائح البطيخ الحمراء توضع أمامى مرصوصة على صينيّة معدنيّة ..

- (وأنا أختطف واحدة): تسلمى يا (ام فوزى)..

- بالهنا و الشفا يا خويا .. (ثم ترفع عقيرتها) : يا عيال .. تعالوا كلوا
بطيخ ..

«تمتلك (إيجى - نيرجى) أحدث تكنولوجيا لاستقبال طاقة الرياح
وإستخلاصها وتحويلها إلى طاقة كهربيّة متدفّقة بلا انقطاع ... و قد
أقامت سلسلة من محطات الإستقبال و الإستخلاص على طول الساحل
الشمالى المصرى .. و تقوم هذه المحطّات بإرسال الطاقة المولّدة
والمستخلصة إلى محطة المحوّلّات الرئيسيّة المقامة عند الكيلو ٥٢ ..
وهناك يتم خفض جهدها و إرسالها إلى لوحات توزيع جهد ٢٢ فولت،
والّتي تقوم بدورها بتوزيع الطاقة الكهربيّة على مناطق الاستهلاك
المختلفة ..»

مذاق البطيخ البارد اللذيذ يملأ حلقى و معدتى فيربط نيران جهنّم
المستعرة بداخلهما .. الحمد لله رب العالمين ...

خرووووشش ... خرووووشش ...

- بالراحة يا واد منك له .. هو الأكل هايطير ...؟..

قالت امرأتى ضاحكة و هى تلوك الفاكهة لذيدة الطعم :

- يوه يا (ابو فوزى) .. ما تسبب العيال تاكل .. ربنا يخليك لنا ...
خرووووش ... خرووووش ...

لفظت البذور السوداء في راحة يدي ، و أسقطت ما تجمّع منها في
الصينية (لوضعها في الشمس) بجوار قشور البطيخ .. تجشأت بصوت
مسموع ، و لعقت ما تبقى من آثار البطيخ على أصابعي ، و أنا
أتأمل الطفلين - (فوزى) و(على) - وهما يزددان البقايا الموجودة في
الصينية...

«طاقة (إيجى — نيرجى) تمتد لتخدم ما يزيد عن عشرين مليون
وحدة سكنية وتجارية و صناعية ، و نخطط لتغطية جميع أنحاء
الجمهورية في أقل من عامين»...

تهض (محفوظة) - امرأتى - حاملة الصينية من على الطليّة الى
المطبخ .. تخاطب الطفلين :

- يالا يا عيال .. انزلوا العبوا تحت مع العيال في الحارة ...

أدركت على الفور ما تخطط له ، فصحت مزعجاً :

- لعب ايه يا وليّة ف الحر ده ؟.. إنتى عاوزه العيال تجيلها ضربة
شمس ..؟..

- الشر برّه و بعيد يا خويا ... سيب العيال تلعب وتبسط ... دى حتى
الحبسة مش كويسة علشانهم ..

- (ياالحاح) : و بعددين العيال ولاد (جمعة) الحلاق دول حلايف
ويضربوا الواد (على) .. وأنى مش عايز نعملو عاركة معاه ..

- أهم عيال و يلعبوا مع بعض ...

زفرت بحق .. سمعت الولد الكبير يهتف :

- عايزين فلوس يا بويا ..

وصاح الصغير مقلدا بصوته الرفيع :

- أيوه عايزين فلوس يا بويا ..

قلت بغيط :

- روحوا خدوا من امكم بقى ...

جاء صوتها من المطبخ ممزوجا بصوت المياه المتساقطة من الحنفية:

- تعالى يا (فوزى) خد الجنيه اللى ع النملية ...

- مايكفّيش .. هاق جنيه كمان عشان نشربو صاروخ ...
- وانتوا لازم يعنى تشربوا صاروخ..؟!.. خد نص جنيه تانى أهو مفيش
غيره ...

و دون كلمة اخرى اختفى الولدان كأثما انشقت الأرض و ابتلعتهما..
استندت الى الأريكة المتهالكة ، و نهضت بصعوبة من على الأرض،
واتّجهت بخطوات مثاقلة الى غرفة النوم - الوحيدة - و استلقيت -
كالجوال - على الفراش ...

رحت أنفوس بصعوبة ، شاعراً بأن ثقل الطعام يجثم على روجي ...
أسمع صوت خطواتها .. واضح من لهفتها أنّ الرغبة تملؤها .. إنقلبت
على جانبي.. فشش فششش .. رائحة عطرها تملأ الغرفة .. اغلق
عينى.. أتظاهر بالنوم ...

السريـر يئن تحت ثقلها الاضافى .. أشعر بأصابعها تزحف على كتفى ..
أسمع صوتها الناعم :

- (أبو فوزى) ...

- خخخخخخ ...

- أيوووه .. انت لحقت تنام يا راجل..!!؟..

«(إيجى — نيرجى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان»..

على عكس فترة الظهيرة و ما بعدها، جاء الهواء بارداً منعشاً فى المساء..
كنت جالساً على تلك الأريكة الخشبيّة القديمة أعلى سطح بيت الرئيس
(فتح الله) فى (المزريطة).. تراجعت مسنداً ظهري إلى الوسادة الموضوعة
عرضياً على ظهر الأريكة ورحت أداعب بأصابعى أوراق اللبلابة المدلاة
الى جوارى.. سمعت (عاشور) يقول بصوته الأجش:

- احنا مش لازم نستنوّ أكثر من كده..

قال الرئيس (فتح الله) و هو يقبل حاملاً صفحة عليها أكواب الشاي
الساخن :

- اهدا يا بنى ..

هب (فرحات) ليلتقط منه صينيّة الشاي و يوزّع علينا الأكواب بينما
قال (عاشور) :

- نهذا ازای بس یا ریّس..؟.. هانقعدو نتفرّجو علیهم کده و همّا بیبیعوا یشتروا فینا ..؟..

سکینه جمیلة تغمرنی منذ أن أدّیت صلاة العشاء فی مسجد (القائد ابراهیم) المجاور.. إلّ تقطت کوب الشای الساخن.. لأول وهلة ملأت صدری رائحة النعناع الأخضر المتصاعدة مع أبخرة الشای.. سمعت الریّس (فتح الله) یقول برزانة:

- التسرّع مش هایفیدنا ف حاجة.. ده ممکن کمان یبوّظ الدنیا کلّها..
رشفة مسموعة من الشای.. ثم تساءل (نعمان):

- سسلففف (رشفة شای).. طب انت شایف ایه یا عمّا ..؟..
- سسلففف (رشفة شای).. آنی بنقول نستوّ رد اللجنة النقایّية.. همّا وعدونا انهم یردوا علینا بعد اسبوعین.. والاسبوعین هایخلصوا بعد ۳ تیّام ..

السطح مضاء جیّدا بواسطة کلوب معلّق علی سطح غرفة غیر مکتملة البناء.. ومن الحارة المجاورة تصاعدت ضوضاء مختلفة هی مزيج من أبواق السیّارات و صراخ الأطفال و ضحکات الرجال و نداءات بعض الباعة وسباب الصیّع..
قال (عاشور) بحنق:

- بس انت عارف یا ریّس ان اللجنة النقایّية بتقبض من صاحب المصنع.. وعمرهم ما هایعضوا معاه..

مددت یدی الیهم بعلبة سجائری المفتوحة متمما :

- طب و (حسین مغاوری)..؟..

- (یسحب سیجارة من العلبة): ده بقى بالذات کرشه واسع أوّی.. وذمّته
أوسع ..

تساءل (نعمان) مرة اخرى:

- طب واذا ماردتش اللجنة علینا بعد ال ۳ تیّام ما یخلصوا..؟..

- ساعتها بقى هایبقى فیہ تصرف تانی..

- زى ایه..؟..

هنا تکلم الریّس (حمدی) لأول مرّة فقال:

- زى اننا نسحب الثقة من اللجنة.. و نعمل لجنة جدیدة..

أسرع الرئيس (فتح الله) يقول:
- ده كلام سابق لأوانه يا اخواننا.. أما نشوف الاول رد اللجنة..
ارتشفت الشاى بصوت مسموع، بينما سمعت الرئيس (حمدى) يقول
بهدهوء :

- احنا لازم نكونو جاهزين برد فعل سريع لأى تصرف من اللجنة يا
حاج..

- سسلففف (رشفة شاى).. آنى عارف ان اللجنة مش هاتبيعنا.. الاستاذ
(محمّد حسبو) بلّغنى انهم مش راضيين عن الوضع.. وهايضلوا ورا
المالك الجديد لغاية ما يرجعوا لنا كل حقوقنا..
نفث (عاشور) دخان سيجارته بعنف قائلاً:

- ماتأخذنيش يا حاج.. الاستاذ (محمّد حسبو) ده ماتخذش منه كلام..
لمعت عينا الرئيس (فتح الله) بالغضب وهو يقول:

- قصدك ايه..؟..

أسرعت أنا أقول:

- مايقصدش حاجة وحشة يا حاج لا قدر الله.. هو بس يقصد ان
الاستاذ (محمّد حسبو) راجل طيّب، والعالم الى حواليه دول ولاد
حرام.. بينيموه بكلمتين حلوتين، ويلعبوا بديلهم من وراه..
- (بغضب): ولو.. الراجل وعد ان الموضوع مش هايترك.. ولازم نستنى
عليه..

و نفث سحابة من دخان التبغ متابعاً:

- أى تصرف هانقوم بيه ضد اللجنة هايكون ليه مردود وحش ف
اتحاد العمال.. واحنا مش عايزين نخسر الاتحاد.. فللازم نصبر شوية
لغاية مانشوف آخرتهم ايه..

أنهى كلماته، وساد من بعدها صمت متحفّز.. رحت أتحمس البلاط
البارد تحت قدمي العاريتين (و قد خلعت حذاءي)، ودرت بعيني في
الجالسين.. سحب الدخان تموج فوق الرؤس.. أطرق (عاشور) بوجهه
المحتقن المربد بالغضب أرضاً، بينما ظل قناع من الهدوء يغطى وجه
الرئيس (حمدى).. تشاغل (نعمان) بارتشاف ما تبقى من قطرات الشاى
في كوبه.. أما (فرحات) فراح -كعادته الوسخة- يعبث باصبعه في ثقب

- لا أفهم شيئاً يا باشمهندس.. من هو (عاشور) و(فتح الله)؟.. ومن هو (أبو فوزي) هذا؟.. وما دخلك أنت بكل هذا؟..
- (بعد لحظات من الصمت): لا يمكنني الجزم بشيء.. كل ما أستطيع قوله لك هو أنني عشت هذه الأحداث بكامل تفاصيلها من قبل..

- ممكن أعرف مطالبكم بالتحديد؟..
تساءل المهندس (عادل المهدي) -مدير عام التنفيذ بالمصنع- وهو يسترخي في مقعد مكتبه الوثير، فأجاب الرئيس (حمدي) بصوتٍ قوي:
- مطالبنا انتو عارفينها كويس يا (عادل) بيه.. وعرضناها عليكم قبل كده، وماحققتولناش منها أى حاجة.. مع إننا مش طالبين أكثر من حقوقنا..
قال (حسين مغاوري) -رئيس اللجنة النقابية- الجالس الى أريكة جانبية:

- مفيش مانع إننا نسمعها تاني دلوقت..
التفت اليه الرئيس (حمدي) قائلاً بحزم:
- إنتو بالذات يا (حسين) بيه راسيين على موضوع المكافآت وأرباح الأسهم بتاعتنا اللي ماصرناهاش من سنين.. وسنة ف سنة تعشّمونا اننا خلاص هانصرفها.. ولا صرفنا مليم احمر.. لغاية م- الشركة والمصنع اتباعوا واحنا اتبعنا معاهم.. والمستثمر ضرب طنناش على فلوسنا..
قال (عادل المهدي) بلهجة دبلوماسيّة:

- يا رئيس (حمدي).. إنت عارف إن الإدارة الحالية بتسعى أنّها تطوّر الإنتاج و ترفع معدلات الأداء.. وده بيتطلب ضغط النفقات.. يعنى مانقدرش إننا نصرف الأرباح ونحقق التطوير ف نفس الوقت.. فكان لازم حاجة تستتني وحاجة تتقضى.. وانت برضه رئيس عمّال وتهممك مصلحة الشركة بتاعتك..

- الناس مالهناش دعوة بالكلام ده يا (عادل) بيه.. إحنا بنطالب بحقوقنا بقالنا سنين و ماطلناش منها حاجة..

تدّخل (حسين مغاوري) بسرعة قائلاً:

- آنى اتكلّمت مع الرئيس (فتح الله) وقلت له اننا أقنعنا الادارة إنها

تصرف مكافأة الـ ٢١ يوم..

- الـ ٢١ يوم دول تصرفهم لنفسك يا (حسين) بيه.. إحنا مصرّين المرة دى اننا نأخذ كل حقوقنا..

فتح (مغاورى) فمه ليتكلم ، ولكن الرئيس (حمدى) تابع:

- كُنا عارفين انكُم مش هاتعبرونا.. ورغم كده سمعنا كلام كبيرنا الرئيس (فتح الله) وقلنا نصبر لَمَّا نشوف آخره الكلام الجميل و الوعود ايه.. لكن اتضح إن مصلحة العمّال هى آخر حاجة بتفكروا فيها.. ده إذا حصل أصلاً و فكرتوا فيها..

- (غاضباً): إيه اللهجة اللى بتكلمنى بيها دى يا ريس (حمدى)؟.. إنت هاتنسى نفسك واللا إيه..؟..

تدخل (عاشور) لأول مرّة صائحاً:

- إنت اللى ماتساش نفسك يا (حسين) يا (مغاورى) ... مصيبة لاتكون فاكِر نفسك رئيس اللجنة النقابية بصحيح ..

إريد وجه (مغاورى) بالغضب وهو يهتف:

- إحترم نفسك يا (عاشور) واعرف انت بتكلم مين.. أنا ممكن نوديك ف داهية عشان طولة لسانك دى..

كاد (عاشور) يصرخ فى وجهه مرّة اخرى لولا أن قبض الرئيس (حمدى) بقوة على ذراعه فى حين صاح (عادل المهدي) بحزم:

- بس كفاية.. الخناق ده تروحوا تتخانقوه ف الشارع.. انما هنا فـ مكتبى.. كل واحد يلزم حدوده..

شدّ الرئيس (حمدى) قامته قائلاً:

- الكلام بيقى معايا انا يا (عادل) بيه..

- بصفتك ايه..؟..

- بصفتى رئيس اللجنة النقابية..

هنا صاح (حسين مغاورى) باستنكار:

- سمعنى كده تانى بتقول ايه..

- (بصرامة): انت سمعتنى كويس ..

- (بغضب هادر): إنت أكيد جرى لمحكّ حاجة.. رئيس اللجنة..؟..

أمال آنى نبقى ايه يا .. يا اسطى..؟..

- إِنْتَ عارف كويس انت إيه.. وجيت مكانك ده ارّاي.. إِنْتَ جاي علينا من فوق بتعليمات.. لا حد انتخبك ولا حد اداك صوته.. وعشان كده مش هأمك حد م العمال..

قال (عادل المهدي) بحزم:

- كفاية كده يا ريس (حمدي)..

- (وكأنه لم يسمع): احنا عارفين ده كويس.. ومتأكدين انك مابتسعاش غير ورا مصلحتك.. انت واللجنة بتاعتك.. وعشان كده عمال المصنع سحبوا الثقة من لجنتك.. وكوّنوا لجنة جديدة اختاروني ريس ليها..
صاح (مغاوري):

- ده كلام فارغ.. محدش من سلطته إنه يسحب الثقة من اللجنة النقاية.. و لجنتك دي مش قانونية..

تجاهله الرئيس (حمدي) والتفت إلى المهندس (عادل) وأشار إلى قائلاً:
- الاسطى (عمار) معاه صور توكيلات أكثر من ٣٠٠ عامل من عمال الشركة عشان اللجنة الجديدة لو حضرتك تحب تطلع عليهم.. وبصفتي الرئيس المنتخب.. أبلغك إن العمال ابتداء من النهاردة بعد ما تخلص ورديّة الساعة ٣ .. في حالة إضراب واعتصام مفتوح داخل المصنع لغاية ما الادارة تستجيب لمطالبهم وترجع لهم حقوقهم..

ساد للحظات في الغرفة صمت مشحون بانفعالات شتى تمثّلت في إحتقان وجه المهندس (عادل) و تصاعد أنفاس (مغاوري) المنفعلة، قبل أن يردد الأوّل بغضب مكتوم :

- إضراب واعتصام..؟..

- (بهدوء): أيوه ..

- هنا ف المصنع..؟..

لم يرد الرئيس (حمدي)، وظلّنا نتبادل نظرات التحدّي مع الرجلين، قبل أن يقول المهندس (عادل) بهدوء مفتعل:

- بس ده تصرف مش سليم يا ريس (حمدي).. ومش هايجب أي نتيجة..

- ماخليتولناش طريق تاني يا باشمهندس..

صاح (حسين مغاوري):

- إنت بتلعب بالنار يا (حمدى).. وآنى لِيَا كلام تانى مع الرئيس (فتح الله) لَمَّا يقوم بالسلامة..

لَوْح الرئيس (حمدى) بسبابته قائلًا بصرامة:

- إسمى الرئيس (حمدى).. والحاج (فتح الله) لا يمكن يتفاوض معاك حتى بعد لَمَّا ربنا يشفيه.. ده ماوقعش من طوله الا لَمَّا عرف انك انت واللجنة بتاعتك بعثونا لصاحب المصنع.. وأدار عينيه إلى المهندس (عادل) قائلًا:

- بالاذن يا باشمهندس.. لغاية مَّا توصلوا لحل مع صاحب الشركة ونصرفوا لنا حقوقنا.. إحنا مش متتعيين م المصنع.. سلام عليكم.. والتفت مشيرًا إلينا:

- بينا يا اسطوات..

لم تكن الأيام التالية سهلة على الإطلاق.. قمنا بايقاف الماكينات، وتوقف المصنع عن الانتاج، وتوقف معها صرف رواتبنا، ولكننا لم نكن مستعدين للتراجع.. كان هناك الكثير من الصراخ والتهديد من قِبَل الادارة، وتوعّدنا الباشمهندس (عادل) بخراب بيوتنا، وبأن الادارة تدرس خطوة الفصل الجماعى لعمّال المصنع، ولكننا لم نترزعزع..

ذات يوم حضر السيد (عمران الشايب) نائب المنطقة في مجلس الشعب، واجتمع بالرئيس (حمدى) لساعة كاملة في مكتب رئيس العمال، خرج بعدها بوجه محمرّ كالطماطم، وبينما هو سائر نحو سيّارته قال له الرئيس (حمدى) -وكان واقفًا عند البوابة- بصوت مرتفع:

- خاف ربنا يا (عمران) بيه.. المفروض إن انت النايب بتاعنا.. يعنى ترعى مصالحنا وتقف معانا بدل ما تقف معاهم..

و بعدها بيومين.. حضر ضابط شاب من مباحث أمن الدولة أخبرنا أنّه الرائد (حاتم البكرى)..

- المعلومات الى عندنا بتقول ان الإخوان المسلمين بيدعموا الاضراب بتاعكم..

- دعم إيه بس يا باشا..؟.. إحنا مالناش دعوة ياخوان ولا حتّى بأخوات..

إحنا ناس غلابة بندورّ على حقوقنا..

- (نفث دخان سيجارته المستوردة): بس الإخوان ليهم ناس وسطيكو..
يقصد بذلك (محمّد فرحات) -وكان زوج شقيقته إخوانيّ- وكان الرّيس
(حمدي) يدرك ذلك جيّداً:

- يا باشا لو كنت تقصد (محمّد فرحات)، فسيادتك أكيد عارف
ان نسييه هو الى ييشغل مع الاخوان.. لكن هوّ لأ.. هه هه..
(فرحات)..؟.. ده حتّى مايركعهاش..

- ع العموم احنا هانخده عندنا كام يوم.. وهناك هانعرف اذا كان
بيركعها واللا مايركعهاش..

- إرحمه يا باشا الله لا يسيئك.. ده راجل غلبان وصاحب عيال..

- (بلهجة حازمة): مش عايز كلام كتير ...

وارتدى منظاره الشمسي متأهباً للانصراف..

- إحنا سايبنكو تحلّوا مشاكلكم بنفسكم مع صاحب المصنع.. لكن
لو عرفنا ان فيه اتصال حصل بينكم وبين الإخوان .. أو أى محطة
فضائية.. هانوقف اللعبة وهاتروحوا كلّكم ورا الشمس.. مفهوم..؟..

كان الأمر عبارة عن لعبة صبر وقوّة احتمال.. صاحب المصنع -وهو
سعودي الجنسيّة بالمناسبة- يخسر أموالاً طائلة عن كل يوم يمرّ بلا
إنتاج.. بينما حالتنا نحن تزداد سوءاً يوماً بعد يوم بسبب توقف الإدارة
عن صرف رواتبنا الّتي تعيش عليها الأقواة المفتوحة الّتي تملأ بيوتنا..
وكان السؤال هنا: من سيصرخ أولاً..؟..

كانت الأيام تمرّ، والأوضاع تزداد صعوبة.. قالت لي (محفوظة) -
إمرأتى- ذات مرّة وقد جاءت لزيارتي في المصنع حاملة بعض الطعام:
- و آخرتها إيه يا (ابو فوزى)..؟..

- مالك يا ولية..؟..

لم ترد.. ظلّت واجمة شاخصة العينين.. اقتربت منها.. إحتويّت
وجهها بين كفىّ.. رفعت رأسها نحوى.. هالنى منظر عينيها وقد
التمعتا بالدموع.. قلت بارتجاع:

- في ايه يا (محفوظة)..؟..

أسرعت تمسح عينيها وتقول:
- مفيش يا خويا.. ربنا يخليك لينا..

صحت:

- اتكلمى يا وليّة..

صمتت للحظة ثم خفضت بصرها قائلة بصوتٍ داعم:
- الواد (على) سخن بقاله يومين.. خدته ع المستوصف.. الداكتور كشف عليه ولقى عنده نزلة معويّة.. قال لى ان الميّة اللى بنشربها وسخة.. قلت له ماحنا طول عمرنا بنشربوها وعاشين زى الفل.. قام زعّق فيّا وقال ان جتتنا ملايانه بلاوى.. وكتب للواد شويّة أدوية على كام حقنة.. مع كلماتها.. هوى قلبى بين قدمي.. سألتها بقلق:

- جبتي فلوس الدوا منين..؟..

- (بابتسامة مغتصبة): ريك ماييسيبش حد..

ولكّى كنت أعرف الحال جيّداً.. خفضت بصرى إلى أصابع يدها الخالية.. قلت بصوت مرتهدج:

- ديلتك..؟..

ربتت على كتفى قائلة بحنان:

- بكرة إن شاء الله يا خويا تجيلى اللى أحسن منها.. بس بعد ربنا ماينصركرم على ولاد الكلب الظلمة دول.. نظرت إليها عاجزاً عن الكلام..

تمرّ الأيام، والأوضاع تزداد دقّةً وحرَجاً.. ورغم ذلك احتفظنا - نحن العمّال - بقدر عال من التماسك.. وشيئاً فشيئاً.. بدا أن الإدارة صارت أكثر مرونة وأقلّ تعنّياً في التفاوض معنا.. إنتعش الأمل في قلوبنا.. ورحنا نعدّ الأيام والساعات في إنتظار اللحظة الّتى تستجب فيها الادارة لكامل مطالبنا..

حتى جاءت تلك الليلة..

عقب صلاة العشاء.. توجهت إلى العنبر الّذى أنام فيه.. وجدت الرئيس (حمدي) ينتظرني في الممر المؤدى الى العنابر.. إنتحى بى.. همس

فى اذنى:

- خلاص يا (عمّار).. فُرجت..

سألته غير مصدق:

- إزّاي يا ريس..؟..

إبتسم فبرزت التجاعيد المحيطة بفمه والمجاورة لشعيرات لحيته البيضاء وهو يقول:

- (عادل المهدي) اتّصل بيّا من عشر دقائق.. وقاللى إن الادارة مستعدة تصرف كل مستحقّات العمّال.. وبكره ان شاء الله هاتيجى لجنة ومعاهّا تعهد موثق من الإدارة بدفع الحوافز والأرباح المتأخرة..
لثوانٍ تلاحقت أنفاسى.. دمعت عيناى.. همست:

- الحمد لله رب العالمين..

قال بجديّة:

- إنت بقى شايف ايه..؟.. نقول للرجالة بره ع الخبر ده دلوقتى واللا نستى لبكرة لما اللجنة توصل وناخد التعهد..؟..
- (بانفعال): ونستى لبكره ليه يا ريس..؟!.. تتوكل على الله و نفرّحهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الا ربنا..
صمت مفكراً للحظات قبل أن يتنهد قائلاً:
- على بركة الله..

مهما حاولت فلن أستطيع وصف فرحة مئات العمّال المشاركين فى الاضراب بموافقة الإدارة على صرف مستحقّاتهم..
كان اليأس قد بدأ يتملّك النفوس بعدما مرّت أسابيع طويلة دون أى نتيجة.. ودون أيّة موارد مالية أيضاً بعد أن أوقفت الإدارة صرف المرتبات طيلة فترة الإضراب..

راح الرجال يتبادلون الأحضان ويغنون ويرقصون.. وكانت سهرة رائعة لم نسهرها طيلة فترة الإضراب استمرّت حتّى قرب الفجر..
كانت ساعتى تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً عندما استيقظت من غفوة قصيرة.. إعتدلت جالساً وتمطّأت.. لم يكن قد تبقى سوى ربع الساعة على أذان الفجر.. نهضت بصعوبة -بعد سهرة الأمس- متوجّهاً

إلى دورة المياه ..
قضيت حاجتي .. تَوَضَّأت .. رحت أجفف ما تساقط على وجهي من ماء
الوضوء أثناء سيرى عبر ظلام قاعة الماكينات متَّجها نحو المصلّى ..
الصمت يسود المكان ..

.....

.....

.....

.....

كرييبيبيك ...

.....

أجفلت .. تجمّدت في مكاني .. أدرت بصرى نحو مصدر هذا الصوت ..
صحت بصوتٍ مبحوح:

- ميين ..؟ ..

لا جواب سوى الصمت .. كدت أكمل سيرى على افتراض أن فأراً هو
الَّذى أحدث هذا الصوت، غير أنني حدثت نفسي بأنّ الصوت أعلى
من أن يسببه فأراً ..

- ميين ..؟ ..

لا رد .. تقلّصت أحشائي من الخوف .. تحسست طريقي عبر الظلام
إلى زرّ الانارة .. زحفت أصابعى على الحائط الجيرى المتّسخ .. ضغطت
الزر .. الإضاءة الصفراء الشاحبة تغمر القاعة .. لا بدّ أنها ستجذب
انتباه العمّال الساهرين في الساحة خارجاً، وغيرهم ممّن استيقظوا لأداء
الصلاة ..

تحركت -وقلبى يدق بسرعة من الخوف- نحو الماكينة الّتي صدر
الصوت من ناحيتها .. درت حولها .. لا شئ مريب .. تنفست الصعداء ..
إنّه مجرد فأر كبير إذن ..

كدت أن أعود لإستكمل سيرى وقد اطمأنّ قلبى .. لولا أن لاحظت
وجود جسم غريب مثبت بقاعدة الماكينة .. غريبٌ هذا .. إقتربت
لأفحص هذا الجسم عن قرب و ..

تميلُ غريب يسرى في أطرافي.. في جسدى كله.. لا أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل أصبت بالشلل..؟.. أم لعلّه الموت..؟..

أرقد على فراشى.. عيناى مثبتتان على السقف الملى بالشقوق.. البرد شديد.. شديد.. لابد أنّه الموت قادماً.. رُغماً عني ملأتى الفكرة خوفاً.. وشعرت بدمعة باردة تفر من عيني..

أيّام عديدة مضت منذ عودتى إلى الـ (هايتس).. لا أذكر عددها، ولا كيف مرّت.. الحقيقة دكتور (حازم) أننى كنت مخموراً طيلة هذه الأيام.. لم أكن أفيق إلا لأتجرّع المزيد والمزيد من الخمر بصحبة عدد من أصدقائى القدامى..

كان الإحساس بالفشل يملؤنى.. يمزقنى طيلة الوقت.. أحلام وآمال كبرى بنتها فى خيالى، وعشت لشهور وسنوات أراها تنهار حتماً وراء الآخر.. أنت أب يا دكتور ويمكنك أن تفهمنى جيداً.. أن تنجب طفلاً.. تراه أمامك.. تتحسس بشرته الناعمة.. تداعب أصابعه الصغيرة.. ترى صدره ينبض بالحياة.. ثم تجد حفنة من الجهلة والمتخلفين يطرحونه أرضاً ويضربونه بأقدامهم حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هذا هو بالضبط ما أحسست به..

أتذكر هذا وأشعر بمرارة شديدة وبثقل يجثم على صدرى، فأرفع الزجاجة إلى فمى وأتجرّع المزيد والمزيد..

كان استقبال رفاقي القدامى لى حافلاً.. بعضهم تغيّر و انخرط فى البيزنس، والبعض الآخر ظل كما هو يمتهن إنفاق أموال ذويه وما أكثرها..

غير أنى لاحظت أن عديدين أصابهم تغيّر من نوع آخر.. توقفوا عن

ممارسة كل ما كانوا يفعلونه، فأطلقوا لحاهم وارتدوا الجلابيب البيضاء الصغيرة، وامتنعوا تماماً عن مرافقة أصدقائهم القدامى.. رحلات عمرة شهرية.. إعتكافات في المساجد.. و.. و..

كانت (مايا أبو العيون) - رفيقتي السابقة التي حدثك عنها من قبل- هى أول من لاحظت غيابه.. تذكرتها ذات ليلة فاشتعل جسدى بالرغبة.. إستعدت فى لحظة واحدة التوافق التام الذى ساد بين جسدنا قديماً أثناء لقاءاتنا فى الفراش.. لم أطق الإنتظار.. سألت أحد أصدقائى عنها فضحك قائلاً:

- الشيخة (مايا) ...!!؟.. إنسى..

- الشيخة (مايا) ...!!؟..

- (يضحك): أى والله العظيم.. يبدو أنها لم تجد مزاجها مع أحد من بعدك فاعتزلت..

- منذ متى ..؟..

- عامين أو ثلاثة لا أذكر.. فجأة اختفت من النادى و ال coffe shops.. لم تعد ترد على مكالمات.. لم تعد تخرج.. ظللنا مدّة لا نعلم عنها شيئاً، حتى رأتها (هايدى) ذات مرّة فى ال down town تتسوّق.. كانت ترتدى ثياباً سوداء تغطيها بالكامل ماعدا عينيها..

- وكيف تعرّفتها (هايدى)؟..

- تعرّفت سيّارتها ال (شيروكى) أولاً.. ثم ميّزت طريقة مشيها.. نادتها فالتفتت إليها..

- وماذا دار بينهما؟..

- لا شئ.. حاولت (هايدى) أن تحدثها وتستفسر منها عن سبب إختفائها، غير أنّ (مايا) لم تمنحها أيّة فرصة.. أجابها بإقتضاب وبصوت خفيض أنها أغلقت صفحة حياتها القديمة، وبدأت صفحة جديدة مع الله.. ثم فرّت منها وكأنها تفرّ من عقرب..

كان الخبر مفاجئاً لى بحق.. ويبدو أنّ هذا بدا واضحاً على وجهى ممّا جعل صديقى يقول وهو يشعل سيجارته:

- نصف الشلّة فعلوا مثلها.. وفى أوقات متقاربة.. الأعراض تبدأ بأحاديث عن برامج (عمرو خالد) وسيديهاته.. ثم تأتى حمى الأعمال

خيرية وزيارة دور الأيتام وجمع التبرعات لعلاج مرضى السرطان..
التردد على جامع (الصحابة) في حيّ (المدينة) و الإنتظام في حضور
الدروس.. ثروة في الدين بمناسبة وبدون مناسبة.. الحلال.. الحرام..
ثم.. هوووب.. الإختفاء النهائي..

لا تسئ الظن بي دكتور (حازم).. لست كافراً بأى حال.. أنا مؤمن
بالطبع بوجود الله.. لا بد من وجود خالق لهذا الكون المحيط بنا..
وكما يقول (دستوفسكى): «إذا لم يكن الله موجوداً.. فإن كل القيم
والأخلاقيات تسقط من تلقاء نفسها».. وأى كلام آخر حول قدرة
الطبيعة على الخلق هو مجرد هراء..

غير أنني مؤمن أيضاً أن ما يريده الله منا هو أن نعيش حياتنا دون
أن نوذى أحداً.. لا أعتقد أنه خلقنا ليعذبنا ويكبت حريتنا ورغباتنا..
الرغبات والشهوات جزء من تكويننا.. ولو أرادنا الله أن نكبتها لما خلقها
لنا من الأصل.. إنها هي التي تجعل لحياتنا طعماً.. تجعلنا بشراً..
ماذا..؟! لا.. لا أصلي.. الصلاة والصوم والحج والعمرة وغيرها شعائر
لا شأن لى بها.. هل هي مقياس حقيقى للإيمان بوجود الله..؟! هل
مجرد صلاة المرء وجهه يكفيان للحكم على إيمانه.. لا أظن.. كثيرون
يمارسون الشعائر بإنتظام، و رغم ذلك لا يتورعون عن إرتكاب أى شئ
لتحقيق مصالحهم وعلى رأسهم أبى نفسه.. أين صلواتهم وشعائرتهم
هنا..؟! أين إيمانهم بالله..؟! هل نسوا وجوده..؟! أيهما أفضل
عند الله.. إيمان حقيقى بالوجود أم واجهة إيمانية زائفة أمام الناس
لا تمنع صاحبها من إرتكاب أبشع الموبقات..؟! ...
من فضلك دكتور.. هذه قناعتي، ولست مستعداً لمناقشتها.. دعنا
نعد إلى موضوعنا الأساسى..

«هل هذا صحيح..؟! أنا ميّت حقاً..؟! هل هذا هو ما يحسه
الموتى..?!»

لا ألم هنالك.. هذا مؤكد.. فقط قليل من الصعوبة في التنفس.. ولا
شئ آخر.. تنفس..؟! نعم تنفس.. أنا أتففس.. إذن فأنا حيّ.. مازلت

حيّاً.. حمداً لله ..
عَبثاً أحاول تحريك أطرافى بلا جدوى..
وجه يطل علىّ من أعلى.. لا أرى بوضوح.. الصورة أمامى مهتزة كأنّما
هى مطبوعة على صفحة ماء..
جبهة عريضة.. عينان ضيّقتين قاسيتين.. الأنف والفم مختفيان تماماً
خلف كمامة سوداء.. أو لعلّه قناع..
يميل علىّ.. إصبعان يمتدّان ليفتحا عيني اليمنى على إتساعها.. العينان
الضيّقتان تحدّقان بتركيز..
الوجه يبتعد عنيّ.. يتلاشى.. بصعوبة أسمع الصوت وكأنّه قادم من
أعماق بئر سحيقة:
- خذوا هذا..

لم يطل إنغماسى فى الشرب كثيراً..
فجأة.. ذات يوم.. أصابنى الملل.. نفور مفاجئ من حالة انعدام
الوزن.. إشتياق عارم للعمارة.. هل كلامى واضح بما يكفى..؟.. عندما
تذوّق طعاماً معيّناً وترتاح له، يصبح من الصعب أن تتركه إلى نقيضه
مهما حاولت أن تبتعد وتقتنع نفسك أنّك تعافه..
غير أنّى هذه المرّة كنت مختلفاً.. ألقىت جميع نظريّات البروفيسور
(هيجز) عن الإشتراكية وقناعات المعمارى السياسيّة والإجتماعيّة
ومحاربة الدكتاتوريّة والجهل والتخلّف وراء ظهرى.. ما شأنى أنا
المعمارى التقنى الحرفى بكل هذا الهراء..!!؟.. لماذا أهدر وقتى
وموهبتى وعلمى من أجل حفنة من الجهلة المنافقين هم أنفسهم لا
يريدون أن يغادروا كهوفهم المظلمة..!!؟.. ماذا يعرف هذا الإنجليزى
المتحذلق عن (مصر) والمصريين أكثر ممّا يقرأه فى الصحف والكتب،
ويراه على شاشات الـ(BBC) و(الجزيرة إنترناشونال)..؟.. أنت لم تر(مصر)
يا بروفيسور.. أنا فعلت.. وبصدق أقول لك أن أى كلام أو فعل لا
فائدة منه.. لقد انتهت (مصر) يا سيّدى.. ماتت وتعفّنت منذ قرون..
والموق لا يعودون إلى الحياة..

- وعدت لممارسة عملك..؟..

- نعم..

- في (الإسكندرية)..؟..

- لا..

- أين إذن..؟..

- إتخذت لنفسى مقراً بسيطاً.. فيلا صغيرة هادئة على الساحل الجنوبي للهايتس.. كانت ملكاً لأبي، ووافق على الفور على منحى إيّاها بمجرد أن فاتحته في الموضوع وقام بتجديدها وتزويدها بكل ما يلزم.. - لابد أنّه سعد كثيراً بعدولك عن أفكارك السابقة..

- بالتأكيد.. كان شديد الإبتهاج.. وكذا «مامى».. غير أنّها حزنت عندما أعلنت عزمى على الإنتقال إلى مقر عملى.. - إنتقلت لتقيم في مقر عملك..!!!؟..

- نعم..

- لماذا..؟..

- (يتنهد): لم يكن لدىّ متسع نفسى لتبادل فيض العواطف الذى غمرانى به.. كنت أريد الوحدة.. متلهف على تذوّق طعم النجاح.. أما «مامى» فكانت لديها خططاً من نوع آخر.. متعلّقة برغبتها فى أن تفرح بى..

- (ضحكة خافتة): وماذا عن الوالد..؟..

- كان يريد أن يؤسس لى شركة مقاولات كبرى، غير أنّى رفضت وأصررت على رغبتى فى البدء بمكتب ديكور أمارس فيه عملى كما أشاء.. - ووافق..؟..

- على كل ما طلبته منه.. بل وجلب لى بعض العملاء..

- جميل جداً..

- لا.. ليس كذلك..

- لماذا..؟..

- لأننى فى هذه الأيام.. بدأت أسمع الأئين..

الألم.. لم يكن هيئناً على الإطلاق.. الضوء الأبيض الباهر يخترق
حدقتي عيني.. يحرقهما.. أحاول إغماضهما بلا جدوى ..
الممر طويل.. طويل..

بقع الضوء في سقف الممر تتوالى أمام عيني.. لا أشعر بجسدي على
الإطلاق.. ممدد فوق طاولة.. طنين عجيب يملأ أذني.. برغم ذلك أميّز
أنفاس ذلك الذي يدفع الطاولة .. أسمعها عالية مدوية و كأنها صادرة
من هاى فاي باناسونيك أصلى.. همف .. همف...
خذوا هذا..

قالها الرجل الذى أطلّ علىّ في الزنزانة.. يأخذوننى إلى أين..؟.. وما الذى
سيفعلونه بى..؟.. وما سر هذا الشلل الذى سيطر على جسدى..؟.. أنا
خائف.. خائف جداً..
همف.. همف...

المزيد من الأضواء.. المزيد من الطنين.. المزيد من الألم..
لم يعد لدى سوى الأثنين..
الأثنين المحبوس في الصدر بلا أى قدرة على إطلاقه..

برنامج ترفيهي ضخم.. على غرار البرامج المماثلة في المحطات
التلفزيونية الأمريكية والأوروبية..
هناك العديد من المتسابقين قادمين من بلدان عربية مختلفة..
الكثير من المشجعين.. محطة تلفزيونية ناجحة.. مذيع ومذيعة فائقا
الشهرة.. إنتاج ضخم.. ستوديوهات عملاقة.. ديكورات فاخرة..
قالت لي مدام (أمل) وهى تقدم لي سيجارة:
- هل يضايقك أن نتحدث بصراحة..؟..
- (أتناول السيجارة): مطلقاً.. أشكرك..
أشعلت لها سيجارتها، فسحبت نفساً عميقاً نفتته دخاناً، وتراجعت في
مقعدها قائلة:

- لدىّ مهندس ديكور تعاملت معه في برامج عديدة سابقاً.. ويتوالى
الأعمال تولّد بيننا تفاهم وانسجام كبير في العمل.. الباشمهندس
(محمود مفيد).. هل تعرفه..؟..

هزرت رأسى نافياً وأنا أنفث دخان سيجارتي.. تابعت:
- الواقع أنني كنت أنوى تكليفه بتصميم وتنفيذ ديكورات هذا البرنامج
أيضاً.. قبل أن يبل غنى الدكتور (حافظ) أنك ستتولى هذه المهمة..

ونظرت إلى عيني مباشرة وهي تتابع:
- ميزة (مفيد) الكبرى بالنسبة لي أنه كان يحقق وفراً كبيراً في تكاليف
الديكور دون أي إخلال بجودتها سواء على مستوى التصميم أو التنفيذ..
هذه النقطة مهمة جداً بالنسبة لي كمنتجة منفذة للبرنامج.. ديكور
مبهر مع ضغط التكاليف إلى أقصى حد ممكن.. هل أنت معي..؟
- بالتأكيد..

- (تتهجد): أعلم أنها معادلة صعبة، ولكن لا غنى عنها.. وإلا فلن
أجد ما أدفع به رواتب الفريق الذي يعمل معي.. (تبتسم).. عموماً
ستجدني إلى جوارك دوماً إن شاء الله.. ستكون هناك العديد من جلسات
العمل.. وبإذن الله سنصل لنتيجة جيدة..
لم أكن أحب أن يتدخل أحد في عملي.. غير أن كلامها لم يكن يخلو
من منطق.. كما أن أسلوبها المهذب الدمث -برغم عمليته- لم يدع لي
مجالاً للرفض أو الاعتراض..

السيد (رأفت عابدين).. رجل الأعمال السكندري الشهير.. حوت
الميناء.. عضو الحزب القوي.. شريك أبي العزيز..
- لا تكن طفلاً يا (مودي).. عملية مثل هذه ستختصر لك الكثير
والكثير.. لقد رفضت أن أؤسس لك شركة مقاولات و فضّلت البدء
منفرداً في مجال الديكور بالرغم من أن مكاسبه أقل بكثير.. فدعني على
الأقل أضع قدمك على أول الطريق..
- ولكن..

- محطة (رأفت عابدين) تعد بالفعل لبرنامج ضخم.. وستستعين
بمهندس لعمل الديكورات.. فلن يحصل غيرك على هذه الفرصة..؟
أنت مهندس شاطر وحاصل على شهادة من أكبر الجامعات الأوروبية..
فأثبت نفسك.. وثق أن أحداً لن يجاملك إذا لم تكن على المستوى
المطلوب..

لم أفكر كثيراً.. الفرصة طيبة بالفعل، والحقيقة أنني كنت بحاجة إلى فرصة كهذه يا (د. حازم) لإقحام السوق.. ومن الحماسة أن أتركها تضيع مني لمجرد أن أبي هو من جلبها لي من شريكه.. وبالتأكيد سيدفع ثمنها شيئاً ما..
- (أتهند): ok dad..

رائحة عجيبة تملأ أنفي.. مألوفة إلى حدٍ ما.. غريب هذا.. الحوائط ذات لون داكن كئيب.. الأغرب أنها تتمايل وترتعث.. تنضغط بشدة في لحظة، ثم تعود لتنبعج بشدة في اللحظة التالية.. كأنها مصنوعة من الجيلي.. وجه أنثوي رائع الجمال ينظر إليّ من أعلى.. عينان زرقاويتان.. أنف دقيق.. فم مكتنز.. بشرة شاحبة قليلاً.. شعر أشقر ناعم.. عارية تماماً، أو هي تتدثر بثوب أبيض شفاف.. من تكون..؟!..
أحدق في العينين الجميلتين.. تمرّان على وجهي بسرعة دون توقف.. خاليتان من أي تعبير.. غريب أن تحمل عيون جميلة كهذه مثل هذا القدر من الجمود..
أرغب بشدة في أن أسألها عما حلّ بي، ولكنني لا أستطيع.. تختفي من أمامي.. تتحرّك هنا وهناك.. ألمح خصلات الشعر الأشقر تتطاير من خلفها.. ثم أسمع الصوت الرقيق لأوّل مرّة..

- الأرضيّة جاهزة يا باشمهندس.. تحب تستلم دلوقت..؟!..
تحرّكت معه على رمال شاطئ (بورتو مارينا) - حيث سيتم تصوير أحد حلقات البرنامج- نحو أرضيّة البيست دائريّة الشكل المصنوعة من ألواح البازيكه..
- تعبنا أوى ف الشغلانة دي يا بيه..

لم أرد عليه.. بالواقع كنت أعاني من مشكلة في التعامل مع أمثاله من الحرفيين سواء أكانوا نجّارين أو حدادين أو بنّائين أو.. أو..
حالة من البلادة وفقدان الثقة تابني عندما أقف أمام الحرفي لأشرف على عمله.. أسمعته يتكلّم كثيراً.. يحاول تزلفي والتقريب إليّ.. يثرثر عن أعماله السابقة واللاحقة.. عن الشخصيات العظيمة التي تعامل معها

وكم أثنت على براعته وأمانته لدرجة أنَّها صارت تستعين به في الكثير من الأعمال..

- (محمد باشا الدمنهوري).. بتاع المجلس.. عملنا له الفيلا بتاعته بنته كان متكيف منّا أوى.. المدام بتاعته بقى كان يحلا لها انها تيجى تفرّج عليّا وأنا باشتغل، وتقولى الله ينور يا اسطى (شلبى)..

أسمعه يتكلّم وأنا أكاد أنفجر غيظاً.. ما شأنى أنا بكل هذا الهراء...!!!
فالـ «تولع بجاز» أنت و(الدمنهوري) وحرمة وابنته والمجلس كله..
أتأمل الدائرة الخشبيّة الّتى لا يقل قطرها عن عشرين متراً.. أخطو عليها.. أنحنى لتأمل الوصلات.. يسير إلى جوارى وهو لا يكف عن الثرثرة ليصرف انتباهى عن أخطائه.. أخبره أنّ عدد من الألواح بحاجة إلى الخلع والاستبدال..

- ليه يا هندزة...؟.. ده شغل آخر حلاوة بالصلاة ع النبى..
أجيبه بأنّ نوعيّة هذه الألواح مخالفة للمواصفات الموجودة بالمقايسة..

- إزاي بقى يا بيه...؟.. دا خشب أرو زى الفل..
ألقي نظرة مترددة أخرى على الألواح ثم..
- الخشب أكاسيا..

- و(المرسى ابو العباس) ده خشب أرو أمريكانى درجة أولى.. يمكن بس حضرتك مش واخد بالك.. (ينحنى مشيراً إلى أحد الألواح).. بص اللون.. شوف التجزيعات..

وهنا تبدأ ثقتى في الاهتزاز.. أعلم جيّداً أنّه نصّاب.. وأنّ ما جلبه من الأخشاب المطلوبة نفذ، فقام باستكمال أعماله مستخدماً أخشاباً أخرى أقل جودة و-بالطبع- أقل ثمناً.. ولكننى لا أجد لدى القدرة على مقارعة حجه.. لربما كان ذلك ناتجاً عن ضعف خبرتى في التنفيذ العملى.. يشعر هو بذلك فيعتدل مختتماً بابتسامة ظافرة:

- آنى بقالى ف الكار ده ثلاثين سنة ولامؤاخدة يا هندزة.. ولا يمكن نغلط ف نوع الخشب أبداً..

ومع السخرية الّتى تفوح من كلامه.. أشعر بالدم يصعد إلى رأسى.. أرغب في أن أصرخ بوجهه بأنّه نصّاب وابن ستين كلب، غير أن شئ ما

يلجم لسانى فأكتفى بإعتراض خفيض الصوت لا يعبأ هو به..
هنا.. تظهر (أمل).. تخرج من الكارافان.. تخطو برشاقة برغم جسدها
الممتلئ قليلاً - كأجساد المصريات عموماً - على الرمال.. قميصها الواسع
الفضفاض يتطاير بفعل هواء البحر المنعش مع الطرحة التي تغطي
رأسها.. تتقدم متاً.. تحيى الرجل الذى يرد بحرارة:

- سلام ورحمة الله وبركاته.. حرماً يا مدام..

- جمعاً إن شاء الله.. أخبار الشغل إيه..؟..

- زى الفل بالصلاة ع النبي..

تلتفت إلى متسائلة فأندفع (و كأنما رد إلى وجودها ثقتي) وأشرح لها
المشكلة.. تنصت إلى بتركيز ثم تلتفت إلى الرجل:

- (بحزم): الخشب ده يتفك دلوقتي حالاً يا معلّم..

- ثلاثة بالله العظيم يا مدام الخشب أ..

- (مقاطعة بحزم أشد): من غير حلفان.. اللى يقوله الباشمهندس
يتنفذ بالحرف..

- طب أعمل إيه يا مدام الخشب اللى اشتريناه ماكفّاش.. وكان لازمان
نكّمّلوا الشغل.. وخشب الأكاسيا ده مية مية برضه.. وهو انا يعنى
هانجيب خشب أى كلام..؟..

- والخشب ماكفّاش ليه..؟..

- الكميّة جايّة ناقصة.. الغلط م المقايسة..

- المقايسة مضبوطة مافيهاش غلط.. إنت اللى عمالك بيستهلكوا
خشب كتير..

فتح فمه ليعترض، غير أنّها لم تمنحه الفرصة:

- مش عايزة كتر كلام يا معلّم.. هاتخلع الخشب ده واللا تخلع م
الشغلانة كلها..؟..

- نقول إيه بس يا ريّسة..؟.. آنى مانحبش نزعلك أبداً..

وخزة مؤلمة قليلاً في ذراعى.. أثن بصمت..

وجه ممتلئ أصلع ذو نظّارات.. يلقى نظرة ثابتة على وجهى.. يربت
على رأسى.. يقول بصوت عميق:

- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهى كل شيء..
أيدى قويّة تنزع عني ثيابي.. لحظات، رقدت بعدها على المنضدة
عارياً كما ولدتني أُمي..

رغم عمليّتها الزائدة -بل وخشونتها أحياناً- لم تكن مقتضبة أو ثقيلة
الظل.. على العكس تماماً.. كانت ظريفة حلوة المعشر.. تلقى النكات
هنا وهناك، وتسخر ممّن حولها.. كل ما في الأمر أنّها كانت تولى عملها
إهتماماً عظيماً.. تظل طيلة اليوم في موقع التصوير تتقافز كالبرغوث في
كل مكان.. تتابع مع المخرج كل صغيرة وكبيرة.. lab top الخاص بها
لا يفارقها.. مساعدتها يتبعها كظلّها.. يتلقى تعليماتها وينفذها بدقة..
سألته ذات مرّة ونحن جالسين على مقعدين قماشيين على الشاطئ
أثناء break :

- هل تحبين عملك إلى هذه الدرجة..؟
- (مندهشة): لماذا تسأل..؟
- هذا النشاط الجرم في العمل.. لا أعتقد أنّه ليس مدعوماً بعشق
العمل ذاته..
صمتت لحظة ثم إبتسمت مجيبة:
- بالفعل أحب عملي جداً.. ولكن الأمر لا يقتصر على هذه النقطة
فقط..

- (بفضول): ماذا أيضاً..؟
- مجال الميديا الذي أعمل فيه مجال ضخم إلى درجة لا تصوّرها..
أنت تتعامل مع كيانات ضخمة.. وتنافس كيانات هائلة.. والمنافسة
شرسة جداً.. ومالم تكن مسائراً للتطور الذي يزداد يوماً بعد يوم
فستخرج من المنافسة غير مأسوفاً عليك.. ومسيرة التطور تستلزم
العمل وبذل الجهد طيلة الوقت.. الخيار واضح محدد.. إمّا العمل
المستمر.. وإمّا الخروج من المعادلة..
ورشفت قليلاً من الكابتشينو من كوبٍ ورقي تحمله بين أصابعها،
وأردفت:

- النقطة الأخرى هي أنّنا نتعامل مع جمهور واسع عريض من

المحيط إلى الخليج.. واحترام عقلية هذا الجمهور والسعى لتقديم الأفضل له شرط أساسي للاحتفاظ به..

نظرت إليها بإعجاب بينما هي تتابع:

- النقطة الثالثة هي المسئولية أمام الله سبحانه وتعالى.. أمرنا الله أن إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه.. فلا أقل من أن نمثل لأمره..

لم تعجبني جملتها الأخيرة.. قلت معترضاً:

- لمّ تقحمين الدين في الأمر..؟ أفهم جيداً كلامك عن المنافسة المهنية واحترام عقلية المشاهد.. ولكن ما شأن الدين بالعمل..؟.. نظرت لي بدهشة قائلة:

- سؤال غريب.. العمل جزء لا يتجزأ من الدين.. والإلتزام بقواعد الدين هو أكبر ضابط لجودة العمل.. الإلتزام يجعلك تبذل أقصى جهد في عملك لا خوفاً من رئيسك (فتهمل عندما يغفل عنك) ولا رغبة في جمع المال (وهو ما قد يدفعك لتجاوز أخلاقيات العمل في غياب الوازع الديني).. بل مراقبة للذي لا يغفل ولا ينام.. وهذا بالطبع لا يتعارض مع المنافسة المهنية أو السعى لتحقيق أرباح.. وإنما يضع لهما من الضوابط ما يمنعهما من الجنوح بصاحب العمل أو المصلحة إلى وسائل غير مشروعة لتحقيقهما..

نظرت إليها بامتعاض ولم أزد.. الحق أن كلامها لم يكن يخلو من المنطق.. غير أنني لم أشأ أن أظهر ذلك..

إرتفع صوت أحد عمّال الجمالونات الحديدية يدعونا:

- إتفضلوا معانا.. إتفضل يا باشمهندس.. إتفضل يا مدام ..

نهضت واقفة، فرمقتها بنظرة متساءلة..

- يدعوننا لتناول طعام الغداء معهم..

- وهل ستقبلين الدعوة..؟..

قالت ببساطة:

- ولم لا ..؟.. لقد دعوني أمس، ولكنني كنت قد تناولت غدائي، فطلبت تأجيلها لليوم..

-

- ألن تأت..؟..

الواقع أنها كانت نموذج مختلف عن كل من عرفت من النساء من قبل.. في البدء شعرت بنفور من عمليّتها الزائدة ومن تمسكها ببعض المظاهر الدينية التي لا أستسيغها مثل الحجاب الذي يغطى رأسها طيلة الوقت، والعباءات الفضفاضة التي ترتديها دوماً.. غير أنني بتعاملى معها، وجدتها تعمل وتصرف بعقليّة غربيّة بحتة كالتي اعتدت عليها طوال فترة دراستى فى (أوروبا) مع لمسة تحفظ شرقيّة مميّزة بالإضافة إلى كم هائل من الحنان يختفى خلف أسلوبها العملى الصّرف..

حب..؟! لا أعتقد.. سمه ألفة.. سمه إعتياد.. فلتسمّه أى شئ.. المهم أننى وبعد أسابيع من العمل بصحبتها أصبحت أنزعج وأقلق عندما تغيب عن موقع التصوير لسبب أو لآخر.. عرفت منها أنّها خريجة كليّة آداب إعلام جامعة (الإسكندريّة).. تسكن مع أسرتهى فى (الإبراهيميّة).. فى حوالى الأربعين من عمرها (تكبرى بثمانية أعوام كاملة).. أرملة.. لا أطفال.. يوماً بعد يوم.. وجدتنى أقرب منها أكثر فأكثر..

الأذرع تحملنى عالياً.. تسير بى فى ممر مظلم.. الرعب ينهش أعماقى.. أود أن أصرخ:
- دعونى .. أنزلونى ..
باب من ضلقتين فى نهاية الممر.. ضوء أحمر مخيف يشع من الفتحة المحصورة بينه وبين الأرض.. على جانبي الممر.. أرى رؤوساً أميّزها بوضوح برغم الظلام..
أبى.. أمى.. أصدقائى.. (مايا).. (رأفت عابدين).. الدكتور (هشام مذكور).. الحاج (صالح عبد النعيم).. رئيس حى شرق يتسم قائلًا:
- وماذا عن التمويل يا باشمهندس..؟! ..
وجوه كثيرة أعرفها.. جميعهم يقفون مصطقيّن.. يطبقون بأصابعهم على أطباق وشوك وسكاكين.. يعقدون مناديل بيضاء حول أعناقهم..

يتسمون.. اللعب يسيل من بين أنيابهم الطويلة..
أنا الآن واقف -أوقفتني الأذرع- بمحاذاة الباب ذو الضلفتين.. الضوء
الأحمر المخيف مصحوباً بحرارة هائلة ينبعث من فرجة الضلفتين..
الوجه الأصلع الحليق يظهر مرّة أخرى في الكادر.. يلقي نظرة ثابتة
على وجهي.. يكرر بنفس الصوت العميق:
- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..
من أنت؟.. وماذا ستفعلون بي؟..
وفي اللحظة التالية إنفتحَت الضلفتان.. حرارة رهيبية هبّت من خلفهما
تلتفح وجهي.. أنين طويل من أعماق أعماقي.. أنا أحترق.. أحترق..
محاولة يائسة للابتعاد عن هذا الجحيم.. لا جدوى.. سمعت صوت
الرجل الأصلع من خلفي يقول:
- دقائق ويكون الشواء جاهز..
ثم شعرت بقدمه تركلني في منتصف ظهري لتدفعني بقوة لأطير عبر
الباب المفتوح وأهوى لأسفل..
تعلّقت عيناى بالنيران المستعرة بأسفل والتي تقترب بسرعة مذهلة..
و... مستحيل.. لا.. لا.....

-0-

عمّار

ساكنين علالي العتب، وناللي بانيها..
فارشين مفارش قصب، ناسج حواشيها..
قانيين سواقي دهب، وناللي ادور فيها..
يا رب ماهوش حسد..
لكن بعاتبكم..

بيرم التونسي

بروووووووووم

.....

.....

.....

.....

.....

.....

الغبّار يملأ أنفى وحلقى.. أسعل.. أسعل.. مذاق صدئ يملأ فمى..

.....

.....

.....

.....

سائل دافئ يغطى جبهتي و يسيل على وجهي..

.....

.....

.....

.....

وجه (نعمان) يطلّ علىّ من أعلى.. ينظر إلىّ بجزع حقيقى.. يحرك
فمه.. يتكلّم أو يصرخ .. لا أعرف.. لا أسمع حرفاً..

.....

.....

.....

.....

ذرّات من الغبار تتطاير أمام عينيّ.. تصبغ الرؤية بلون رمادى كئيب..

.....

.....

.....

.....

أحدهم يجرّنى على الأرض.. جمالونات السقف تتوالى أمام عينيّ..

.....

.....

.....

.....

.....

ذرّات الغبار تتزايد وتكاثف..

.....

.....

.....

.....

تظلم الدنيا تماماً..

.....

.....

.....

.....

الـ ٢١ يوم دول تصرفهم لنفسك يا (حسين) بيه .. احنا مصرّين المرة
دى اننا نأخذ كل حقوقنا ..

.....

.....

بطلّ خناق يا كلب منك له أحسن و رب العزة نقوملكو..

.....

.....

عايزين فلوس يا بويا..

.....

.....

سسللفف (رشفة شاي) .. آنى بنقول نستتو رد اللجنة النقابية .. همّا
وعدونا انهم يردوا علينا بعد إسبوعين .. والإسبوعين هايخلصوا بعد ٣
تّيام ..

.....

.....

أيووه .. انت لحتت تنام يا راجل ..؟..

.....

.....

الدكتور كشف عليه و لقى عنده نزلة معويّة ... قاللى ان الميّة اللي
بنشرها وسخة ... قلت له ما هنا طول عمرنا بنشربوها و عايشين زى
الفل ..

جبتى فلوس الدوا منين ..؟..

.....

.....

ماخليتولناش طريق تانى يا باشمهندس ..

.....

.....

كريسييك ...

مين...؟..

.....

.....

بروووووووووم

.....

.....

عينان ضيقتان تنظران لى من خلف منظار زجاجى صغير.. أسمع الصوت وكأنّه قادم من بئر عميق..

- أسطى (عمّار).. إنت سامعنى..؟.. لو سامعنى حرّك عينيك..

ألم رهيب بجميع أنحاء جسدى.. أرغب فى أن أرد.. أشتكى.. أصرخ.. لا أستطيع..

قبل أن أهوى فى تلك البئر السحيقة أسمع من يقول:

- صدمة عصبية.. محتاج وقت..

- طب وجرح دراعه..؟..

- جسمه قوى.. هايستحمل..

نعم.. كنت قويّاً.. لم أكن ضخماً.. ولكننى كنت - كما يقولون-

عصب..

فى الأرض الخالية الواقعة خلف مخازن شركة الورق بالقرب من ترعة (المحمودية).. الوقت عصراً، والشمس ساخنة تضرب الرؤوس.. مباراة الكرة الشراب حامية حقاً.. لقد استحقت بالفعل التزويغة التى قمت بها من الورشة التى أعمل فيها.. سيضربنى الأسطى (طه) علقه ساخنة عندما أعود متأخراً ساعتين من مشوار شراء السبرتو الذى أرسلنيه لشراءه.. ولكنّى لا أهتم.. علقه تفوت ولا حد يموت..

(عاشور) ضخم الجثة شرس الطباع.. لاعبو الفرق المنافسة يهابونه.. عندما يلتقط الكرة بين قدميه وينطلق بها كالقطار نحو المرمى.. كان الجميع يفسحون له الطريق..

هبطت إلى الملعب حافي القدمين.. إتفقت مع باقي اللعبيّة على أن أتولّى أنا أمر (عاشور).. و بالفعل.. كلّما كنت أراه قادماً بالكرة مثيراً عاصفة من التراب من حوله، كنت أندفع نحوه وأمد قدمي بخفّة لألتقط الكرة من بين قدميه، وأركلها إلى زملائي عند خط الـ ٨ .. ينظر لي بغلّ حقيقي، ويصق على الأرض الترابيّة.. أسخر منه.. يندفع نحوى مكوراً قبضته.. نلتحم .. نسقط أرضاً.. تتمرّغ وسط التراب.. لكمته تمرّق شقّي.. روستي تفجر الدم من حاجبه.. أذرع كثيرة تفرّق بيننا.. في النهاية.. نجلس على شاطئ ترعة (المحموديّة) نرمق المراكب السابحة في ضوء الغروب.. نشعل السجائر.. نتصافى بين سحب الدخان.. لم نفرق من يومها..

كريبيبييك ...

- ميين ..؟..

.....

.....

- حاسس يايه..؟..

- دراعى يا داكطور.. نار قايدة..

- معلش يا اسطى (عمار).. ده لأن تأثير البنج ينسحب من الدم..

نظرت إليه بوهن، فتابع وهو يخفض عينيه لأسفل:

- الشظية مزّقت ذراعك وسببت الغرغرينة.. للأسف ماكانش قدامنا

غير البتر..

تعلّقت بذراعى قائلة:

- إنت جاييني هنا نعملو إيه..؟..

- نفّسحوكى يا بت..

- هئ هئ.. ف محطة الرمل يا راجل..؟.. حد ياخذ مراته يفسحها ف

محطة الرمل فـ شهر عسلها..؟..

- أمّال عايزانى نفّسحوكى فين يا روح ستّك..؟.. العجمى واللا الساحل

الشمالي..؟..

- أبووه يا (عمّار).. وهما النسوان اللّى بيروحوا هناك أحسن متى فـ
إيه يعنى..؟..

- يا بت دانتي ضفرك برقبتهم كلّهم.. بس الحتت دى مش للّى زيّنا..
لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها.. احنا يادوب آخرنا نروحو عمود السوارى..
محطة الرمل.. أبوقير.. نضربو بنطة ع الكورنيش ساعة المغرّية..
ندخلو السيماء.. إلّا بالحق يا بت.. عمركيش دخلتي السيماء..؟..
- لا والنبي ياخويا..

- أخوى!!.. ماشى.. الصبر حلو.. أنى النهارده هاندخلوكى السيماء..
الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها نرجعو بحرى نتعشّو سمك
وجمبرى عند (الراوى)..
- (بفرحة): ربنا ما يحرمنى منك يا خويا..
- بلاش اخويا دى..!!..

ونستنى ل بكره ليه يا ريّس..؟.. نتوكل على الله ونفرّحهم دلوقت.. دى
حالتهم ما يعلم بيها الا ربنا..

الطريق وعر.. وعر..
العربة ترتج بعنف.. النافذة الصغيرة الوحيدة فى الصندوق الخلفى
للسيّارة شبه مسدودة بسلك البقلاوة.. الجو خانق تماماً.. جرح ذراعى
المبتور يؤلمنى جداً..

تساءل (عاشور) بصوت حاول أن يعلو به على صوت محرك السيارة:

- حد سامع صوت الموج ياخواناً..؟..

عددنا لا يقل عن الخمسين رجل.. الأجساد متهاكة بفعل الإرهاق
والاستجواب فى المباحث.. أسابيع طويلة قضيتها فى المستشفى وقضاها
الرفاق فى غرف وأقبية الأقسام ومباحث أمن الدولة لنجتمع فى النهاية
فى الصندوق الخلفى الضيق لتلك السيّارة الّتى تكاد تتفكك من فرط
وعورة الطريق..

أجاب أحدهم:

- آنى مش سامع حاجة ... شكلنا كده باعدنا عن المالح ..
أنظر إلى وجوه رفاقي المتنفخة المتورّمة.. الدماء متجلّطة على الكثير
منها.. الأعين مزرقة محاطة بالكدمات.. الأسنان مكسورة والأنوف
مجدوعة.. من الواضح أنها كانت ساعات رهيبة..
قطرات العرق تسيل على جسدى.. تلهب جرح ذراعى.. ألم لا
يوصف.. أتهد فى صبر.. متى ينتهى كل هذا يا ربى..؟..
المزيد من الرجرجة.. أنأت مختلفة تخرج من أفواه وصدور الرفاق..
(فرحات) الجالس بجوارى يتحسس إبهامه الأيمن المكسور.. يتمتم:
- مابعدناش كتير ع البحر.. آنى لسه شامر ريحة اليهود..
لم يعلّق أحد لأن أحدا لم يسمع أصلا.. ساد الصمت لفترة قبل أن
أتساءل أنا بصوت مبوح:
- معقول يا اخواننا هانفضل زى الفراخ كده مش عارفين رايحين فين
ولا هايعملوا فينا إيه..؟..
قال أحدهم:
- يا خبر النهاردة بفلوس..
التفت آخر -(طحلاوى)- إلى الرئيس (حمدى) صارخاً بغتة:
- إنت السبب ف اللى احنا فيه ده.. لو ماكناش مشينا وراك كان زمانا
قاعدين وسط عيالنا..
رفع الرئيس (حمدى) رأسه ونظر إليه بمرارة دون أن يرد.. ولاحظت أنّ
بياض شعر رأسه قد اختلط بدماء حمراء متجلّطة من أثر الإستجواب..
- قصّر يا (طحلاوى)..
كذا قال (عاشور) بحزم، ولكنّ (طحلاوى) واصل وكأّنه لم يسمع:
- أيوووه.. محاكم عسكريّة..؟.. ليّه..؟.. إحنا كُنا عملنا إيه..؟..
نروحو السجن وتتحرب بيوتنا ليه..؟.. لا سرقنا ولا بعنا مخدرات وطول
عمرنا ماشيين جمب الحيط.. لا قلنا كفاية ولا الإسلام هو الحل..
إحنا بس قولنا عايزين شقانا وقوت عيالنا.. يقوموا يودونا المحاكم
العسكريّة..؟.. ويرموننا ف السجن..؟.. أحبييه..
لطمه (عاشور) على وجهه صائحا:
- ما قلت لك قصّر يا بن الموكنسة..

هوت اللطمة على وجه (طحلاوي) فارتعش جانب فمه وهو ينظر لـ
(عاشور) ولنا، قبل أن ينفجر باكياً ومولولاً:
- آنى ماليش دعوة.. رجعونى لعيالى.. مش عايز حاجة بس ارجع
لعيالى.. يا عياالى..

.....

.....

.....

تمر الدقائق والساعات.. لم نعد نحسب الزمن.. لربما كُنا هنا منذ
ساعات أو أيام أو أسابيع.. حقاً لم أعد أدري..
الإرتجاج.. الإرهاق.. ألم ذراعى.. الحر.. رائحة العرق.. وجوه الرفاق
المشوّهة.. صوت المحرك المزعج الرتيب..

.....

.....

.....

.....

لم ندر أين ولا متى خفت إرتجاجات السيّارة قبل أن تتوقف تماماً..

عندما دخلت عالم النساء لأول مرّة كنت فى سن الثالثة عشر..
كانت مومس من (بحرى) إلتقطها (نعمان) -وكان يكبرنى بأربعة أعوام-
وساومها على قضاء ليلتها معنا.. نقلت بصرها إلينا -أنا و(عاشور)-
وقد وقفنا قرب ناصية الشارع وتساءلت متشككة:

- إنتو كام واحد..؟..

أجابها (نعمان) بغلظة:

- إنتى شايفانا دسطة يعنى..؟.. ما قلنا لك آنى واصحابى الجوز اللى
واقفين هناك دول..

- عندكو المكنة..؟..

- (بسرعة): الورشة اللى بنشتغلو فيها.. قافلة لغاية بكرة الصبح.. واحنا
مش هانسهر وكتير عشان عندنا شغل م النجمة..
فردت كفّها المفتوح قائلة:

- إيدني الفلوس الأول..

- يا بت متسرّبعة على إيه هي الدنيا طارت..؟.

لازلت حتى الآن أذكر تلك اللحظات البعيدة وأنا اضاجعها على أرضية الورشة التي تفوح منها رائحة الشحم والزيت.. ضوء المصباح الخافت.. الحر الخانق داخل الورشة.. كانت المرة الأولى وكنت غريباً بلا خبرة.. تصبب العرق أنهاراً على جسدي وأنا اقبلها بنهم، وسرعان ما نهضت من فوقها وقد أفرغت شهوتي في ثوانٍ معدودة.. هرولت مغادراً الورشة والدموع في عيني، بينما ضحكاتها الساخرة الماجنة تجلجل من خلفي.. سمعت (نعمان) الذي كان ينتظر خارجاً مع (عاشور) يتجرعان الطافية -

- وقد قضا وطرهما من قبلي- يهتف بي:

- رايح فين يالااا..؟.

ركضت حتى تقطعت أنفاسي.. إرتميت أسفل شجرة الجَميز على شاطئ ترعة (المحمودية) وفي الدقائق التالية رحت أبكي بحرارة بينما جسدي يرتعد، وقد ملأني شعورٌ عارم بالذنب.. لا بد أن أكثر من ساعتين مرّاً عليّ وأنا أجلس وحيداً على الشاطئ يغمرنى ضوء القمر، قبل أن أسمع أصوات مكبر الصوت قادم من مسجد القريب إستعداداً لصلاة الفجر.. خلعت ثيابي وألقيت بنفسي في مياه التربة لأغتسل من النجاسة، وقد عزمت على التوبة إلى الله.. رحت أضرب الماء بذراعي.. أضرب.. لم تكن المرة الأخيرة على أي حال..

واقفين صفوفاً في فناء المعتقل..

الشمس في منتصف السماء تماماً.. الرمال التي نقف عليها ملتهبّة حقّاً.. يا الله.. لكم يمضي الوقت ببطء.. - أنا اللوا (محمود اليسري).. قائد المعتقل..

علقة ساخنة تلقيناها منذ قليل بمجرد نزولنا من سيّارة نقل المساجين.. عشرات من الجنود الأشداء انقضّوا علينا من كل اتجاه وراحوا يضربونا بعصي من الصلب.. تعالت الصرخات والتوسّلات.. فيما بعد ذكرني

هذا بفيلم رأيته لـ (أحمد زكي)..

- ثلاثين سنة خدمة في المعتقلات..

تمرّغت على الرمال الساخنة.. ضربة عنيفة هوت على كتفى الأيسر..
حذاء عسكري ثقيل غاص بين ضلوعي.. صرخت في ألم.. رأيت الجندي
يرفع عصاه ليضربني بها.. لوّحت بما تبقى من ذراعى المبتور صارخاً
بتوسّل:

- أبوس إيدك..

- أى كلبة منك هاتخالف النظام..

تردد لحظة.. خفض العصا.. ثم حزم أمره.. ركلني في جنبي الأيمن،
ثم انصرف ليهوى بعصاه على جسدٍ آخر..
صراخ.. دماء.. أجساد مهشّمة.. ملابس ممزقة..
في النهاية أوقفونا صفوفاً.. نكاد نسقط من فرط الإرهاق والألم..
الدماء تسيل من مواضع مختلفة من جسدي..
- هاتدفن مطرح ماهي واقفة..

حوافر الحصان تغوص برشاقة في الرمال الساخنة وقد تضاعف ثقله
بتأثير وزن راكبه..

- الرملة هنا بلغت جثث نسوان كثير زيكو عملوا فيها رجّالة..
بذلة عسكريّة أنيقة.. قبّعة رسميّة تحمي رأسه من الشمس..
منظار شمسي داكن يغطّي عينيه.. جسد ممشوق منتصب على ظهر
الحصان.. يدني الميكروفون الصغير من فمه.. و بصوتٍ عميق:
- إنتوا هنا يا ولاد ال (....) مالكوش ديّة..

(عادل المهدي) اتّصل بيّا من عشر دقائق.. وقاللي ان الادارة مستعدة
تصرف جميع مستحقّات العمّال.. وبكره ان شاء الله هاتيجي لجنة
ومعاهها تعهد موثق من الادارة بدفع الحوافز والأرباح..

ما الذي حدث بالضبط...؟..

الإضراب كان يسير بشكل جيّد جداً.. وقفنا جميعاً وقفة رجل واحد
أمام ضغوط الإدارة.. تحمّلنا الفقر الشديد مع امتناع الإدارة عن صرف

رواتبنا.. تركنا بيوتنا وأقمنا في المصنع.. نَظَّمنا أنفسنا وحرصنا على الحفاظ على سلامة الأجهزة والماكينات حتى لا ندع فرصة للإدارة لتفسد الإضراب.. وبالفعل إقتربنا من النصر.. فما الذي حدث؟..

بروووووووووو.....

شخصٌ ما..
شخصٌ ما ثبت عبوة ناسفة في جدار الغلاية الرئيسية بقاعة الماكينات..
شخصٌ ما خان زملائه ورفاق عمره وسمح لقوات الأمن باعتقالنا بتهمة ارتكاب العنف وإتلاف الممتلكات..
شخصٌ ما سمعته يتحرّك في ظلام قاعة الماكينات..
شخصٌ ما تسبب في بتر ذراعي حتى المرفق..
شخصٌ ما.. ولكن من هو؟..
صارحت الرئيس (حمدي) ذات ليلة في ظلام العنبر الذي يجمعنا بالسؤال الذي يشغلني، فأجاب على الفور:
- دى مش عايزة سؤال..
دق قلبي بقوة مع كلماته:
- (نعمان) طبعاً.. محدش غيره..

وجه (نعمان) يطلّ على من أعلى.. ينظر إلى جزع حقيقى.. يحرك فمه.. يتكلّم أو يصرخ.. لا أعرف.. لا أسمع حرفاً..

حقاً.. أين إختفى (نعمان)؟.. ولماذا لم أراه منذ لحظة انفجار العبوة الناسفة في المصنع؟.. ومتى كانت آخر مرّة رآه الرفاق؟.. وأين؟..
قال الرئيس (حمدي) وهو يتحسس جرح رأسه:
- محدش شافه من يوم ما اتقبض علينا.. زى ما يكون فص ملح وداب..

فی حین اُجابنی (عاشور):

و اَغمض (طحلاوی) عینیہ محاولاً التذکر:

و قال (فرحات) بحزن:

- كيف تعرف أنك عشت هذه الأحداث مسيقاً؟..

- ال (ماذا) ..؟..

- نعم.. ما أن أستلقي في فراشي وأستغرق في النوم حتى أجد غفوتي

وعالمى كله يتلاشيان من حولى.. كما يحدث فى السينيما.. فى لحظةٍ واحدة أجد نفسى أسير فى أحياء (الأنفوشى) و(كرموز).. روائح العطن والزفارة تملأ أنفى.. أتلقت حولى فأرى البيوت العشوائية القديمة المتهاكة.. الوجوه الشاحبة المصفرة.. أجد نفسى جالساً على أريكة متهاكة فى صالة منزل ضيق كالقبر.. أحياناً فى الفراش أضاجع امرأة بدينة أوقن من داخلى أنها زوجتى (محفوظة).. أداعب طفلين شقيين كالشياطين أعرف جيداً أنهما ولدى.. أحياناً أخرى أرى نفسى عاكفاً على ماكينة خراطة فى مصنع أمارس عملاً أفاجأ بنفسى أجيده بكفاءة عالية..

-

- (يتنهد): عشرات الوجوه والأماكن أراها وأتعامل معها وكأننى أعرفها طيلة عمري، برغم أنى متأكد من أننى لم أرها من قبل.. لحظات من الصمت ثم:

- هل تتعاط زرزرز ... ددزرز... درات أو عقاير الهلوسة..؟..

- فعلت وتوقفت عن ذلك منذ سنوات طويلة كما سبق وأخبرتكم..

- هل سبق وعانيت من الوسواس والضلالات..؟..

- لا.. لا..

- ما الذى جعلك تفكر فى تناسخ الأرواح..؟.. لماذا لا تكون أحلامك مجرد أحلام عادية..؟..

- ليست كذلك.. صدقنى..

- ولماذا اصدقك..؟..

- (يتنهد مرة أخرى): لأنها ليست أحلاماً بالفعل.. ولأننى.. (صمت)..

- لأنك ماذا يا باشمهندس..؟..

- لأننى ذهبت بالفعل إلى المكان الذى أرانيه أعيش فيه فى أحلامى..

وهناك تأكدت أنها ليست مجرد أحلام..

obeikandi.com

الجزء الثانى

البحث

obeikandi.com

لم أرد دكتور (حازم) أن أحضر جلساتك مع (أحمد) منذ البداية حتى يتحدث معك على سجيته بالرغم من أنني اقترحت عليه منه أن يلجأ إليك.. بالطبع أعرف حضرتك من قبل.. إبتنتك (آية) كانت إحدى طالباتي عندما تم انتدابي لمدة عام للتدريس في (باراديس كولدج).. كنت آنذاك معيدة بكلية الآداب قسم الإعلام بجامعة (الإسكندرية) قبل إقالتي.. ماذا..؟.. أى سؤال بالطبع.. تفضل.. لماذا أقلت..؟.. بعض الخلافات مع مجلس الكلية بخصوص مشروعات الطلاب.. مشروعات أشرفت عليها تم رفضها وأخرى تم حذف بعضها، والسبب هو مخالفتها لسياسة الجامعة.. وعندما اعترضت، أبلغني أحد أساتذتي أن الأمن هو الذى رفض وحذف، وأن مجلس الكلية لا يملك مناقشته، وحذرنى من أنى تحت المراقبة.. بعد أيام صدر قرار بفصلى فصلاً نهائياً.. هه.. لا داعى للأسف يا دكتور.. أنا سعيدة جداً فى عملى الحالى كمنتجة منفذة فى محطة (asc).. بالطبع صرت أتجنب البرامج ذات الطبيعة السياسية بعد الدرس الذى تلقيته فى الجامعة، وتوافق هذا مع الاتجاه العام فى محطة (asc).. ما عيب البرامج الترفيهية..؟.. قبول واسع لدى شرائح عديدة من الجمهور.. شهرة لا بأس بها.. دخل مناسب.. المهم هو الحفاظ على مستوى معين من الإحترام لا أتنازل عنه بأية صورة..

يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن الموضوع.. آسفة لثرتنى..

سمعت عن الباشمهندس (أحمد خشبة) للمرة الأولى عندما استدعانى الدكتور (حافظ تمام) نائب رئيس مجلس إدارة المحطة، وأخبرنى أن السيد (أفت عابدين) مالك المحطة ورئيس مجلس إدارتها يبلغنى بأن مهندساً من طرفه سيتولى تصميم ديكورات البرنامج الجديد -الذى أتولى أنا تنفيذ إنتاجه- والإشراف على تنفيذها.. صراحةً كان الأمر غريباً ومستغرباً بالنسبة لى.. القواعد المتعارف عليها فى عملنا تجعلنى أختار الفريق الذى يعمل معى دون تدخل من أحد مادمت قد توليت

مقاولة تنفيذ إنتاج البرنامج.. صارحت الدكتور (حافظ) بهذا، وأخبرته بأننى ليس لدى إستعداد لتحمل خسائر ماديّة بسبب ما قد ينجم عن اختلافات في وجهات النظر قد تحدث بينى وبين المهندس الجديد، فطمأننى بأنّه مهندس متميّز تلقى تعليمه في الخارج..
- ولكن يا دكتور (حافظ).. العلوم النظرية شئ، والتنفيذ العملى شئ آخر..

- (مبتسماً): أعلم ذلك بالطبع.. و(أفت) بك يعلمه أيضاً.. غير أن أمر هذا الشاب يهّمه جداً.. ولم يجد أحداً سواك ليستأمنه عليه في العمل.. هو يثق كثيراً بك، وبقدرتك على التعامل معه بمرونة، ويتعهد بتحمل أية خسائر قد يتسبب فيها..
وهكذا أسقط في يدي، وقبلت العمل معه على مضض مجاملةً لمالك المحطة على طريقة تقديم السبت لتلقى الأحد..
كان نطباعى عنه عندما التقيته للمرّة الأولى على شاطئ (بورتو مارينا) - موقع تصوير أولى الحلقات- لا بأس به.. شاب عادى جداً، لا يميّزه إلا نحافته الواضحة.. ملامح دقيقة.. سكسوكة خفيفة تحيط بفمه.. وعندما ابتسم، بدا واضحاً أن جزءاً من إحدى سنتيه الأماميتين قد تهشم..

برغم نحوله وشحوب وجهه والهالات السوداء المحيطة بعينيّه -دليل الإفراط في السهر- إلا أنّه كان جم النشاط.. جلس معنا -مخرج البرنامج وأنا- واستمع إلى فكرة البرنامج وسيناريو الحلقة الأولى، والمطالب الخاصة المطلوب توفرها في الديكور وغيرها من النقاط الهامة، ثم قام بعمل معاينة لموقع التصوير، ووعد بإنجاز التصميم خلال أيام.. كنت صريحة معه منذ البداية.. أخبرته أننى كنت أتعامل مع مهندس آخر أرّتاح له في العمل، وأنّه مفروض علىّ من طرف مالك المحطة، وطلبت منه أن يتعاون معى كي لا ينهار العمل، فأبدى موافقته وتحمّسه، وكان ذلك هو أوّل هدف يحرزّه في مرمى..
أمّا الهدف الثانى، فكان عندما عاد في الموعد المحدد بالضبط حاملاً lab top الخاص به، وأخبرنى أنّ التصميمات جاهزة..

- (ضحكاً): ما موضوع الأهداف هذه..؟ هل تحبين كرة القدم إلى هذه الدرجة..؟..

- أحبها بجنون.. أنا أهلاوية متعصبة.. وأكم من مباريات حية تابعتها في الإستاد مباشرة مع زوجي وطفلي.. بالمناسبة : حضرتك أهلاوى أم..؟..
- (مقاطعاً بسرعة): أعوذ بالله.. أهلاوى طبعاً..

(ضحك) ثم...

- كم عمر طفلك الآن..؟..

لحظة من الصمت ثم..

- (بهدهوء): كان في السادسة من عمره عندما توفاه الله..

القصة المعتادة .. ذبول و إصفرار .. إسهال مستمر .. قئ لا ينقطع ..
أهرع بالطفل مع (مجدى) - زوجى - إلى المستشفى.. طبيب الطوارئ
الشاب يفحص الطفل ..

- الحالة واضحة : تلبك معوى ناتج عن تناول أغذية ملوثة..

- (بهلع) : و الحل يا دكتور ..؟..

- (يخط التذكرة الطبية) : لابد من حقنه بهذه الأدوية على الفور ..

البحث عن صيدلية في شوارع (زهراء مدينة نصر) الخالية - كئياً
آنذاك نقيم في (القاهرة) حيث مقر عمل زوجى- قرب الفجر (فصيدلية
المستشفى مغلقة) .. الوقت يجرى بسرعة .. نعثر على واحدة في (الحى
العاشرى) .. نحقن (ميدو) - الطفل - بالأدوية و ننتظر ...

لا جدوى .. الحالة تسوء أكثر و أكثر ..

نهرع إلى المستشفى مرة أخرى.. عند الظاهر يمرّ رئيس القسم.. يقرأ
البطاقة العلاجية.. يفحص الطفل.. يقطب حاجبيه.. يتساءل بغضب:
- هذه حالة جفاف واضحة لأى أعمى .. من الأحمق الذى شخصها
على أنها تلبك..؟..

تجيب الممرضة وهى ترتجف:

- الدكتور (فادى جبر)..

يصمت لوهلة.. يضم شفثيه بقوة.. الغضب يتقافز من عينيه.. فيما
بعد عرفت أن الدكتور (فادى جبر) هو ابن شقيق عميد كلية الطب..

يهتف بالمرضة بأن تتحرك بسرعة لتجلب له أدوية جديدة ..
الحركة تتزايد و تتسارع حول فراش طفلى .. الكثير من التوتر
والصراخ .. الوقت يمر .. الحالة تزداد سوءاً .. و...

- آسف جداً .. البقاء لله ..
- ميرسى .. ولكن لم تعتذر ..؟
- على تذكيرى لك بالموضوع ..
- لا داعى للإعتذار .. فذكرهما لا تبارح مخيلتى أبداً ..
- ذكرهما ..؟ من تقصدين بالضبط ..؟
- أقصد طفلى وزوجى بالطبع ..

لم يتحمل (مجدى) الصدمة طويلاً ..
بدا متماسكاً بشكل غريب أمام الناس والمعزين فى أيام العزاء الأولى ،
بينما كنت أنا فى حالة إنهيار تام وبكاء مستمر .. وعندما يجن الليل ،
وينصرف آخر المعزين .. كنت أجده يذلف إلى غرفة الراحل ويغلق الباب
على نفسه .. كنت أدخل الغرفة وراءه فأجده جالساً يحدق بشرود فى
اللاشئ .. ساعات الليل تتوالى وهو لا يغير رقدته ، إلى أن يغلبه النعاس
فينام حيث هو ..

ولت أيام العزاء على هذا النحو .. وظل هو بعدها على نفس
الحال .. يقضى وقته فى غرفة الصغير الراحل .. لا يستجيب لى ولا
لأصدقائه أو أفراد أسرته .. أصابنى الرعب .. طلبت من زملائه وأصدقائه
الحضور ومحاولة إخراجه من هذه الحالة التى أصابته ، ولكنه امتنع
عن مقابلة أى منهم .. توقف عن الذهاب إلى عمله (وكان يعمل مديراً
لتحرير واحدة من الصحف ذائعة الصيت) .. أصبح يتناول أقل القليل
من الطعام .. ثم قضى نحبه فى هدوء بعد أقل من شهرين من وفاة
طفلنا ..

فى تلك الليلة كنت قد إنصرفت مبكراً عائداً إلى (الإسكندرية) لأطمئن
على والدتى بعد أن عرفت من صوتها المختنق (عندما هاتفتها) أنها

بدأت تصاب بنزلة برد.. ربّبت كل التفاصيل مع المخرج و(ميخائيل) - مساعدي الشاب- وتأكدت من أن كل شيء على مايرام.. بحثت عن الباشمهندس (أحمد) لأبلغه بانصرافي فلم أجده.. طلبت من (ميخائيل) أن يفعل، ثم استقلت سيارتي وتوكلت على الله..

- (صوت أجش مألوف): إتفضلى يا داكثورة..

لسبب ما لا أعرفه يصّر عم (حبشى) العجوز الطيّب صاحب كشك السجائر و الخردوات عند ناصية شارعنا على مناداتى بـ «الداكتورة».. ويصّر أيضاً على دعوتى يومياً عند ذهابى لعملى صباحاً وعند عودتى منه فى المساء كـ «أتفضل».. ألبى دعوته وأشتري منه علبة (مارلبورو) وباكو كلوريتس وأتجاذب معه أطراف الحوار لدقيقة، يخبرنى خلالها دوماً أنّ..

- ربنا وحده اللى يعلم معرّتك ف قلبى يا داكثورة.. زى (لبنى) بنتى بالظبط والله.. أصلك بنت حلال مصفى ويتفكرينى بالمرحوم أبوكى.. ما هو كان حبيبي زى ما انتى عارفة..

- ربنا يديم المعروف ويخليك لينا يا عم (حبشى)..

- وازى صحة الست الحاجة..؟..

- بخير الحمد لله..

حوار يتكرر مرتين يومياً، أصبح جزءاً من روتينى اليومى، أفقده كثيراً عندما يغيب عم (حبشى) لأى سبب..

فى منزل أسرتى وجدت أُمى بحالة لا بأس بها رغم بؤادر الأنفلونزا الواضحة عليها المتمثلة فى إحمرار أنفها و عينيها و غزارة سعالها.. أعدت لها (إيمان) إبنة شقيقى مَحج كبير من النعناع الساخن، ثم نهضت بنشاط لتعد لى واحداً بمجرّد وصولى.. تناولته منها شاكرة.. كنت أرغب فى قضاء سهرتى فى القراءة.. وقبل ذلك أردت الانتهاء من بعض الأعمال.. بحثت عن اللاب توب الخاص بى فلم أجده.. هبطت إلى الشارع حيث موضع سيارتى لأبحث عنه .. غير موجود.. إلتابنى حنق شديد عندما فكّرت أننى نسيته مع تعجلى فى موقع التصوير.. حاولت الإتصال بـ (ميخائيل) على هاتفه المحمول ليمرره علىّ أثناء عودته.. لا جدوى.. لابد أنّها مشاكل الشبكة المعتادة..

إلتقطت نفساً عميقاً لأبتلع إنفعالي.. فكرت للحظات.. نظرت إلى عقارب ساعتى.. الثامنة مساءً.. يمكننى الذهاب والعودة فى ساعتين.. أبلغت والدتى أننى ذاهبة ولن أتاخر.. عندما وصلت إلى موقع التصوير كان الظلام قد حلّ بالمكان كلّهُ.. الجميع انصرفوا ماعدا رجلى الأمن.. حيثهما.. - سلام ورحمة الله.. خير إن شاء الله يا مدام.. نسيقتى حاجة واللا إيه..؟..

- أبوه يا (قطب).. نسييت بس اللاب توب بتاعى ف الكارافان.. - تحبى أروح أجيبهولك..؟.. - كتر خيرك.. خليك انت أنا هاروح أجيبه.. غادرت السيّارة ومشيت نحو الكارافان.. ألقيت نظرة على عقارب ساعة يدى الفسفوريّة.. التاسعة مساءً.. لا بأس.. ساعة أخرى وأكون فى المنزل إن شاء الله..

كان الكارافان مظلماً من الداخل.. ضغطت زر الإنارة.. جلست إلى مكتبى.. ضغطت أحد الأزرار ليختفى الـ screen saver.. أغلقت الجهاز ووضعتة فى حقيبته، واستدردت لأنصرف عندما سمعت الأئين.. أجفلت والتفتّ بحركة حادة.. نظرت إلى الفراش الصغير الموضوع فى نهاية الكارافان.. إلى الجسد الممدد عليه.. تملّكنى الرعب وأنا أتساءل عمّن يكون.. كدت أهرع لأنادى رجلى الأمن من الخارج لولا أننى تعرّفت صاحب الجسد النائم..

كان الباشمهندس (أحمد) غارقاً فى نومٍ عميق.. إقتربت منه.. غريب هذا.. قطرات العرق تملأ جبهته.. صدره يعلو ويهبط باستمرار.. ملامحه تنقلّص وكرتا عينيه تتحرّكان يمنة ويسرة من خلف جفنيه المطبقين.. وثمة أنين خافت يخرج من بين أسنانه وكأنّه يعانى آلاماً مبرحة.. لايد أنّه يحلم بكابوس.. ولاحظت للمرّة الأولى ذلك الوشم الذى يمثل ثعبانين يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل، والمطبوع على ذراعه قرب المرفق..

مددت يدي.. هزّزته برفق.. - (أحمد)..

لم يستجب.. هزرته بقوة أكبر، وناديته بصوت أعلى..
المزيد من التقلص.. المزيد من الأثني.. و..
وبغثة فبح عينيهِ، وشعرت بأصابعه تلتف حول ساعدي بقوة أمتني..
الأثني الخافت تحوّل إلى صرخة مدويّة جمدت الدماء في عروقي..
أجفّلت مرة أخرى.. صرخت وأنا أجذب ذراعي بعنف.. أفلتني.. نظر
مباشرة إلى عيني.. يا الله.. لا أعتقد أنني سأنسى مشهد عينيهِ طيلة عمري
وقد إمتلأنا بهذا القدر من الرعب.. إرتعش جانب فمه.. دارت عيناه في
المكان وكأنّما يتأكّد من أنّه استيقظ.. ثم انفجر في بكاء حار..
في اللحظة التالية.. إفتح باب الكارافان بعنف - وكان موارباً - واندفع
عبره رجلا الأمن..
- فيه إيه يا مدام..؟

- نامت..؟.. هل أعددت لها الشورية..؟.. جميل.. ربنا يخليكي يا (إيمي)..
شكراً يا حبيبتى.. لا.. سأتأخر قليلاً.. لا تشغلي بالك.. تصبحين على خير..
أنهيت المكالمة ووضعت الموبايل على المكتب.. إلتفتّ إلى (أحمد)
الذي كان يحسوالشاي من كوب ورقى صغير بين أصابعه.. سألته:
- منذ متى..؟..
- (بتوتر): منذ إسبوع كامل.. كل ليلة.. نفس الأحداث.. نفس الوجوه..
نفس النهاية البشعة.. الاحتراق بين ألسنة النيران..
وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، ونفث الدخان مضيافاً:
- الأمر يختلف عن الرؤى التي كنت أراها طيلة الأسابيع الماضية التي
حدثك عنها منذ لحظات..
سألته وأنا أنفث دخان سيجارتي:
- أنتقصد تلك الرؤى الخاصة بالعمّال وإضرابهم..؟..
- (يهز رأسه بقوة): نعم..
وصمت لحظة ثم أردف:

- على مدى الأسابيع الماضية كنت أستغرق في النوم، وكأنّني أدخل
عالمأ آخر.. أحيا حياة أخرى.. وعندما أستيقظ يلبس على الأمر.. لا
أدرى من أنا ولا أين أنا.. أظّل لبرهة الأسطى (عمّار) العامل المعتقل..

أَتأمل -مندهشاً- المكان من حولي، ثم لا ألبث أن أستعد وعيي بهويّتي
الأصلية.. ثم ذلك الأنين..

- ماذا عنه..؟..

- يظل يدوي متقطّعاً في أذنيّ وعقلي من آن لآخر.. وكأنّ أحدهم يلفظ
أنفاسه الأخيرة بالقرب منّي بعد أن مُزق إرباً..

- وهل يعلم أحد ممّن حولك بما تمرّ به..؟..

رشفة من الشاي ثم..

- لا..

ظلمت أتطلّع إليه للحظات.. سألني بعصبية:

- ألا تصدقيني..؟..

تجاهلت سؤاله، وسألته:

- إسمح لي.. هل تتعاطى أي نوع من المخدرات..؟..

- (متوتراً): حالياً.. لا..

نفثت دخان سيجارتي.. أطرقت برأسي مفكرة.. لا يبدو كاذباً.. القصة
غريبة حقاً، وتشبه أفلام السنيما.. ولكن ما تفسير هذه الأحلام..؟..

هل هي حقاً مجرد أحلام أم..؟..

رفعت عينيّ إليه وسألته:

- ألم تفكر في الذهاب إلى الأماكن التي تراها في أحلامك..؟..

نظر إلى ساعة معصمه متسائلاً بتوتر:

- أليس الوقت متأخراً للقيام بمثل هذه المغامرة..؟..

أجبتُه وأنا أبحث ببصري عن مكان فارغ لإيقاف السيّارة:

- آية مغامرة..؟.. إنّك فقط ستلقى نظرة على الشوارع والأماكن التي

تراها في أحلامك..

- وما الغرض..؟..

إنشقت الأرض ليظهر شاب نحيل ممصوص الجسد يرتدي ثياباً
متسخة.. راح يلوّح لي بذراعيه مرشداً لأتمكن من إيقاف السيّارة في فرجة

ضيّقة بين سيّارتين..

- أغسلها يا مدام..؟..

- (وأنا أغادر السيارة): شكراً..

- ٢ جنيه رسم إنتظار..

مثل هذا الموقف يثير غيظي دوماً ويدفعني إلى رفض الدفع.. غير أنني لم أكن أملك وقتاً ولا بالاً للشجار هذه المرة.. نقدته المبلغ، فاختمت من أمامي في أقل من الثانية..

- (ونحن نسير متجاورين): هناك تفسير ما يدور بذهني أريد التأكد منه..

-

لاحظت أنه لم يسمعني أصلاً.. عيناه مشدوهتان تزحفا على المباني والوجوه والشوارع.. العرق يسيل على جبهته.. فمه مفتوح قليلاً.. وثمة رعشة خفيفة تغزو خده الأيمن.. سألته بقلق:

- (أحمد).. ماذا دهاك ؟..؟

إلتفت إلى.. حدّق في وجهي قائلاً بنبهة غريبة:

- مالي..؟.. مآني كويّس أهه..

مالي..؟.. مآني كويّس أهه..!!... فكّرت.. منذ متى تتحدث باللهجة الإسكندراني يا باشمهندس..؟.. هل هو مجرد تأثر بالجو المحيط، أم أنّ ما أفكر فيه صحيح..؟..

لماذا قررت الذهاب معه..؟..

لا أجد جواباً كاملاً لمثل هذا السؤال يا دكتور (حازم).. لربما كانت عدة أسباب تفاعلت في أعماقي لتدفعني إلى مرافقة هذا الشاب المضطرب إلى أزقة (كرموز) بعد منتصف الليل..

هل هو تعاطف إنساني عادي مع شخص ما يمر بأزمة نفسيّة..؟.. أم هي ما يمكن أن نسمّيها صداقة تكوّنت بيننا خلال الأسابيع الماضية تفرض عليّ أن أقف بجانبه..؟..

هل غريزة الأمومة المكبوتة بداخلي وجدت لها مخرجاً..؟.. أم تراها مشاعر الأنثى تتحرّك في أعماقي بعد أعوام من السبات..؟.. وإذا كان جواب التساؤل الأخير هو نعم.. فلم هذا الشاب بالذات..؟..

عموماً أياً كان الجواب، فالنتيجة أننا الآن نسير متجاورين في (درب

خزيم) بـ (كرموز) محاذرين الخوض في بِرْك المياه الآسنة وفضلات الحمير..

- الراجل اللى إسمه (الشوريجي) صاحب القهوة اللى هناك دى ماغدوش لا ذمة ولا ضمير.. أوسخ معسل فيكى يا (اسكندرية) تشريه عنده.. الواد (عطوة) صبي الفرن اللى على ناصية الحارة يقول إنه يبيجى بالليل بعد الناس ماترّوح بيوتها ويلم ولامؤاخذه بعز الحمير الناشف م الأرض، وياخده يطحنه ويخلطه بالمعسل (اللى هوّ أصلاً زباله).. تفوو (ييصق)..

هل أحلم أم أن ما تسمعه أذنأى حقيقى..؟..

- كل يوم والتانى (محفوظة) مراتى تتعارك مع المَرّة اللى إسمها (توحة) اللى ساكنة ف الأرضى.. نرجع م الشغل نلاقيها قاعدة تسب وتلعن فيها وفيّا.. ليه يا مَرّة..؟.. عشان عيني منها وبنام معها كل ليلة من ساعة جوزها المعلم (ابراهيم) صاحب البيت ما رَقَد من سنتين.. نحلفولها اتّ تبت عن صنف النسوان من يوم ما إنطسّيت ف نواضرى واتجوّزتها.. إئمّا تقولى لمين..؟.. عايزة الحق.. المَرّة (توحة) دى ماتعرفش تغمض عنيه وتنام غير بعد ما تتركب ولامؤاخذه.. والمعلم (ابراهيم) جوزها مبقاش يبيجى منه.. فضلت ورايا لحد ما سحبتنى زى البغل على سريرها.. مرة واتين وتلاتة.. آنى عارف اتى غلطان بس أنى برضه طمعان ف رحمة ربنا وحاسس انه هايسامحنى.. أمّال يا ست.. ده برضك الغفور الرحيم..

ذهول شديد إنتابنى.. يتحدث باللهجة العاميّة بطلاقة.. يلوّح بذراعيه.. الرذاذ يتطاير من فمه.. كأنما تقمّصته روح أخرى.. - أنا أمى لمّا ماتت مازعلتش وحمدت ربنا.. عارفة ليه..؟.. أصلها اتعذبت أوى قبل ما تموت.. كان عندها المرض الوحش بعيد عنك.. كنت بنقعد قدامها وهى بتتوجّع وقلبي بيتقطّع.. نبكى ونقولها آنى فداكى يامه.. مآنى ماكانش حيلتى غير الكلام والبكا بعد ما الداكتور ف المستشفى الميرى قال مفيش فايدة م العلاج.. أصل الأمّ غالية أوى يا مودام.. وآنى كنت بنحب أمى أوى..

مستحيل.. ليس هذا تمثيلاً.. عيناه تلتمعان بدموع حقيقة..
- بنفروحو قوى ف اليوم بتاع الانتخابات.. الشغل يقف.. بيركبونا
أوتوبيسات المصنع، ويطلعوا بينا على اللجنة ودفاتر الانصراف تفضل
ع الباب.. ندخلو ندى صوتنا للهلال والجمل ونطلع نمضى انصراف و
نعكشو عشرة عشرين جُند ونرد على بيوتنا طوآلى..
- (أحمد)..!! ...

- نقولك على حاجة..؟.. آنى بنحب عيالى أكثر من أى حاجة ف الدنيا..
بنخاف لانموت بدرى زى ابويا ما مات، و نسيهم يتلطموا ف الدنيا
زى آنى واخواتى ماتلطمنا.. أصلى ابويا مات و آنى لسأى عيل.. تفتكرى
العبارة الى غرقت ف البحر..؟.. ها..؟.. أها آنى ابويا كان على ظهرها..
غرق والسّمك كله ومحدّش عتر له على جتة.. لسة لحد دلوقت
فاكر منظر امى الله يرحمها وهيا بتشيل التراب و تحطه فوق راسها..
من ساعتها يا مودام ماشفناش يوم عدل.. آنى بقى خايف على عيالى
لايشوفوا الغلب الى شفته.. نفسى أعيشهم مس تورين.. أولكهم لقمة
نضيفة.. يتعلّموا ويبقوا أساتذة.. ويسيبوا الحارة الوسخة دى ويسكنوا
ف حتة نضيفة ع الشارع..

- (بصوت أعلى): (أحمد)..!!!!

- طب انتى عارفة آنى خدوتنى ف المصنع ازأى..؟.. نقولك.. الحكاية إن
الحاج (عمران الشايب) بتاع البودرة كان نازل انتخابات مجلس الشعب
عن دايرة (كرموز).. الى كان نازل قصاده الحاج (مدبولى أبو منصور)
وده راجل بتاع ربنا زى مانت عارفة وخيره ع الناس كلها.. (الشايب)
كان مسوى أموره مع الحكومة.. بعث جابينا.. وكلنا وشربنا وكيفنا..
وعدنا إنه يشغلنا ف المصنع الى جوز بنته مستوظف فيه لو وقفنا
معاه يوم الانتخابات.. عايضة الحق..؟.. آنى ف الأول كشيت.. أصلى نعز
الحاج (مدبولى) والراجل خيره مغرقنى.. بس الفرصة مابتجيش للواحد
غير مرّة.. يا يمد إيده ويخطفها.. يا يقعد زى المرّة حاطط إيده على
خده طول عمره.. ماكانش ينفع نقولو لأ.. كلنا حَسَبناها كده..
وصمت لحظة قبل أن يشرد ببصره -أتراها دموع تلك التى تلمع في
عينيه..!!؟- بعيداً ويتابع كأنه يحدث نفسه:

- دى كانت آخر مرّة نغضب ربنا.. من ساعتها يا ست هانم وآنى ماشى ف حالى.. ومامشيش ليه..؟! ربنا كرمى آخر كرم وبقيت عامل مستوظف ف المصنع.. إِتَجَوَزَتْ وبقالى بيت وعيال.. بقيت نصوم ونصلى الفرض بفرضه.. الحمد لله (يقبل يده وجهاً و ظهراً)..

- أسطى (عمار)..!!!.....

هنا إلتفت إلى.. تأملنى بتعّن..

- نعمين يا ست هانم..؟..

- (بابتسامة مرتبكة): إنت مش ناوى تعزمنى على كوباية شاي ف

البيت..؟..

ظل ينظر إلى للحظات ثم ..

- (بترحاب): يا سلام ..!!! كوباية شاي..؟!.. دا سعادتك لازم تنعشنى

معانا.. إتفضللى اتفضللى.. البيت مش بعيد.. خطوتين من هنا.. دى

(محفوظة) هاتفرح قوى لَمَّا تشرفينا.. داحنا زارنا النبى..

راح عقلى يعمل بسرعة.. من الواضح أن مرأى المكان فجّر فى عقله

شلال من الذكريات المنسيّة.. ذكريات عن حياة الأسطى (عمار) الذى

يراه فى أحلامه طيلة الأسابيع الماضية.. ولكن لماذا..؟!.. ما الذى يربط

بين فتى (باراديس هايتس) وقاطن (درب خزيم)..؟!.. ولماذا الآن..؟..

كان تفسير تناسخ الأرواح يطرح نفسه بقوة.. الواقع أنه طراً على

ذهنى منذ سمعت القصة لأول مرّة.. هذا الفتى المرفه عاش فيما

سبق حياة أخرى تتناقض تماماً مع حياته الحالية.. غير أنّ ذكريات

هذه الحياة السابقة - ولسبب لا أعلمه- بدأت تعاوده بقوة فى أحلامه،

وتشغل ذهنه فى يقظته.. الأمر غريب فعلاً.. ويتناقض مع قواعد العقل

والمنطق، ومبادئ الدين.. ولكنه قد يكون تفسيراً منطقياً إلى حدٍ ما..

ما حدث هو أننى تذكرت -عندما روى لى (أحمد) مشكلته- قصة

الطفل الهندى (برامود شارما).. ذلك الطفل الذى عاش فى القرن

الماضى فى مقاطعة (باودن) الهندية والذى اختلّت حياته وحياة أسرته

عندما راح يعلن أنّه -وهو فى الثالثة من عمره- شخص آخر يُدعى (بارا

ماناند) عاش ومات فى (مراد آباد) عن عمرٍ يناهز التاسعة والثلاثين..

ذكرتنى معرفة (أحمد خشبة) بتفاصيل حياة (عمار) بمعرفة (برامود

شارما) أدق تفاصيل حياة الراحل (بارا ماناند).. بيته.. أفراد أسرته.. متجره.. عمله كمدير لإحدى مصانع المياه الغازية.. بل وحتى تقنيات تركيب وتشغيل وعمل آلات المصنع.. ألا ترى أنّ التشابه واضح بين الحالتين..؟

قفز ذهني إلى هذه الفكرة الغريبة متجاوزاً تفسيرات أخرى قد تكون أكثر منطقية لما يمرّ به هذا الفتى.. تذكرت القصة ووجدت أنّ ثمة تشابه بينها وبين مشكلة (أحمد)، فكان أن عرضت عليه الذهاب إلى المواضيع التي يراها في أحلامه كما فعل أهل الطفل الهندي (برامود).. وكانت المفاجأة..

- أنت إذن إقترحت عليه فكرة تناسخ الأرواح..؟
- (بتوتر): لست من المؤيدين لهذه الفكرة.. ولكن التقارب بين الوقائع التي يمر بها (أحمد) وقصة الطفل الهندي أثار تعجبي بالفعل..
- من أين لك التأكيد من صحة القصة الهندية..؟
- كنت قد قرأت عنها من قبل، وعندما تذكّرتها مرّة أخرى، بحثت عنها في بعض المواقع المتخصصة على النت، فوجدتها مذكورة في أكثر من موقع.. دعك من أنّه ليست القصة الوحيدة، فهناك حالات أخرى كثيرة تشابه وتختلف مع حالتنا هذه في الوقائع، ولكن التفسير والمغزى يدوران دوماً حول نظرية التناسخ..
- وهل ترينها تفسيراً مقبولاً..؟
- أعلم أن الدين يرفض مثل هذه الأفكار لتعارضها مع فكرة صعود الروح إلى بارئها بعد الوفاة.. ولكنني لم أجد تفسيراً آخر لهذه المشكلة العجيبة.. وبخاصة عندما وجدت (أحمد) يتحوّل كلياً إلى الأسطى (عمّار) بمجرد أن اقتربنا من (درب خزيم).. أنت لم تره آنذاك.. لم يكن يمثل أو يدعى.. كان الأسطى (عمّار) يسير إلى جوارى يثرثر عن ذكرياته ومشاكله وأحلامه.. يمشي في الشوارع ببساطة وكأنه يحفظها عن ظهر قلب.. يتعرّف الأماكن والمحلات والبيوت ويحدثني عن قاطنيها كأنه يعيش بينهم طوال حياته..
- وهل ذهب بك إلى بيته..؟ أعني بيت الأسطى (عمّار)..؟

- (تتنهد): لم نجد وقتاً..

- لماذا؟..

واقفون ينتظروننا في الظلام ..

لم ألاحظهم في بادئ الأمر.. غير أن (أحمد) فعل.. توقف عن الشرقة..
تجمّد في مكانه.. قبض على ذراعى ليمنعنى من مواصلة السير..
- ماذا حدث؟..

لم يرد.. ظل ينظر بشتات إلى الطريق الضيق المظلم أمامنا.. تطلّعت
بدورى إلى حيث ينظر.. الظلام يغطى الزقاق الطويل الممتد لأكثر
من عشرين متراً.. عمود الإنارة محطم خال من أيّة مصابيح.. و..
هنا رأيتهم (وقد بدأت عيناى تعتادان الظلمة)..
- يا أهلاً وسهلاً..
- عندنا ضيوف الليلة..
- يالالى..

الصوت المبحوح الخارج من تحت لسان ثقيل والمميز لمتعاطى
البانجو..

أصوات ضحكات.. ثم برز من الظلام رأس.. إثنان.. ثلاثة..
إنتابنى الرعب وأنا أتأمل وجوههم السمراء النحيلة.. ذقونهم الغير
حليقة.. الندوب المختلطة التى خلفتها ضربات المطاوى.. العيون
الزائغة المليئة بالشهوة والابتسامات التى تفوح بالشر.. رغماً عنيّ
ارتجفت.. تراجعنا للخلف بحذر..
- على فين؟..

كليك.. صوت السوستة.. ثلاثة مطاوى تلمع في الظلام..

- طلع اللى ف جيبك يا نحنوح..

و...

- وشنطتك يا حِته..

بيبء فتحت حقيبتى.. سمعت (أحمد) يقول بغضب:

- إنتوا جايين تقلّبوني ف حتى يا شويّة (....)؟..

يخرب بيتك.. ألا ترى يا أحقق أنهم عاملين دماغ..؟.. فليأخذوا كل

شيء ويتركونا أحياء..

نصل المطواة يضربه برفق على جانب وجهه..

- (.....) ..؟؟!! ما إنت جامد أهوه ياله..!!..

رائحة البانجو والخمر الرخيصة تفوح منهم بقوة.. يد أحدهم تمتد لتزحف الحقيبة من يدي.. فوجئت بالأخرى تزحف على صدرى وتعتصر ثديي.. وسمعت أحدهم -صاحب اليدين بالتأكيد- يصدر صوتاً بذيئاً من بين شفتيه..

- يالالى..

سرت رعدة قويّة في بدني.. صرخت، وأنا أدفعه عني.. وفي اللحظة التالية إرتفعت يدي حاملة أنبوب الـ self - defence.. أغمضت عيني.. وضغطت الزر...

[illegible]

إندفع الرذاذ الحارق ليغمر وجهه.. أطلق صرخة عاتية وهو يغطى عينيه بكفّ يديه.. هنا تحرّك (أحمد).. إستغلّ تشتت إنتباه الخزيّرين مع صراخ ثالثهما.. إرتفعت أصابعه لتزيح المطواة عن عنقه، وانحنى بسرعة البرق ليلتقط حجراً من الأرض.. يده ترتفع بالحجر ثم تهوى به على رأس أقرب الرجلين إليه بكل قوّته..

صرخ الرجل والدماء تتفجر من رأسه.. هوى أرضاً، في حين طَوَّحَ
الثاني بمطواته وهو يطلق سباباً بذئلاً.. سمعت صوت (أحمد) يشهق
بألم.. لمحت الدماء تلوّث ذراعاه.. هتفت باسمه بلوعة.. غير أنّه
دفعني جانباً، واندفع ليلتحم بالمجرم حامل المطواة.. ثم لم أعد
أُميّز أي منهما في الظلام.. أرى الحدود الخارجيّة لجسديهما.. المطواة
تلتمع في الظلام.. يد ترتفع حاملة إيّاه، وأخرى تقبض عليها لتمنعها
من الطعن.. صرخاتي تشق الصمت.. الغبار يتصاعد من أثر الشجار..
المجرم الذي حرقت عينيه يزحف متحسباً طريقه.. أصوات سباب
المتصارعين تتعالى.. ثم...

ضوء يندلع في نهاية الزقاق المظلم.. يقترب بسرعة.. أرى رؤوساً عدة تقترب.. أسمع أصواتاً غاضبة.. لأول وهلة ظننتهم مزيداً من الأوغاد.. ثم لمحت وجوههم.. خفق قلبي.. رأيت المجرم الذي يقاتل (أحمد)

يدفعه بعيداً عنه.. المطواة تسقط من يده.. يهرع مبتعداً.. زميله الأعمى يحاول الهروب.. يتعثّر.. ينهض ويسب ساخطاً.. ألقى نظرة على (أحمد).. مستلقى أرضاً.. صدره يعلو ويهبط.. الدماء تتدفق من جرح ذراعه..

- أهل الزقاق يحيطون بنا..
- الحمد لله.. قدّر ولطف..
- حد يطلب الإسعاف يا اخوانا.. الرجل بينزف..
- دى عيال ولاد حرام..
- إحنا سمعنا صوت صراخ الست جينا نجرى..
- حته قماش.. حته قماش..
- يا دكتور (خالد)..
- الإسعاف يا جدعان..

- ساعدنى بعض أولاد الحلال فى نقله إلى مستوصف قريب.. كان جرح ذراعه سطحياً والله الحمد.. لم يمض وقت طويل حتى كنّا عائدين..
- إلى أين..؟..
- عرضت عليه أن يأتى إلى منزلى لتناول الإفطار مع أُسرتى، غير أنّه اعتذر، وغادرنى إلى (بورتو مارينا) حيث ترك قاربه البخارى فى مرفأها، ليستقلّه عائداً إلى (باراداييس هايتس)..
- وما كان تعليقه على ما جرى فى تلك الحارة.. آآ.. ماذا كان اسمها..؟..
- (درب خزيم).. ولم يعلّق بشئ على ما جرى..
- لماذا..؟..

- لأنه لم يذكر شيئاً ممّا جرى.. نسى كل شئ، وفوجئت به يتساءل - بعد خروجنا من المستشفى - عن جرح ذراعه كيف ومتى أصيب به..!!..

كنت فى غاية الإرهاق البدنى والنفسى بعد مغامرة الأمس، فلم أذهب إلى العمل.. هاتفت (ميخائيل) وأخبرته أنّى سأغيّب اليوم، وأنفقت معه على بعض الأعمال التى سيباشرها بنفسه فى غيابه..

غرقت في نعاس عميق، وفي الظهيرة كنت أستقل ترام (باكوس) عائدةً
إلى (كرموز)..

العنب العنب العنب..
أحمر.. أخضر.. أصفر..
أسمر وزيّ اللوز.. واطعم يا ناس م الموز...

- الأسطى (عمّار).. أيوووه.. إلّا نعرفه..!!.. ده كان حبيبي..
- الأسطى (عمّار)..!!..
كذا تساءلت بذهول، فقال بثقة وهو يتعد حاملاً صينية الشاي:
- أيوه يا مودام.. مش سيادتك تقصدي لاسطى (عمّار) بتاع مصنع
الصاج اللي ف البر القبلى..؟.. هو مفيش غيره..

فيييى بقعة..
من بقاع الأرض طالاهرة..
بسم الله مولانا..
بنت (وهب) أنجبت ولدًا.. فأنجبت خير خلق الله إنسانًا..

- أمّال ياهانم..!!.. دول عيالى روحهم ف عياله.. ربنا يرد غيبته
ويرجّعه بالسلامة..
إرتفع صوت ساخط من الداخل:

- إخلص يا أسطى (جمعة).. المعجون نشف على دقنى..
- (بحدة): يا جدع أصبر شويّة هيّا الدنيا طارت..

لا تين ولا عنب زيّك يا بير العسل..

قالت وهى تهش أسراب الذباب عن قوالب الجبن الأبيض المرصوفة
أمامها في الطشت:
- أيوه أيوه.. جوز الست (محفوظة) اللي ساكنة ف الدور التانى.. ربنا

يفك سجنه..

(روتانا سينما) ... مش هاتقدر تغمض عينيك...

فتحت الباب، ووقفت تحديق في بعينين واسعتين متسائلتين..
- مين سيادتِك؟..

لم ترق لى.. بالفعل هى جميلة جدا.. ولكن المساحيق الّتى تلتخ وجهها بالإضافة إلى النظرة العابثة المطلّة من عينيها الكحيلتين منحاً جمالها طابعاً سوقياً مزعجاً.. دعك من أنّ ثوبها المنزلى الشفاف ذو الفتحة الواسعة كشف عن عنقها الطويل الجميل و مساحات واسعة من صدرها الناصع البياض.. قلت بثبات:

- الحاج (ابراهيم) موجود...؟..

- الحاج نايم دلوقت ومانقدرش نصّوه.. مين حضرتك...؟..

من الداخل ينبعث صوت (شادية) ..

قاللى كلام .. أحلى كلام .. من بعد ما قاله ماهانام...

- (أمل الشافعى).. من الهيئة العامّة لتنظيم الأسرة..

- أهلاً و سهلاً.. أيتها خدمة...؟..

- كنت عايّزة أسأل عن سكّان الدورالتانى.. الأسطى (عمّار) وجماعته..

- (تممصص شفيتها): حد عارف لهم طريق...؟.. أهو من ساعة ما

الراجل إتمسك.. والولية المجنونة مراته خدت العيّلين والأرض انشقت وبلعتهم..

- هو اتمسك ليه...؟..

- العلم عند الله .. هوّ الى الحكومة بتمسكه بنعرفو اتمسك ليه

واللا هايرجع اللا لأ...؟..

- طب إتمسك إمتى...؟..

- دى كمان مانعرفوهاش.. بس آنى عرفت انه اتمسك من قيمة زى ما

تقولى كده ٤ نُشهر..

ثم خفضت حاجباً ورفعت الآخر قائلة بتشكك:

- إنما سيادتِك يعنى ولامؤاخذه واخذنى ف دوكة وعمّاله تسأل وآنى

نجاوب من غير ما نعرفو إنتى بتسأل كل الأسئلة دى ليه..
- (بارتباك): قلت لك إني مندوبة الهيئة العامة لتنظيم الأسرة..
- (بحدّة): إسم النبی حارسك وصاينك.. وهيئة تنظيم الأسرة بدل ما
تسألني عن بيتي جايت تسأل عن البيت الى فوقينا..؟!.. ومالها (عمار)
اتمسك إمتي واللا ليه..!!؟؟..
أنقذني الصوت الواهن الذي تعالى من داخل الشقة:
- (تووووحة).. الحمّام..
قاللى كلام.. أحلى كلام.. من بعد ما قاله ما هانام...

- عايزة الحق.. المرّة (توحة) دى ماتعرفش تخمض عنيتها وتنام غير بعد
ما تتركب ولا مؤاخذه.. والمعلم (ابراهيم) جوزها مبقاش ييجى منه.. بنت
الكلب الوسخة فضلت ورايا لحد ما سحبتنى زى البغل على سريرها.. مرة
واتنين وتلاتة.. آنى عارف انى غلطان بس آنى برضه طمعان ف رحمة ربنا
وحاسس انه هايسامحنى.. أمّال يا ست.. ده برضك الغفور الرحيم..

(إيجى — نيرجى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان...

- بقى له شهور مادّخلش البيت..
كذا قالت ودموعها تنهمر.. غمرتني الشفقة وأنا أتأمل وجهها الشاحب
وعينيها الذابتين.. ناولتها منديلاً وقلت:
- وحدى الله يا ست (إخلاص)..
- (تناول المنديل): لا إله إلا الله، (محمد) رسول الله.. متشكرين يا
ست هانم..

مسحت دموعها وتمخّطت في المنديل.. قالت:
- من بعد الحكومة ما قبضت على زملاته، وهو ما بينامش الليل..
كل ما عينه تغفل يصحى مفزوع ويفضل ينده على (عمار) والرئيس
(حمدى) ويبيكى زى العيال الصغيرة..
- ليه يا (إخلاص)..؟..
صمتت ولم ترد..

- (بإصرار): إي ه الى خلا الاسطى (نعمان) أعصابه تنهار بالشكل ده...؟..

- سامحيني يا ست هانم آنى مانقدرش نتكلم..

- ليه...؟..

- (بخشونة مفاجئة): البيوت أسرار.. وآنى مانفشيش أسرار بيتى ابدأ..

- (بحزم): مانفشيش أسرار بيتك واللا مش عايضة تقويلي ان جوزك هوّا الى فجر الغلاية الى ف المصنع أيام الاعتصام...؟..

شحب وجهها -الشاحب أصلاً- أكثر، وحدّقت بعينين يطل منهما الهلع في وجهى ثم هتفت:

- ماخصلشى..

- لأ حصل.. بدليل إنه هوّا الوحيد من العمال الى كانوا معتصمين ف المصنع الى ماتقبضش عليه..

صرخت:

- كذب.. كذب..

وهبّت واقفة:

- إتفضلى من غير مطرود بدل مانفرّجو عليكى الخلق..

شعرت بالدم يتدفق في عروقي.. نهضت حاملة حقيتى.. قلت لها وأنا أتوجه نحو الباب:

- أنا ماشية.. بس ماتنسيش إنّ انتى وجوزك شايلين ذنب الغلاية الى ضاعوا.. وانا مش هاسكت.. أنا صحفية وهافضحكو أدام الدنيا كلها..

غادرت الشقة، وبينما أهبط الدرج العتيق، سمعت صوت مزلاج الباب يُفتح، ثم جاءنى صوتها المتوسل:

- من فضلك استنى يا ست هانم.. آنى محقوقة لك.. إتفضلى وآنى هانقولك على كل الى نتي عايّزاه..

أمل الشافعي

في ذلك اليوم.. كان (نعمان) جالساً أمام الدكتور (هشام مذكور) الأستاذ في قسم الأورام بالمستشفى الميري..
لابد أن الطبيب فحص صور الأشعة، قبل أن يخفضها ويهز رأسه قائلاً:

- زى ما قلت لك..
- لابد أيضاً أن (نعمان) تساءل بخوف:
- خير يا دكتور..؟..
- لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..
- (برهبة): جراحة..؟..
- وف أسرع وقت ممكن.. بكره أو بعده بالكثير..
-

- العمليات هنا ممكن ماتكونش جاهزة.. عشان كده هاتطلع على المستشفى التخصصى بتاعى اللى ف (سموحة).. (ينزع ورقة من دفتر التذاكر الطبية ويكتب عليها).. هتصلك بيهم علشان يستقبلوا المدام ويجهزوا أودة العمليات.. بس المهم إنك ماتأخرش.. إتفضل.. (يناوله التذكرة الطبية وصور الأشعة والتحليل)..

- طب وعملية زى دى تتكلف كتير يا دكتور..؟..
- خط رقماً على ورقة بيضاء، ثم ناولها له..
- خمسة عند الدخول والباقي بعد العملية إن شاء الله..
- (العرق يسيل على وجهه)

- (يلاحظ صمته): أنا عارف إن المبلغ ممكن يكون كبير.. بس العمليات دى بتتكلف كتير يا اسطى (نعمان).. وصدقنى لو كانت عندنا هنا ف المستشفى الميري غرف عمليات جاهزة ماكنتش اتأخرت معاك.. لكن الغرف كله مشغولة اليومين دول، وقوائم العمليات طويلة.. وحالة مراتك ماتستحملش التأخير..

ثم يتسم مستطرداً:

- على العموم.. شيل م المبلغ ألفاية.. دى مساهمة منى.. وربنا يتمم الشفا إن شاء الله للمدام.. بس زى ما قلت لك.. إوع تتأخر...

أكد أراه بعينى وهو يمشى منكس الرأس يملأه الهم متجهاً إلى محطة ترام (المنشيّة)..

واقفاً فى المحطة.. الفحوص والتحليل فى مظروف عملاق تحت إبطه.. ذقنه غير حليقة.. عيناه زائغتان.. لا يكاد يرى شيئاً من الزحام الشديد المحيط به..

لم يكن لديه أطفال برغم أنه متزوج منذ خمس سنوات.. ولكنها إرادة الله.. يرزق من يشاء إناثاً ويرزق من يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيماً.. هكذا سمع الشيخ (عبد الرازق) إمام المسجد يردد.. لم يكن لديه أطفال بعد.. ولكنه كان يحب زوجته (إخلاص) حباً عميقاً.. طيلة عمره كان يهوى النساء وله معهم مغامرات لا تعد.. ولكنه منذ رآها واقفة تساعد أبيها المعلم (عوضين) على عربة البليلة بعد وفاة أمها تغير حاله.. شدّه جمالها.. حاول معها فى البداية بالطرق التقليدية.. الرثرة أثناء التهام سلاطين البليلة.. بعض النكت القبيحة.. محاولات الإحتكاك والتحسيس (فى غفلة من أبيها العجوز طبعاً).. عرض عليها أن يخرجوا سوياً.. «يا بت يا عبيطة هانفسحوكى ونأكلوكى كباب».. غير أنّ البنت الجدعة واجهته بصراحة بأنها ليست من هذا النوع، وأنّ «برشامتها لسه سليمة» وإذا أراد «من غير لف ولا دوران» فكها فليكن بحلال الله..

لم يكن «بتاع جواز».. حاول العودة إلى نظامه القديم، ولكنه فوجئ بأنه لم يعد يطيق مضاجعة المومسات (ولكم أدهشه هذا).. توقف عن اللعب بذيله ومطاردة العاهرات فى الشوارع ليلاً.. أدرك مذهولاً أنّه -بحق- يحب هذه الفتاة السمراء بارعة الحسن.. صار مدمن بليلة.. يقضى لياليه على غرزة (الدبّاغ) بـ (كرموز) أمام عربة المعلم (عوضين).. حتى جاءت تلك الليلة التى أحاط فيها ثلاثة من السكارى بالعربة وراحوا يغالزون الفتاة ويمدون أيديهم ساخرين من أبيها العجوز..

هنا هب (نعمان) من مكانه وتحرك نحو العربية.. لم يدر إثنان من السكاري الثلاثة بنفسيهما إلا و أسيهما يرتطمان ببعضهما بعنف ثم يغيبا عن الوعي.. ولم يكد الثالث يشهر مطواته حتى قبض (نعمان) على ذراعه ولواه بقوة فسمع الجميع صوت العظام تهشم، قبل أن يعاجله بروسيّة معتبرة كوّمته إلى جوار رفيقيه..

- البت بتك دي ماتزلش تاني الشغل يا معلم (عوضين)..

- كلام ايه ده يا اسطى (نعمان)..؟.. مانت عارف اني ماحلتيش غيرها، وبتعكزو عليها لجل مانالكو عيش..

- آني بنطلب منك إيد (إخلاص) يا معلّم (عوضين).. ورزقنا كلنا على الله..

وبينما صمت الرجل مندهشاً للمفاجأة.. إحمز وجه الفتاة وأطلّ الفرح بوضوح من عينيها وابتسامتها..
توووووت...

وصل ترام (باكوس).. يركب إحدى العربات.. يقطع تذكرة.. الزحام شديد فلا مكان للجلوس.. عليه أن يظل واقفاً حتى يصل إلى (كرموز).. تهدد بصبر.. ركاب كثيرون لا يتوقفون عن الثرثرة.. أحدهم يرفع مصحفاً ويقرأ منه بصوت مرتفع.. و«صلى على رسول الله.. تبرّع لجمعيّة كفالة اليتيم.. يقول الرسول (صلى الله عليه وسلّم) أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة.. تبرّع من أجل كفالة اليتيم».. فتاتان صغيرتان ترتديان ثياب المدرسة لا تكفان عن الثرثرة والضحك.. امرأة منقبة تحمل طفلة صغيرة لا تكف عن البكاء.. و«باكوس» شيكولاتة بالحليب بربع جنيه.. حلى بقل و سلى وقتك بربع جنيه.. أربع بواكي شيكولاتة لحمادة بجنيه.. شاب ملتح يضع عدداً من الكتب تحت إبطه ويحاول التركيز في قراءة أحدهم.. و.. و..

عربات الترام تهتز طيلة الوقت.. ولكن (نعمان) كأنه في عالم آخر منفصل تماماً عمّا حوله.. يستعيد وجه امرأته الصبوح، و يقارنه بما صار عليه من اصفرار وذبول بعد إصابتها بالمرض اللعين.. يتذكر لحظاتها معاً، وتكاد الدموع تساب من عينيه..

لا يدرى متى هبط في (كرموز).. لم يعد إلى بيته.. لم يجد لديه

المقدرة.. راح يهيم على وجهه فى الشوارع.. ماذا سيقول لها حين يدخل عليها فتستقبله عيناها بتساؤل ملهوف عمّا فعل...؟..
لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..
للأسف لا توجد غرف عمليات فارغة فى المستشفى الميرى يا (إخلاص)..
سيجربها لك الداكتور فى مستشفىاه الخصوصى بـ (سموحة).. هذه
العمليات تتكلف الكثير.. لكن لا تقلقى..
ع العموم .. شيل م المبلغ ألفاية.. دى مساهمة منى..
و من دون أن يلحظ .. كانت الدموع تغرق وجهه ...

السيّارة الفاخرة تتوقف بجانبه.. يفتح الزجاج المجاور للسائق.. يبرز
وجه (حسين مغاورى) من وراءه..
- سلام عليكم يا اسطى (نعمان)..
- سلام ورحمة الله وبركاته..
مشاعر الغضب والضييق تملؤه.. ينظر إلى وجهه.. يرغب أن يصدق
عليه.. يصفعه قلمين..
- على فين العزم امّال...؟..
يريد أن يصرخ فى وجهه أن «وانت مال أمك...؟» غير أنّه يتمالك
أعصابه..
- مشوار كده عدم اللامؤاخذة..
- لو رايع ع المصنع إركب معايا أوصلك ف سكتى..
- تعيش يا باشا.. إتفضل سيادتك ماتشغلش بالك..
- يا جدع اركب ما تخافش مش هانخطفوك..
- مآنى أصلى مش رايع المصنع..
- إركب بس آنى عايزك ف موضوع صغير..
- ماينفعش نخليها وقت تانى يا باشا...؟.. أصل الـ..
- (يفتح باب السيّارة الأيمن): لا أصل ولا فصل.. هى كلّها نص ساعة
ونرجعوك تانى.. ياللا اركب..

لماذا ذهب معه...؟..

الجواب بسيط.. لقد خرج من المستشفى الميرى تأثهاً يترنح كالطير المذبوح.. ساعات طويلة قضاها يقطع الشوارع والأزقة حتى كُت قدماه من التعب دون أن يجرؤ على العودة إلى زوجته حاملاً خيبة الأمل ولا شئ سواها..

كان يعلم بالتأكيد أن (حسين مغاوري) لا يأتي الخير من وراءه «لإن الحداية مابتحدفش كتاكيث».. وأنه بالتأكيد يريد منه شيئاً يتعلّق بالإضراب.. ولكن..

هو لا ينوي خيانة زملائه أبداً.. فلماذا لا يذهب..؟.. هو بحاجة إلى ألا يعود لبيتته.. لإمرأته.. يريد أن يكلمه أحد.. يسمعه أحد.. أي أحد، ولو كان شعباناً كـ (حسين مغاوري)..

الفيلا في (العجمي) أنيقة حقاً..

الأرضيات خشب باركيه.. الحوائط مطلية بالبلاستيك الملون.. النباتات الخضراء منتشرة في كل مكان.. آيات قرآنية مختلفة في أطر مذهبة معلّقة على الجدران.. هواء بارد مكيف.. نافذة عملاقة تطل على حديقة رائعة أمام شاطئ البحر مباشرة..

- آني طاوعتك يا (حسين) بيه وجيت معاك عمياني لحد هنا.. ولازمين تقولي إيه الحكاية بالظبط..

- (يرشف من زجاجة المياه الغازية): اللي خلاك تصبر كل ده يا (نعمان).. مش قادر تصبر دقيقتين كمان لّما الراجل ييجي..؟..

- (ينهض): ولا دقيقة واحدة.. بالاذن يا باشا آني ماشي..

- (يجذبه من كم قميصه): يا جدع اقعد هاتروح ازاي كل ده..؟..

- (يشد قميصه بعنف): إن شالله نروح على رجلي.. ماشي يعني ماشي..

صوت عميق متزن يأتي من خلفه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

(حسين مغاوري) يهب كالملسوع هاتفأً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أهلاً يا مولانا..

- أهلاً بيك يا أخ (عادل).. (يلتفت لـ نعمان): إيه يا أخ (نعمان).. لم

لا ترد السلام..؟..

- (ببطء): سلام ورحمة الله وبركاته..
- (يصافحهما بحرارة): تفضلا بالجلوس..
- رجل مهيب حقاً.. الوجه يشع نوراً (أو هكذا بدا له).. اللمحة غزيرة يختلط بياضها بسوادها.. زبيبة صلاة داكنة تزيّن الجبهة.. سبحة من الكهرمان الأزرق تتلاعب بين أصابع اليد.. جلاباب أبيض ناصع.. عباءة سوداء داكنة..
- أعتذر عن التأخير.. نسيت نفسي كالعادة أثناء أداء سنة الظهر..
- قال (حسين مغاوري) بحماس:
- تقبل الله صالح الأعمال يا حاج..
- (يمسح وجهه بكفيه): آمين.. منّا ومنكم إن شاء الله.. ثم..
- (مبتسماً بود): كيف الحال يا أخ (نعمان)؟..
- الحمد لله..
- أول مرة نتقابل..
- أسرع (مغاوري) يقول:
- الحاج (صالح عبد النعيم) رغم إن مشاغله بتمنعه من إنه ييجى المصنع.. إلا إنه بحكم منصبه كنائب لرئيس مجلس الإدارة عارف كل عمال المصنع.. وكل كبيرة وصغيرة بتحصل عنده خبر بيها..
- رفع (نعمان) حاجبه متسائلاً:
- الكبيرة والصغيرة..؟!..
- فتح (مغاوري) فمه ليتكلم، ولكن الحاج (صالح) بادر بالقول:
- نعم يا أخ (نعمان).. الكبيرة والصغيرة.. وصدقني أنا حزين جداً بسبب المشكلة اللى حاصلة بين العمال والإدارة.. ونفسي اننا نحلّها بهدوء وبدون أى شوشة..
- إدونا حقنا يا بيه.. ويا دار ما دخلك شر..
- ما هيّا دى المشكلة يا أخ (نعمان)..
- مشكلة انك تدى الغلابة الشقيانين حقوقهم يا حاج..!!!..
- (بهدوء): حقوق الغلابة مش عندى يا أخ (نعمان).. دى عند الحكومة المصرية.. المبالغ الضخمة اللى بتطالبوا بيها دى أرباح ومكافآت السنين

الى فاتت لما كانت أغلب أسهم المصنع ملك للحكومة.. وكان المفروض انها تصرفها لكم.. لكن الى حصل انها مصرفتش حاجة.. وباعت لنا المصنع -أنا وشركائي- من غير ماتقولنا على الموضوع ده.. أنا راضى ذمتك.. بعد ما دفعنا ملايين وملايين فى شرا المصنع و التزمنا بعدم تسريح أى عمالة زائدة طول الفترة الى فاتت، وتحملنا أعباءهم المالية.. يبقى مفروض علينا ندفع مستحقات مش فى ذمتنا أصلاً؟؟!!.. - (بغضب): يعنى احنا كده فلوسنا راحت فى الهوا بينك وبين الحكومة؟؟..

- إنت عارف الفلوس دى تطلع أد إيه يا (نعمان)؟؟.. أنا أقول لك.. عشرين مليون جنيه.. عارف يعنى إيه عشرين مليون جنيه..؟؟.. يعنى أنا كده أبقي اشترت المصنع علشان أخسر.. ورغم كده.. وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم:

- ورغم كده.. أنا مايهونش عليّ حقوقكم تضيع.. أنا غير الاجانب شركائي.. أنى ابن البلد.. ومانسيش ولاد بلدى حقوقهم تروح فى الرجلين.. ولو على رقبتي..

- (بدهشة وفرح): يعنى هاتصرفوا لنا الأرباح المتأخرة..؟؟..

- إن شاء الله رب العالمين.. بس فيه حاجة صغيرة..

- (بقلق): حاجة إيه..؟؟..

- (مبتسماً): كل خير إن شاء الله.. نتكلم بعد أما نتغدى..

- مالوش لزوم يا حاج..

- (يربت على كتفه بمودة): إزاي بقى..؟؟.. مش لازم ناكل عيش وملح مع بعض..؟؟.. والا انت منوفى..؟؟.. هه هه.. ماتتكلم يا (حسين)..

هتف (مغاورى) بحرارة:

- طول عمرك أهل كرم ومروّة يا حاج..

- ياللا بينا.. إنفضّلوا..

المائدة حافلة بمختلف صنوف الأطعمة التى رآها ولم يرها من قبل.. أواني وطواجن مختلفة الأحجام والأشكال والألوان تفوح منها الأبخرة الساخنة محملة بأشهى الروائح..

الجو حميمى يموج بالدفء .. (حسين مغاورى) يزدرد الطعام بنهم شديد، وكأنها المرة الأخيرة التى سيفعل فيها.. بينما شَمّر الحاج (صالح) عن ساعديه، وراح يطعم ضيفيه يديه العاريتين وهو لا يكف عن الثرثرة والتهكم على نهم (مغاورى).. كل هذا جعل (نعمان) ينسى مشاكله الشخصية ويقبل على الطعام بشهية، وخاصة أنه لم يذق طبيخاً منذ أكثر من شهرين (منذ بدء الإضراب)..

تساءل الحاج وهو يناول (نعمان) شريحة من صدر رومى:

- أخبار المدام إليه يا أخ (نعمان)..؟..

توقف (نعمان) عن مضغ الطعام، وكأنما تذكر ما غاب عن ذهنه مع توالى الأحداث.. تتمم بأسى:

- الحمد لله..

لعق (حسين مغاورى) أصابعه الملوثة بالسمن قائلاً:

- للأسف يا حاج.. جماعة الاسطى (نعمان) مريضة بالمرض الوحش.. أنا حتى لما قابلت (نعمان) كان راجع م المستشفى الميرى..

قال الحاج (صالح) بآلم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. ربنا يتم لها الشفاء بحوله وقوته.. طب والدكاترة ف القصر العينى قالوا إليه..؟..

أجاب (نعمان) بصوت مبحوح:

- لازمها عملية..

- (باهتمام): هاتعملها إمتى..؟..

- (بيتسم بمرارة): لما ربنا يفرجها..

- ونعم بالله.. إحكى لى يا (نعمان) وماتخبيش حاجة..

قص (نعمان) تفاصيل مقابله مع الدكتور (هشام مذكور)، ولم يكذبنته حتى قال الحاج بحزم:

- ولا تحمل أى هم..

والتفت إلى (مغاورى) قائلاً:

- تخلص أكل يا (حسين) وتقوم تتصل بمستشفى (هشام مذكور) وتحجز أودة العمليات.. الست جماعة أخونا (نعمان) لازم تعمل العملية بكرة إن شاء الله.. والمصاريف تتسدد كلها النهاردة قبل بكرة

بإذن الله..

- أمرك يا حاج..

أما (نعمان) فكان وقع الكلام عليه قويًّا.. بهت للحظات.. فتح فمه ليعترض بكلمات متخاذلة غير مسموعة قبل أن تفيض مشاعره بغثة.. إنهمرت الدموع كالطرر من عينيه.. أهوى على يد الحاج (صالح) يقبلها والكلمات تتقاذف مع رذاذ لعبه من فمه كالطلقات، فأسرع الحاج يسحب يده هاتفاً بانزعاج:

- أستغفر الله العظيم.. قوم يا أخى حرام عليك..

- الخدمة اللي انا عايزها منك بسيطة أوى..

قالها الحاج ونفث أبخرة الحشيش بعمق..

في وقت آخر وظروف أخرى، كان مثل هذا الكلام ليملاً (نعمان) بالتوجس والقلق، غير أن تأثير الساعة الماضية وما جرى فيها طغى على كل شكوكه فقال والنشوة تملؤه:

- إنت تؤمر يا حاج..

- (مبتسماً): الأمر لله يا أخى.. جُزيت كل الخير..

وسحب نفساً طويلاً من النارجيلة.. ثم..

- إنت و الإخوة المعتصمين ف المصنع بتناموا فين..؟..

- ف كذا مكان.. ف العنابر.. ف الحوش.. ف مكاتب رؤساء العمال..

- حد بينام ف قاعة الغلايات..؟..

- لأ..

- إسمعنى..؟..

- دي بالذات إحنا متفقين نحافظ عليها من أى تخريب.. داحنا كمان

عاملين عليها حراسة..

- عظيم جداً..

ونفث أبخرة الحشيش قائلاً: - إسمعنى بقى كويس.. وركز معايا..

الميكروباس يتوقف به على الطريق الأسفلتى الذى يخترق البر القبلى.. يهبط.. يلتقط نفساً عميقاً من هواء الليل البارد.. يخطو على الطريق

الترابى المؤدى إلى المصنع..
يداه تحتضان الصندوق بحرص..

- إيه اللى ف الصندوق ده يا حاج عدم اللامؤاخذه..؟..
تساءل وهو يتطلع باستغراب إلى الصندوق المصنوع من الصاج الذى
وضعه (حسين مغاورى) أمامه على المنضد ..
- ماتقاطعنيش..

يعبر البوابة الحديدية.. يسمع صريها إذ تغلق من خلفه.. عدد من
رفاقه يلتقون حوله مرحبين..
- حمد لله ع السلامة..
- إيه الأخبار يا اسطى (نعمان)..؟..
قال الرئيس (حمدي) باهتمام :
- طمئنا..
- (يبتلع ريقه): بخير ولله الحمد..
سأل (عمار): - الدكتور قاللك إيه..؟..
- (يتلعثم): أأ.. الحمد لله.. قال.. إ.. إن العلاج إبتدا يجيب نتيجة
كويسة.. و.. و.. وقریب إن شاء الله تخف وتبقى زى الفل..
- (بارتياح): الحمد لله.. ربنا يطمئنك عليها..
(طحلاوى)يشير إلى الصندوق متسائلاً بفضول:
- أمال إيه اللى ف الصندوق ده يا (نعمان)..؟..
- (مرتبكاً): ده.. أ.. دى لقمة كده على ما قسم.. على شوية غيارات
أحسن غياراتك كلها اتوسخت..
ثم..
- بالإذن آنى يا اخوانا.. أصلى مهدود م المشوار.. عايز نريحو الجتة
شوية..

- هاتدخل العنبر اللى بتنام فيه.. تخفى الصندوق فد فرشتك أو فأى
حتة.. المهم الجن الازرق مايعترش فيه.. تريح لك قيمة ساعة زمن..

وبعدين تطلع لزمايلك برّة.. هاتلاق الدنيا مقلوبة..

ضجيج عال.. أصوات ضحك.. غناء.. تصفيق..

- (بصوته الأجش): عَرَفْتُ اللى حصل يا (نعمان)؟..

- خير يا (عاشور)؟..

- (يحتضنه بقوة ويضحك بصوت عال): الشدّة زالت.. الإدارة وافقت-
مبروك يا (عاشور)..

- قبل الفجر بنص ساعة.. العمال هايكونوا إما نايمين.. يا إما سهرانين
بيهيصوا.. إنت بقى هاترجع عنبرك.. تخرج بالصندوق من غير ما حد
يشوفك..

يتحرّك بخفّة فى الظلام بين الغلايات العملاقة.. الصندوق يرقد بين
أصابعه.. أصوات الساهرين تأتى من بعيد وكأنّها قادمة من عالم آخر..
بقايا أضواء كlobات الفناء الخارجى تصنع ظلالاً على أرضيّة القاعة
بالقرب من النافذة.. قلبه ينبض بقوة، وأقدامه تخطو بحذر على
الأرضيّة المتربة..
خششش...

يتجمّد فى مكانه.. يحاول أن يخترق ظلام القاعة ببصره.. تمر الثوانى..
عيناه تتعوّدان الظلمة و..
خششش...

بصعوبة هذه المرّة يميّز الجسم الأسود الصغير ذو الذيل الطويل
يزحف مبتعداً بين الماكينات.. يتنهد.. يتحرّك ليقف بجوار جسم
الغلاية الكبرى.. يجلس القرفصاء.. يضع الصندوق أمامه.. ينظر إليه
بتمعّن..

- عبوة ناسفة..

- بتقول إيه يا حاج؟..

- (يتنهد بصبر): أقول عبوة ناسفة..
١١٧

-

- إيه سكتّ ليه..؟..

- عايز تنسف المصنع يا حاج..؟.. طب ليه..؟.. دى فلوسك..

- (يضحك): أنسف المصنع..!! .. يخرّب عقلك يا (نعمان).. هه هه..

- آمال إيه..؟..

- مصنع إيه اللى هانسفه بحتّة عبوّة زى دى..؟..!! دى يادوب آخرها توقع بياض حيطّة..

- وسعادتك عاوز توقع بياض حيطان المصنع..؟..

- (يضحك): هه هه هه هه هه هه..

-

- هه هه.. إسمعى بس.. أنا هاشرح لك كل حاجة..

- زى ما قلت لك يا أخ (نعمان).. مش أنا اللى يضحى بولاد بلده وياكل حقوقهم.. ده النبى صلى الله عليه وسلّم قال (أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه).. ورغم إن الحكومة هى اللى كلت حقوقكم، إلا إني ألزمت نفسى بيها..

بس برضه زى ما قلت لك.. قيمة الأرباح والمكافآت المستحقة ليكم عن السنين اللى فاتت تزيد عن عشرين مليون جنيه.. وصعب عليا أوى ف المرحلة دى إني أسدد مبلغ زى ده.. والأصعب إني أقنع الشركاء الأجانب بالسداد أصلاً.. وعشان كده فكّرت ف فكرة كويّسة أوى..

كل يوم بيمرّ والإضراب مستمر.. باخسر فلوس أكثر.. وبالتالى دفع المستحقات هاتأخر أكثر.. فالحل إن الإضراب يخلص عشان عجلة الإنتاج تدور ونعوّض الخسائر وابدأ فى السداد.. بس إخوانا العمال رافضين إنهم يفصّوا الإضراب.. واكثر من مرّة أخونا الباشمهندس (عادل) والأستاذ (حسين مغاوري) حاولوا يقنعوا الرئيس (حمدى) بالحل ده، لكن كان متعنّت جدّاً.. ورفض أى حل غير إننا نسدد المبالغ فوراً.. وده طبعاً ف الظروف دى مستحيل.. ده غير إنه لوى دراع.. وأنا محدش يلوى دراعى..

العبوّة الناسفة دى تأثيرها محدود جدّاً.. يعنى مش هاتسبب أى أذى

لأى حد.. بس انفجارها هيسمح لقوّات الأمن إنها تدخل المصنع
وتفرض الإضراب بالقوّة.. لأن كده بقى فيه تهمة إتلاف ممتلكات خاصة..
وبمجرّد ما الإضراب ينتهى.. هابدأ صرف دفعات من مستحقّات العمال
تزيد مع زيادة إنتاج المصنع.. وربنا يكرم إن شاء الله..

لم يتمالك نفسه.. هب واقفًا..

- إنت فاكرنى إيه..؟..

- (بغضب): إيه ده يا أخ (نعمان)..؟.. إنت اتجننت..؟..

- (ثائرًا): بلا أخ بلا اخت.. وعمّال تقوللى قال الله وقال الرسول..؟..

روح يا شيخ الله يخرب بيتك..

- أقعد بس و اسمع..

- أسمع إيه و أتيل إيه..؟.. عايزنى نخون زملاق ونوديهم ف داهية

وتقوللى أسمع..؟..؟.. ياخى (أ...).

- مين قال هايروحوا ف داهية..؟.. بالعكس.. دانت كده بترحمهم م

العذاب اللى هما فيه..

- إنت شايفنى داقق عصافير..؟..!!.. بقى لمّا البوليس ييجى يمسكنى

آنى والرّجالة ويرمونا ورا الشمس.. بقى كده بترحمهم م العذاب..؟.. يا

راجل خاف ربنا..

- مانتّ لو قعدت وسمعت هاتفهم..

- مش عايز نفهم.. آنى ماشى..

- (بسرعة): بمجرّد ما الإضراب ينتهى انا هاسحب البلاغ اللى هاقدمه

ضد العمّال باتهمهم فيه بإتلاف الممتلكات.. أقسم بالله العظيم

ماهاييتّوا ف الحجز أكثر من ليلة أو ليلتين بالكثير.. وبعدها هايخرجوا

ويرجعوا شغلهم تانى ويصرفوا مستحقّاتهم.. أما انت فالبوليس مش

هايقرّب منك من أساسه.. أنا ليّا علاقات كويّسة ف الداخلية.. وهاوصّى

إن محدش يتعرّض لك..

- ولا نصدق حرف م اللى بتقوله..

- (يعقد حاجبيه): عيب أوى لمّا تكذبنى يا أخ (نعمان).. أنا مش عيّل

صغيرّ عشان أدّى كلمة وارجع فيها.. وبعدين عمّال المصنع دول ولادى..

شفت قبل كده أب بيفرط ف ولاده..؟..
يدخل (حسين مغاوري) في هذه اللحظة ممسكاً بهاتفه المحمول في يده..

- أنا لسه قافل مع المستشفى دلوقت.. العملية بكرة إن شاء الله..
ومنتظرين الست جماعة الاسطى (نعمان) النهاردة عشان يعملولها التحاليل والتجهيزات قبل العملية..
أشار له الحاج (صالح) قائلاً بحزم:
- روح انت استئى الأخ (نعمان) ف عرييتك عشان توصل معاه وتنقل جماعته المستشفى دلوقت..
- أمرك يا حاج..

قالها وانصرف، في حين التفت الحاج إلى (نعمان) وناولوه رزمة من الأوراق النقدية، قائلاً بهدوء:
- خد دول يا أخ (نعمان) علشان المصاريف.. دول طبعاً غير فلوس العملية اللى (حسين) هايسدها كلها وانتوا واقفين.. إتفضل انت دلوقت خلّص موضوع جماعتك واطمئن عليها.. وبعدين تاخذ الصندوق وتعمل اللى اتفقنا عليه..
حاول (نعمان) أن يعترض، ولكن تآذله هذه المرة كان واضحاً، فدرس الحاج النقود في يده قسراً وقال:

- أنا حلفتك إني هاسحب البلاغ، وإن الرجالة مش هايقعدوا ف الحبس غير يوم والا اتنين بالكثير إن شاء الله.. بعد كده يرجعوا الشغل ويصرفوا مستحقاتهم.. ومش كده وبس..
ومال نحوه مستطرداً: - دانت هاتبقى الرئيس الجديد بتاعهم..
تتم (نعمان) بكلماتٍ غير مفهومة لم يكثر لها الحاج وقد تيقن من فوزه في معركة الإغواء، ف جذبته من ذراعه قائلاً:
- تعالى بقى أما أعلمك تشغل العبوة ازاى..

فتح الصندوق.. أخرج العبوة.. تأملها فى الضوء البسيط القادم من الفرجة أسفل البوابة القريبة.. إناءان مملوءان بسوائل مختلفة متصلاان بصمام معلق به ساعة ميكانيكية بسيطة ..

براعة راح يثبت العبوة بجسم البوابة.. مدّ أصابعه إلى ذلك الزر بجانب الساعة ليضغطه.. أصوات الضحك والثثرة والشتائم البيضية القادمة من الفناء الخارجى لا تقطع.. تصلّبت أصابعه في الهواء.. شعر بوخز في قلبه.. إستعاد ذهنه صور رفاق عمره وزملائه.. لثوان ظل جامداً فى مكانه والذكريات تتوالى أمام عينيه.. للحظة قرر أن ينهض حاملاً العبوة ليعود بها إلى الحاج (صالح) فيلقبها في وجهه.. أو لربما فجّرها في فيلته.. غير أن مشهد زوجته الممددة على فراشها وقد هزل جسدها واصفرّ وجهها وامتلأ بالآلم.. هذا المشهد قفز أمام عينيه لينازع بقيّة الذكريات.. تقلّصت ملامح وجهه إزاء هذا الصراع الدائر في أعماقه.. إرتعش جانب فمه.. لمعت عيناه بالدموع..

لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..

خمسة عند الدخول و الباقي بعد العمليّة إن شاء الله ..

الدقائق تمرّ.. الموعد المتفق عليه يقترب..

خد دول يا أخ (نعمان) علشان المصاريف.. دول طبعاً غير فلوس

العمليّة الى (حسين) هايسددها كلّها وانتوا واقفين..

هنا.. سمع صوت صرير باب الممر المؤدى إلى دورات المياه إذ يفتح

ليخرج منه أحدهم.. خفق قلبه من الرعب.. لو رآه القادم في هذا

الوضع لكانت نهايته..

ساعده الظلام الدامس على الاختفاء.. لا يدرى كيف ولا متى امتدّت

أصابعه لتضغط زر المفجر..

من مخبأه راح يراقب القادم.. هذه القامة المتينة المدكوكة والرأس

شبه الأصلح و.. إنه (عمّار).. لا بد أنّه كان يتوضأ إستعداداً لأداء صلاة

الفجر..

تحركّ مبتعداً بخفّة عندما شعر بساقه ترتطم - في الظلام - بشئٍ بارز

و..

كرييييبييك...

بيده كتم صيحة ألم كادت تفلت من فمه.. (عمّار) متوقف في مكانه..

يردد بصوت مبحوح وجل:

- ميين...؟..

تمر لحظات ثقيلة من الصمت المخيف.. بغتة تغمر الإضاءة الشاحبة المكان.. يقف شعر ذراعيه من الرعب.. يتحرّك مبتعدا وهو يعرج.. يختبئ خلف ماكينة قريية.. من بين مراوح الماكينة يرى (عمّار) يدور حول الغلاية.. يلاحظ الجسم المثبت إليها.. ينحني نحوه.. وهنا خفق قلب (نعمان) بعنف.. ألقى نظرة هلعة على ساعة معصمه.. فتح فمه ليهتف بصديقه أن يتعد عندما..

بروووووووووووم

العبوة الناسفة دى تأثيرها محدود جداً.. يعنى مش هاتسبب أى أذى لأى حد..

لوهلة.. توقف الزمن بالنسبة له.. طنين غريب ملأ أذنيه، وحجب عنهما أية أصوات.. سحب الغبار تملأ القاعة.. ورغم ذلك فآلسنة النيران تبدّى بوضوح من بينها.. زحف بوهن على أطرافه الأربعة نحو الجسد النازف الممدد أمامه.. الغبار يملأ أنفه و فمه.. يسعل.. يرى أشخاصاً يهرعون نحوه.. يلتقون حوله.. يميّز وجوه وأجساد زملائه.. يسمع كلامهم وكأنه قادم من أعماق سحيقة..

- إيه اللى جرى..؟..

- هيببييه (شهقة)..

- (عمّار).. (عمّار)...

- لا حول ولا قوّة إلا بالله..

- ياخوانّا ده لسه عايش..

- حد يطلب الإسعاف ياخوانّا..

عيناه مثبتتان على جسد (عمّار) المسجى أمامه.. السجّاحات تملأ وجهه وجسده.. النيران مشتعلة في ملابسه (قبل أن يطفئها الرجال).. وذراعه.. ذراعه ممزق مهترئ تماماً.. الدماء تتدفّق منه بغزارة شديدة.. (عاشور) يمزّق قميصه بهيستريا.. يحاول أن يربطه حول ما تبقى من

الذراع ليووقف النذف.. لو أراد الله وعاش (عمّار)، فسيفعل بذراع واحدة.. لقد صار أكتعاً..

- (عمّار).....

لم يدر بنفسه إلا وهو ينفجر في البكاء والعيول كالشكالي.. يلقى بجسده على جسد رفيق عمره.. يصرخ باسمه مراراً.. الرفاق يحاولون إبعاده ولكنّه يتشبّث به بكل قوّته..

هتف (طحلاوي) وهو يحاول شدة:

- يا (نعمان) حرام عليك الرجل كده هايموت منك..

- (عمّار).....

يسمعهم يتساءلون بحيرة عمّا حدث.. ينظرون بدهشة إلى جسم الغلاية الّذي تفحم و تناثرت أجزائه بفعل الانفجار.. ترى هل سيعرفوا؟.. ولو عرفوا.. ماذا سيفعلون بي..؟.. و(عمّار)..؟.. هل سينجو..؟.. هل سيسامحني..؟..

- (عمّار).....

الرئيس (حمدي) ينحنى على الأرض.. يلتقط شيئاً ما.. يتفحصه.. يرفعه أمام الأعين المذهولة..

- ساعة..؟؟!!!!..

كذا تسأل أحد الرجال..

- إيوة ساعة..

- بس الغلاية ماكانش فيها ساعات..!!..

نهض الرئيس (حمدي) قائلاً بحزم:

- الساعة دي كانت متركبة ف القنبلة الى خربت الغلاية..

ساد الوجوم بين الجميع عقب قوله لثوان، قبل أن يردد أحد الرجال بذهول:

- قنبلة..؟؟!!!!..

وتساءل (عاشور):

- مين الى هايركب قنبلة ف الغلاية..؟.. وليه..؟؟!!!!..

لم يكذب يتم تسأله حتى أدرك الجميع الجواب..

أدركوه عندما سمعوا أصوات الصيحات القويّة القادمة من الخارج..

عندما رأوا الأردية السوداء والأحذية العسكرية الثقيلة تملأ القاعة والمصنع كله..

عندما هوت الهراوات وكعوب البنادق على رؤوسهم وأجسادهم..
عندما لطخت دمائهم جدران القاعات التي أفنوا فيها أعمارهم..

عند هذه النقطة توقفت عن الكلام، وانخرطت في بكاء حار.. بالواقع منعت نفسي بصعوبة من البكاء أنا الأخرى.. مزيج غريب من مشاعر الغضب والشفقة والحزن والترقب يصطرع في أعماقي.. هل أخطأ (نعمان)..؟.. نعم بالتأكيد.. ولكن.. يسهل على إطلاق الأحكام بينما أجلس رائقة البال خالية من الهموم.. ماذا كنت سأفعل أو ستفعل أنت يا دكتور (حازم) لو كنا في موضعه..؟.. سأكون كاذبة لو قلت أنني لن أخون.. لا أدري.. لقد فقدت زوجي وطفلي.. وأفهم جيداً ذلك الشعور بالعجز وأنت ترى أحبائك يغادرون الدنيا، وأنت واقف تنظر بلا أدنى قدرة أو حيلة.. لقد أحكم السفلة حصارهم حوله حقاً، واستغلوا حاجته ومرض زوجته أقذر استغلال..

لم يقض وقتاً طويلاً في الحجز.. قبل أن ينتصف اليوم.. تم إخراجه من الزنزانة.. وجد (حسين مغاوري) ينتظره في غرفة البك الضابط.. غادر القسم معه، واستقلا سيارته..
- طب وبقية الرجال يا (حسين) بيه..؟..
- الليلة هايباتوا في بيوتهم إن شاء الله يا (نعمان)..
- طب وماخرجوش معنا ليه..؟..
- مش بالسرعة دي يا أخی.. الحاج (صالح) الله يكرمه كلّم معارفه علشان يخرجك انت دلوقت حسب اتفاقنا علشان تروح تشوف مراتك في المستشفى.. ألف مبروك على فكرة..
- (تتلاحق أنفاسه): هي.. العملية.. الـ؟..
- (مبتسماً): حصل.. أنا لسة مكلّم المستشفى.. الدكتور (هشام مذكور) طمّنى إن العملية تمت بنجاح.. والمداام دلوقتي فد غرفة الإنعاش..

- (تطفر الدموع من عينيه): الحمد لله.. الحمد لله..
- ألف حمد لله ع السلامة يا (نعمان)..
- (بتأثر): الله يسلمك يا بيه.. كتر ألف خيرك وخير الحاج.. (ثم بقلق).. بس بقية الرجالة.. هايخرجوا إمتى؟..
- سيب الموضوع ده علينا احنا بقى.. المهم انت دلوقت تروح تطمن على الجماعة ف المستشفى.. الحاج مسدد المصاريف كلها لغاية مالدكاترة يكتبوا لها على خروج.. وطبعاً مش محتاج اقوللك إن إتفاقنا لازم يفضل سر محدش ياخذ خبر بيه..

مضت الأيام دون أى خبر عن الرجال.. إطمأن إلى خروج زوجته وعودتها بأمان إلى دارها.. حاول مراراً الإتصال بـ (حسين مغاوري) على هاتفه المحمول دون رد.. إستقل توك توكاً إلى البز القبلى.. وجد بؤابة المصنع مغلقة.. دار حول السور.. تمكّن من التسلل عبر فتحة يعرفها جيداً.. المصنع خال تماماً.. ليس به صريخ إبن يومين كما يقولون.. الماكينات محترقة تماماً.. ليست الغلاية الكبرى فقط.. الكل محترق.. بعضها ملئ بثقوب طلقات البنادق..

أقسم بالله العظيم ماهاييتوا ف الحجز أكثر من ليلة أو ليلتين بالكثير.. وبعدها هايخرجوا ويرجعوا شغلهم تانى ويصرفوا مستحقاتهم..

ها قد مضى إسبوعين يا حاج.. لم يخرج الرجال من محبسهم، ولم يعودوا إلى أعمالهم كما أقسمت.. هل تراجعت عن وعدك أم أنك كنت تلعب بي من البداية؟..

أثار خاطر جنونه.. غادر المصنع، وهرع ليستقل أول ميكروباس إلى (العجمى).. ظل يطرق البوابة الخارجية لفيلا الحاج (صالح) بعنف حتى خرج إليه حارس ملتج ضخم الجثة صاح به:

- إيه الدوشة اللى إنت عاملها دى يا أخينا انت؟.. عاوز ايه؟..

قال بصوت متهدج من المجهود والإنفعال:

- عاوز نقابل الحاج (صالح)..

- (بخشونة): الحاج مش موجود دلوقت.. إبقى تعالى وقت تانى..
- نستتوه لما يعاود..

- مش هايعاود النهاردة.. ده مسافر ومش راجع قبل شهر..
- مسافر فين؟..

- مش شغلك.. واتفصل بقى وزّينى عرض كتافك..
- آنى مش ماشى من هنا غير لما نقابله.. آنى عارف إنّه جوّه.. ولازمّ
ندخله..

- (بغضب): لالا.. إنت باين عليك الذوق مش نافع معاك.. (يدفعه
أمامه) .. ياللا غور من وشّى قبل ما أطلبلك البوليس..

«نسألك يا من هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك
القدوس السلام المؤمن المهيمن العـ».

نظرت إلى شاشة هاتفى المحمول.. أشارت لى (إخلاص) لأقف فى الشرفة
الضيقة للحصول على استقبال أفضل للصوت ففعلت..

- خيراً يا (ميخائيل)..

- الأستاذ (أنسى فيلمون) من توكيل (قى بى كلاسيك) إتصل بى يا ريسة
منذ دقائق.. يريد إستغلال برنامجنا الجديد فى بث دعاية إعلامية
لمنتجاته..

- لماذا لم يتصل بالمحطة؟..

- (بلهجة خاصة): الرجل قريبى يا ريسة، ويريد عمل بعض البيزنس
بعيداً عن المحطة.. أنت تعلمين أنّ أحد شروط التعاقد بيننا وبين
المحطة هو حصولها على النسبة الأكبر من أى تعاقد على مواد إعلامية
ودعاية نجلبها للبرنامج و..

- هذا كلام لا تصلح مناقشته على الهاتف أيّها الذى.. مّر علىّ فى
المكتب عند عودتك لتناقش..

- أمرك يا ريسة..

- كيف أخبار العمل؟..

- تمام..

- لا تنس أن تتصل بى فى حال حدوث أى شئ..

- بالتأكيد..

أنهيت المكالمة وعدت إلى (إخلاص)..

- آنى طبعاً كنت ف حال غير الحال.. فـد يوم من دى الأيام لقيته داخل علياً يقوللى يالا هاتدخلى المستشفى وتعملى العمليّة.. منين يا (نعمان) يرد ويقوللى ربنا مايسيبش حد.. ماخيش عليكى يا ست هانم.. آنى كانت حالتى صعبة أوى.. ماناكتش معاه كثير.. رحت المستشفى اللى فـ (سموحة).. نضافة إيه وأبهة إيه.. المهم.. عملولى العمليّة.. فقت لقيت (نعمان) جنبى.. والداكتور يقوللى مبروك.. قعدنا أد ما قعدنا فـ المستشفى ورَجَعنا البيت..

- وف الفترة دى ما جابش سيرة اللى حصل فـ المصنع..؟..

- مرّة واحدة سألته عملتوا إيه فـ المصنع يا (نعمان) ، فرد علياً وطمّنى إن الإدارة وافقت تصرف للعمّال حقوقهم..

- ولما رجعتوا البيت..؟..

- لما رَجَعنا وابتديت نفوق لنفسى، لاحظت إن حاله اتقلب.. سرحان ومهموم على طول.. ساكت مايتكلّمش، واللّمة بياكلها بالعافية.. ويطلّ ينزل الشغل.. فصّلت وراه إبنى نعرف ماله.. مفيش فايده.. قاللى إتنه مربوط مع الرئيس (حمدي) على أجازة كام يوم كده لغاية ما يطمّن علياً.. قلت له طب آنى عايزة نزور (محفوظة) مرات (عمّار).. زى ما يكون شاف عفريت.. إتجنن وزعق فيّا.. ليه يا (نعمان)..؟.. ضرب لخمّة.. ماعرّفش يرد.. وبعدين راح قايللى هيّا يعنى كانت جت سألت عليكى وانتي فـ المستشفى..؟.. الخلاصة علشان ماطولش عليكى يا ست هانم.. جه فـد يوم وخرج.. غاب طول اليوم.. ورَجَع العشا مضروب وعينه وارمانّة.. إتحصّيت.. مين اللى عمل فيك كده ياخويا..؟.. قاللى الحراس اللى فـ فيلا الحاج (صالح) صاحب المصنع.. وفجأة لقيته بيعيط زى العيّل الصغير، وحكى لى ع اللى حصل فـ المصنع، والاتفاق اللى كان بينه وبين الحاج (صالح) ربنا ينتقم منه..

- يعنى ماعرّفش يقابل صاحب المصنع..

- لا صاحب المصنع ولا الكلب اللى اسمه (حسين مغاورى).. ومن ساعتها وهو بعيد عنك راكباه العفاريّت.. طول ماهو قاعد بيكلّم

نفسه.. عمّال يستسمح فـ زملاته.. جبت له الشيخ (ابراهيم) رقاها وبخره
مفبش فايده.. لغاية ما فـ يوم خد فـ وشّه وهج م البيت..
- راح فين..؟..

إنهمرت دموعها من جديد وهى تقول:
- سارح فـ الشوارع بيكلّم نفسه.. يفضل طول النهار يلف بحرى
على رجليه.. ينده على (عمّار) و(عاشور) والرّيس (حمدي).. وييجى
آخر الليل ينام فـ أى حُتّة.. ناس كتيرة شافوه وحاولوا يرجعوه بيته
ماعرشوش..

قالتها وعادت تبكى بحرارة.. فى هذه المرّة لم أستطع أن أمنع نفسى..
أخرجت منديلاً ورقياً من حقيبتى وأنا أهبط درج البناية.. مسحت
دموعى وارديت منظارى الشمسى، بينما كلماتها الضارعة تتردد فى
ذهنى:

- سايقة عليكى النبى يا ست هانم.. لو تعرفى سكة تخرّجى بيها
الرجالة من حبسهم من غير ما تحببى سيرة (نعمان) يبقى كتر خيرك..
كفاية اللى صابه.. داحنا غلابة واتلعب بينا والله..

الله أكبر.. الله أكبر..
جغرافياً يقع جامع (القائد إبراهيم) فى حى (الأزاريطة)، ولكنّه ارتبط
عندى بـ (محطة الرمل) المجاورة له.. وكالعادة يسبق جميع مساجده
فى تلاوة الأذان..

برغم أنّ الساعة لم تتجاوز الثالثة عصراً، إلا أن الشمس كانت محجوبة
تماماً بغطاء كثيف من الغيوم الرمادية.. غيث خفيف بدأ يتساقط من
السماء.. من الواضح أنّها نوء عنيفة بالفعل..
أشهد أن لا إله إلا الله..

واقفة على الكورنيش أدخن سيجارة.. سرحت قليلاً وأنا أتأمل الأمواج
العالية، ومراكب الصيد من بعيد تجاهد للعودة إلى الميناء قبل أن
تشدد العاصفة..

أشهد أنّ محمّداً رسول الله..
برغم نُذر النوء إلا أنّ شارع البحر المبتل مكتظ بالسيّارات والمارة

والباعة الجائلين وأسراب العشاق المتناثرين على سور الكورنيش..
نداءات الباعة والميكروبسات لا تتوقف.. بينما على الجانب الآخر من
الطريق تتراص الكافيتريات السياحية أسفل البنايات القديمة رائعة
المنظر المنتشرة على طول الكورنيش..
حتى على الصلاة..

لَکَم عشقت هذا المشهد الملحمى الرائع الذى تمتزج فيه الأصوات
بالألوان والروائح والرياح المتطاير القادم من البحر.. لوحة نادرة
تأملتُها مراراً وحدي وبصحة (مجدى) أثناء خطبتنا وبعد زواجنا.. كان
مصوراً عاشقاً للجمال، وكان يرى أن عشرات الصور والكادرات لا تكفى
لإبراز روعة ميدان (سعد زغلول) والكورنيش المواجه له..

- ليس الموضوع تناسقاً للألوان أو النسب.. إنَّه سر يكمن في روح المكان
ذاته.. الروح التى تتداخل فيها الألوان والأشكال والأصوات والوجوه
والأغاني وزخات مياه البحر ورائحة اليود.. الروح التى تحمل تاريخاً
طويلاً وذكريات قديمة مطبوعة على الأرض والبحر والهواء.. إنها
الحياة..

كذا سمعته يردد ذات يوم بينما نحن مستندين إلى سور الكورنيش
نلتهم حبات الترمس أو سندويتشات الفول و الفلافل من (محمد
احمد)..

- الأمر يفوق قدرة أى مصوّر أو رسّام أو كاتب.. فقط كاميرا السينما
هى التى تستطيع إحتواء هذا الزخم من الجمال..
حتى على الفلاح..

كنت مبهورة بهذا المزيج العجيب من الشاعرية والواقعية في شخصيته..
فتارة هو الفنّان الرقيق الحساس.. وتارة هو الصحفي الجاد قوى
الشكيمة والذى يقود كتيبة كاملة من الصحفيين في الجريدة بقبضة من
حديد.. في الواقع كانت هذه الروح هى التى جعلتني أنجذب إليه أثناء
المرحلة الجامعية، وأذكر أنّ نوعاً من التنافس على قلبي إشتعل بينه
وبين (بشير الهلالى) طالب الحقوق الشاب، وصاحب الميول السياسية
الناصرية التى جلبت على رأسه الكثير من المشاكل.. كلاهما شاب
ومتحمّس وصاحب شخصية جذابة -على اختلاف ميولهما- وفوق كل

ذلك كانا يحباني.. غير أنني وجدت نفسي -في النهاية- أميل إلى (مجدى)
الفتان صاحب الروح المرفهة.. دعك من أن (بشير) كان يغادر المعتقل
ليعود إليه مرةً أخرى، وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن
التسع سنوات..

- أنت تملك الحماس والإخلاص يا (بشير).. ولكنك تسلك الإتجاه
الخاطئ..

فيسأله (بشير) محنقاً ولكنته الريفية قليلاً:

- كيف ذلك أيها الفيلسوف..؟..

يتجاوز (مجدى) أسلوبه العصبي ويجيب بهدوء:

- الثورية التي تنادى بها دوماً في الندوات والمقالات لن تؤدي إلا إلى
فوضى مدمرة.. المجتمع المصرى الآن محتقن بالفعل لأسباب لا تخفى
على أحد، ونُذر الانفجار تتوالى، والثمن سيكون دموياً بحق.. فهل
نسعى مع كل هذا إلى التعجيل بالكارثة، أم نبذل جهودنا لتلافيها..؟..
- (بسخرية عصبية): وماذا تقترح..؟..

- (يرفع سبابته): لا حل سوى الإصلاح.. الإصلاح من أسفل إلى أعلى..

- (بحدة): وأنا أقول لك أن الإصلاح غير وارد طالما الفاسدين والصوص
والحثة على كراسيهم ويمسكون بالبلد من عنقها.. ألا تعلم أيها
العبقري أن تنظيف الدرج يبدأ من الأدوار العليا إلى الأدوار السفلى..؟..
- (بهدوء): وبناء الهرم يبدأ من القاعدة إلى القمة.. لا تنس ذلك..

الله أكبر.. الله أكبر..

بعد رحيله.. كنت كثيراً ما أترك سيّارتي وأستقل الترام كما كنّا نفعل،
لأقف بالساعات في ذات الموضع.. أغوص بكيان كله في ذكريات الماضى
الدافئة.. أكاد أراه أمامى يرفع يثبّت الكاميرا إلى الحامل الخاص بها.. أو
يرفع أصابع يديه أمام وجهه مستخدماً إبهاميه وسببائيه كإطار ليحدد
به كادراً ما أثار إعجابه.. أسمعه يهمس في أذنى بكلمات دافئة يخفق لها
قلبي، بينما أصابعه تحتضن أصابعى.. و.. و..

تسألنى لماذا قَدِمْتُ إلى محطة الرمل يا دكتور (حازم)..؟.. لأقابل
الريس (فتح الله) بالطبع..

وضعت الفتاة الشابة صينية القهوة على المنضدة أمامى قائلة
بتهديب:

- إنفضلى ..

- (مبتسمة): شكراً..

- العفو..

- متشكرين يا (عزة) يا بنتى..

قالها الرئيس (فتح الله) شاكراً وهى تنصرف، ثم التفت إلى ونهض
يناولنى الفنجان الذى يتصاعد منه البخار زكى الرائحة قائلاً:

- من ساعة ما حصل الى حصل وأنى مش قادر نورى وشى للناس..

شكرته وتناولت رشفة من القهوة متسائلة:

- ليه يا رئيس (فتح الله) ..؟..

جلس على المقعد المقابل لى قائلاً بمرارة:

- لأنى طلعت رئيس كرودية.. رئيس هفأ.. خدتنى المريسة وازاى وازاى

بقى نسمعوا كلام (حمدي) واللا (عاشور) واللا أى حد من العمال الى

أنى رئيس عليهم ..؟.. وسبت شوية ولاد كلب يلعبوا بيّا وباللى خلفونى

الكورة..

- يعنى العمال ف المعتقل دلوقت يا حاج..؟..

- ربنا يفك أسرههم..

- أئى معتقل بالظبط..؟..

- الله أعلم..

وصمت لحظة ثم استطرد:

- عارفة يا بنتى أنى إيه أكثر حاجة مزعلانى..؟.. إنى من بعد ما عرفت

إن اللجنة النقابية إتخلت عئاً جالى الضغط ودخلت المستشفى وكئت

هانروح فيها.. كانوا إخوانى وزمايلى عاملين الإضراب ف المصنع ومطلعين

عين أم الإدارة، وأنى راقد ع السريير مشلول مش عارف نتحرك.. مش

عارف نروح لهم ونفضلو معاهم ف وقفتههم..

وعاد يصمت للحظات ليلتقط أنفاسه.. إرتشفت من القهوة، وتأملت..

كهل فى الستين من عمره.. شارب أبيض كث.. التجاعيد تملأ الوجه..

جلباب بسيط فوق جسد نحيف.. أما العينين فباهتتين مغرورقتين

بالمذموم..

- أنى حاولت نسأل فـ مديريّة الأمن.. الظابط الكبير الى هناك شتمنى وقاللى الموضوع كبير واحسن لى أبعد واربى عيالى بدل ماتلط..

.....

- إلا يا بنتى ماتعرفيش نكلّمى لنا حد نعرفو منه خدوا الرجاله على فين..؟.. دى حالة أهاليهم تصعب ع الكافر..

- (متجاهلة سؤاله): طب وقابلت (نعمان) إمتى..؟..

إلتقط نفساً عميقاً وقال:

- (نعمان) غاب مع الى غابوا.. شهر كامل مانعرفش عنه ولا عن زملائه

أى حاجة.. لغاية ما لقيته جاي لى البيت.. فَرَحْتُ.. خدته فـ حضنى..

سألته خرج إزاي وان كان لوحده والا معاه بقية الرجاله.. قعد ييكى..

إيه الى جرى يابنى..؟.. حكى لى الحكاية الطويلة الى سيادتكَ عارفاه..

إستنيته لما خلّص حكايته.. وتقيت ف وشّه وضربته قلمين، وطرده..

كنت هنتجّن.. بقى انت يا كلب يا وسخ الى ضيّعت زملائك الى

طول عمرك آكل شارب نايم معاهم.. لا حول ولا قوّة إلا بالله.. بينى

وبينك.. لما هديت وقعدت نفكر ف كلامه صُعب عليّا.. ولاد الكلب

عرّفوا يستغلّوا عيا مراته ويضحكوا عليه.. ومين عارف لو آنى أو أى حد

م الرجاله كُنا ف مكانه كُنا هانعملوا إيه..

- بس مين الى حرق باقى مكن المصنع..؟.. مش الإدارة طلبت منه

إنه ينسف غلاية واحدة بس..؟..!

لم يجب.. نهض إلى بوفيه خشبى عتيق جداً.. فتح أحد أدراجـه

وأخرج منه صحيفة مهترئة.. تناولتها منه.. عدد قديم هو من صحيفة

(الجمهورية).. وجدت دائرة مرسومة بقلم حبر أحمر على أحد

الموضوعات..

- هذا وقد أكّدت التحقيقات أنّ التخريب الذى قام به العمال

المتمرّدون قد شمل جميع ماكينات وأجهزة المصنع باعتراف العمّال

أنفسهم وذلك كنوع من الضغط على إدارة المصنع لإجبارها على صرف

بعض المستحقات الماليّة التى يرونها -العمّال- من حقهم.. وأعلن

السيد (مراد شلبى) مدير التحقيقات بشركة (مصر للتأمين) أنّ فريقاً

من موظفى الشركة يقوم بعمل حصر للخسائر والأضرار التى أصابت
الماكينات توطئةً لتقدير مبلغ التأمين المستحق، الذى ستمنحه الشركة
لملاك المصنع..

تساءلت بدهشة :

- الإدارة هى اللى حرقت المكن؟؟!!..

- ولاد الكلب الحرامية ضربوا عصفورين بحجر.. إتخلصوا م الغلابة
الى بيطالبوا بحقوقهم ، وهبروا مبلغ التأمين..

- بس همّا كده بيخسروا كتير.. لو حاولوا يبدأو من جديد هيالقوا
أسعار المكن إرتفعت جداً ومبلغ التأمين ممكن مايغطيهاش..

- ويبدأوا من جديد ليه..؟؟.. ما خلاص كدة المصلحة خلصت..

- إزاي..؟؟..

- هوّا ده بقى العصفور التالت..

- عصفور..!!!..

- إيوة يا بنتى.. الشركا المصريين والأجانب لمّا اشتروا المصنع م
الحكومة، خدوا معاه إعفاءات ضريبية وجمركية لمدة عشر سنين
يخلصوا بعد ٣ شهور.. فضلوا يشتغلوا ويصدروا ويكسبوا طول الـ
٩ سنين الى فاتوا من غير ما يدفعوا مليم للضرائب والجمارك.. ولمّا
مدة الإعفا قربت تخلص خلاص فكروا انّهم يخلعوا م الموضوع كلّه
بدل ما يدفعوا فلوس أد كده للحكومة.. وجت لهم حكاية العمّال ع
الطبّطاب..

والتقط نفساً عميقاً ثمّ أضاف:

- دلوقتى يقدرّوا يخلعوا بالأرباح الى حقوقها ومبلغ التأمين زى
الشعرة م العجين..

- (بذهول): معقولة..؟؟!!.. طب فين الحكومة والنيابة والتحقيق..؟؟!!..

- (بسخرية مريرة): خبر ايه با بنتى..؟؟.. هو انى برضه الى هانقولك..؟؟..
ما حضرتك أكيد عارفة إن الحكومة مش نائمة على ودانها وعارفة كل
حاجة.. بس الدنيا م صالح يا عم صالح..

سألته وأنا أتأهب للانصراف:

- تعرف الباشمهندس (أحمد خشبة) يا حاج (فتح الله)..؟..
- (يصمت للحظات): مش واخد بالى ولامؤاخذه يا ست هانم.. ده كان معانا ف المصنع..؟..
- لا.. ده مهندس معمارى مش ميكانيكى..
- (بعد تفكير): لا والله يا بنتى مافتكرش إني نعرفه.. أصلى آنى طول عمري م البيت للمصنع وم المصنع للبيت.. ومنعرفش حد غير زملاق اللى ف المصنع ربنا يفك أسرهم..

إنه الغروب.. أعلم أنك تأخرت كثيراً، ولكنني لا أطلب منك سوى ساعة أخرى يا صديقي.. لا تقلق.. طبعاً سأسعد كثيراً لو شرفتني بالمبيت في منزلي المتواضع، ولكنني لا أريد أن أسبب لك أية ضغوط أو مشاكل.. القارب الذي أقلك من (الإسكندرية) إلى هنا موجود وجاهز ليعيدك إليها متى شئت..

لا أخفى عليك.. في أول جلساتي مع الباشمهندس (أحمد خشبة) لم آخذ أمره مأخذ الجد.. فقط جلست منصتاً إليه مجاملةً لابنتي (آية) التي طلبت مني أن أفعل بناءً على طلب معيذتها السابقة مدام (أمل الشافعي) كما سمعت منذ قليل على التسجيل الصوتي.. في البدء بدا لي شاباً عابثاً يبحث عن إثارة لم تمنحه إياها ثروة والده.. وفي أعماقي كنت أنوى إلقاء الموضوع خلف ظهري بعد انتهاء أول جلسة.. غير أن القصة بدأت تشدني رويداً رويداً.. كانت على قدر كبير من المنطق.. برغم غرابة هذا المنطق..

ثم تلك التراجيديا المأساوية التي سمعتها من كليهما - (أحمد) و (أمل) - عن تمرّد العمّال والمؤامرة القذرة التي انتهت بهم إلى المحاكمة العسكرية فالمعتقل ولا شيء سواه.. كل هذا يصعب أن يكون مجرد تلفيق على سبيل الدعابة مثلاً أو قتل وقت الفراغ..

إنتابتني حيرة شديدة إزاء هذه القضية الغامضة.. برغم أن عملي الفعلي هو الطب النفسي، إلا أنني أعتبر التحليل النفسي هو عشقي الأول والأخير.. أجد متعتي في ممارسته والتنقل بين أساليبه ومدارسه المختلفة.. ورغم قلّة عدد الحالات التي مارست معها أساليب التحليل النفسي، إلا أنني أزعمر أنّها أكسبتني خبرة لا بأس بها في هذا المجال.. عندما سمعت القصة للمرّة الأولى من (أحمد)، فكّرت في أنّ الأمر لن يعدو كونه وساوس.. صحيح أنّه لم يبد على الشاب أنه من النوع الهستيري المهيّا لإختلاق الأوهام.. كلامه متزن ومنطوق إلى حد كبير..

ولكن..

من قال أنَّ الهستيريا ضرورية لإختلاق الوهم..؟.. التفاعلات النفسية التي تجرى في ثنايا العقل معقدة جداً.. وأغلبها لا ندري عنه شيئاً.. هل شاهدت فيلم (fight club)؟.. لا..؟.. في هذا الفيلم عانى البطل من ضغوطٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ هائلةٍ يعاني منها المجتمع الغربي كله.. وكرد فعلٍ دفاعي.. ابتكر عقله شخصية وهمية جعله يراها أمامه رأى العين، ومنح هذه الشخصية جميع الصفات الإيجابية التي يفتقر هو إليها في مواجهة الضغوط التي يتعرض لها.. فعل عقله كل هذا دون أن يبد للأشخاص الخارجيين المحيطين به أي شيء غير عادي.. فهل ينطبق هذا فكرت- على حالة مهندسنا الشاب..؟.. وإذا كانت الإجابة بنعم، فما سبب هذه الوسواس..؟.. ولماذا برزت الآن..؟..

سألت والدته في إتصال هاتفي:

- هل عانى الباشمهندس (أحمد) من أية مشكلات أو ضغوط منذ عودته من (الإسكندرية)؟..

- (لحظات من الصمت ثم): لا.. لا أعتقد.. كنا سعداء جداً -والده وأنا- بعودته، ولم ندخر جهداً لإسعاده.. حتى عندما أراد أن يستقل بحياته وعمله، لم نقف أمام إرادته.. بالواقع لم نفعلها معه منذ مولده..

إنصبّ تفكيري لبعض الوقت على التفتيش عن أسباب اختلاق عقل الفتى لهذه الضلالات.. كان هذا قبل الجلسة الطويلة التي جلستها مع (أمل الشافعي) في مكتبي بقسم الأمراض النفسية والعصبية الذي رأسه بكلية الطب.. بلبت الأحداث الرهيبة التي سمعتها من الإعلامية الشابة كل أفكارى واستنتاجاتي.. إذن فالأمر ليس مجرد أوهام إختلقها عقل مضطرب.. هناك أرضية واقعية تسند عليها الأحلام التي يراها خلال نومه..

إذن فالسؤال هنا طبقاً للمعطيات الجديدة هو:

ما هو الظرف الزماني والمكاني والموضوعي الذي تتقاطع فيه القصتان.. قصة رحلة (أحمد) إلى (الإسكندرية) وقصة تمرّد العمال..؟..

سؤال بلا إجابة.. لأنّ الفتى لم يذكر لقائه بأي من أطراف القصة الثانية، بل على العكس نفى ذلك نفيّاً قاطعاً.. وعندما سألت (أمل) الرئيس (فتح الله) -الوحيد الباقي خارج المعتقل من أطراف القصة- نفى معرفته بمن يُدعى الباشمهندس (أحمد خشبة)..

طبعاً لم أؤمن لحظة بموضوع تناسخ الأرواح هذا.. الدين والعقل والمنطق يرفضانه رفضاً باتاً.. برغم كل الأدلة التي تسوقها (أمل).. هي نفسها لا تؤمن به، ولجأت إلى بحثاً عن تفسير عملي حقيقى للحالة التي يمر بها (أحمد).. لذا كانت أول خطوة في طريق فك طلاسم هذا اللغز هي استبعاد هذا التفسير العبثي تماماً..

- مأساة حقيقية..

كذا قالت (نشوى) -زوجتي- بعد أن رويت لها قصة تمرّد العمّال والمأساة التي انتهت بها كما حكّتها لي (أمل).. سألتها وأنا أرقب قطرات المطر التي تضرب زجاج النافذة:

- ماذا ترين أن نفعل..؟..

- إعتدلت في فراشها مرددة باستغراب:

- نفعل..؟..

- أقصد ماذا نفعل إزاء ما أخبرتك به عن العمال المظلومين..؟..

- وما الذي بيدنا لنفعله..؟..

- إلتفت إليها قائلاً بتوتّر:

- أى شئ لإيقاظ الأبرياء القابعين في المعتقل.. يمكننى أن أحدث (زكريّا بك).. أنت تعلمين مدى نفوذه وما يمكن أن يفعله.. علاقتى به جيّدة جداً و..

سطع البرق في هذه اللحظة ليضى السماء المظلمة خارجاً، وانعكس ضوءه على وجهها الغاضب وهى تقاطعنى باستنكار:

- وماذا..؟.. هل ستطلب منه التدخل للإفراج عنهم..؟.. هل تتوقع أن يستجب لك إذا فعلت..؟؟!!

- بووووووووم (هزيم الرعد).. لم أردد..

- هل نسيت أن هؤلاء البؤساء تمّت محاكمتهم عسكرياً..؟.. ألا تعرف

ما هي الجهة الوحيدة التي لها سلطة تحويل مدنيين إلى المحكمة العسكرية؟؟.. وهل أنت مستعد للوقوف في مواجهة هذه الجهة؟؟.. كانت محقة بالفعل في إستنكارها وأسئلتها.. عدت أتأمل الأمطار المنهمرة بغزارة في الخارج وقلت بتخاذل:

- ولكن يا (نشوى).. هؤلاء المساكين تعرّضوا لظلم شديد.. ونحن نعلم ذلك.. ماذا سنقول لله تعالى عندما يسألنا عمّ فعلنا لرفع هذا الظلم؟؟..

أزاحت الأغطية عنها ونهضت من الفراش.. إقتربت مني ووضعت كفّها على كتفي قائلة برفق:

- يا حبيبي.. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. هذه مشكلة كبيرة.. أكبر منك بكثير.. كما أنّها لا تخصّك من الأساس، وتدخلك فيها لن يؤدي إلى أيّة نتيجة، بل على العكس سيثير غضب الكبار عليك..

إلتفت إليها.. نظرت إلى عينيها مباشرة وهي تتابع:

- لا تنس أن الانتخابات على الأبواب، وستليها حكومة جديدة.. مركز قوى.. وفرص تولّيكَ رئاسة الجامعة قوية، فلا تدع أي شيء يضيعها..

تهدّت مستسلماً، فابتسمت وهي تربّت على وجهي قائلة:

- (ضوء البرق يلتمع في عينيها): اذهب لتوضاً وتصلّي ركعتيّ قيام الليل، وسيجعل الله لك بحوله وقوته من أمرك رشداً..

بـوووووووم (هزيم الرعد)..

ليس الأمر إذن متعلّقاً بأي صورة بتلك الخرافة المسمّاة (تناسخ الأرواح).. أبسط دليل على ذلك أنّ (عمّار) إن لم يكن حيّاً يُرزق في هذه اللحظة في نزلاته، فقد كان كذلك منذ عدة أشهر مضت.. ومن البديهي أن خرافة التناسخ تقوم على عودة روح الميّت إلى الحياة مرّة أخرى في جسد قادم جديد إلى الدنيا، وليس في جسد شاب يافع مثل (أحمد خشبة).. أي أنّ الروح المتناسخة العائدة إلى الحياة- وفقاً لمنطق الخرافة- تحلّ في الجسد الجديد وهو في بطن أمه، وهو الأمر الذي يدحض التفسير تماماً لأن كلا الشخصين - (أحمد) و (عمّار) - متقاربين في العمر لو افترضنا أنّ (عمّار) في الأربعينات من عمره..

إذن ما لم يكن الأمر متعلّقاً بخرافة التناسخ، فما تفسير ما يراود
الفتى من أحلامٍ ورؤى، حدثت في الواقع بشكل يتطابق مع هذه
الأحلام..؟..

حسناً.. التفسير الذي يوفق بين معطيات هذه القضية الغامضة
ويتوافق معها -هكذا فكّرت- هو أنّ (أحمد خشبة) يمر بأزمة ضمير
حادة.. نعم.. هو ما سمعت.. أزمة ضمير..
المشكلة بدأت كالتالي:

الشاب العابث اللاهى يعثر أخيراً على هدفه الذي يبحث عنه.. يسافر
إلى (أوروبا) لتلقى العلم.. يقابل معمارياً إشتراكياً بارعاً -نسيت اسمه-
يعلمه أنّ المعمارى الحق لا يفصل قناعاته السياسيّة والإجتماعيّة عن
حرفته..

وبدونهما لا يستحق المعمارى أن يكون كذلك فعلا مهما بلغت حرفيّة
وبراعته.. ويصبح بالفعل مجرد مقالٍ كل مهمّته هى بناء أكبر عدد من
المكعبات الخرسانيّة العملاقة لحشر أكبر عدد من البؤساء داخلها..

يعود الفتى إلى وطنه مُحمّلاً بآمالٍ كبرى.. يحلم بتغيير فعلى يحقّقه
في العقليّة المعماريّة المصريّة.. يملك علمه.. يملك خطّطه.. يملك
ثقته بقدراته.. يرفض عروض والده بالثراء.. يترك (باراداييس هايتس)..
يهبط ليعيش وسط الناس في (الإسكندريّة).. على مدى أشهر طويلة
يحاول أن يحقق أحلامه.. يُصدم من الكم الهائل من الفساد و الجهل
و التخلّف المستشري في المحليات وبين الناس.. يمر الوقت ولا شئ
يتحقّق.. المشكلة أنّ الشاب تربى في مجتمع آخر، تعودّ فيه على أن
يأمر فيّجاب.. لذا فكان من الصعب أن يقنّع بالمزيد من الصبر، وبأنّ
ما تعقّد في قرون يستحيل فكّه في أشهر..

لا يا أستاذى.. لست مغاليا و لا متجنّيا.. ما تعيشه (مصر) حاليا
هو نتاج مئات السنين من القهر والذل.. لقد التوت طبيعة الناس
أنفسهم..

عاد إلى (باراداييس هايتس).. مرّ بفترة من التخبّط، ثم ارتد إلى صوابه،
وبدأ يمارس عمله من جديد بصورة أخرى..
وهنا بدأ يسمع الأنين.. بدأ يحلم بـ (عمّار) و(عاشور) و(نعمان)
والمصنّع والتمرّد و.. و..
لماذا هذه الأحلام وهؤلاء الأشخاص..؟.. ولماذا هذا التوقيت
بالذات..؟..

الجواب كما ذكرت آنفاً هو أزمة الضمير.. الباشمهندس (أحمد خشبة)
مازال في أعماق أعماقه مؤمناً بالمبادئ التي تشرّبها على يديّ أستاذه
الإنجليزي.. متأثراً بها إلى أقصى درجة.. برغم الهزائم التي تلقّاها
والفشل الذي مّنى به في (الإسكندرية) أو هكذا يظن..
من هنا نشأ صراع عنيف في أعماقه بين مبادئه التي تفتّح ذهنه عليها،
وبين رد فعله تجاه هزيمته، والمتمثل (أى رد الفعل) في تنكّره لهذه
المبادئ وإسقاطها من حساباته.. هذا الصراع المتصاعد يدور في جناب
عقله الباطن، بينما عقله الواعي لا يدري عنه شيئاً.. لذا، فإن العقل
الباطن يحاول تنبيه العقل الواعي كوسيلة لحسم هذا الصراع.. ويكون
هذا التنبيه عن طريق الأحلام التي تتاب (أحمد) أثناء نومه.. إنها
الرسالة التي يحاول عقله الباطن إيصالها إليه.. أن هناك بؤساء كثيرين
يعانون ظلماً فادحاً.. بؤساء تتجاهل أنت معاناتهم برغم مسؤوليتك
التي تؤمن بها نحوهم..

تنمو مشاعر التقزز بداخلي وتتضخم.. ومعها كانت ذكريات حياتي في
(باراداييس هايتس) تراودني فأشعر بحنين شديد إليها..
يوماً بعد يوم.. كانت فكرة محددة ترسخ في ذهني: هذا ليس مكاني..
وهؤلاء ليسوا قومي..

المرجّح أنّ الفتى عرف بقصة إضراب العمّال بشكل أو بآخر أثناء إقامته
بـ (الإسكندرية) ولكن رد الفعل الهيستيري الناتج عن إخفاقه وفشله -
من الواضح أنّ هذا الفشل شكّل له صدمة عنيفة - جعل هذه القصة
تسحب من ذاكرته المؤقّته إلى عقله الباطن الذي وجد فيها ورقة

رابحة لحسم الصراع بين الضمير ورد الفعل..
الأحلام.. الذكريات.. أصوات الأئين.. كل هذه إشارات من العقل
الباطن للصراع الدائر فيه بين المبادئ والمسئولية وبين رد الفعل
الانهزامى الذى اتخذه الفتى..
شرحت كل هذا لـ (أحمد) و(أمل) الجالسين قبالة مكتبى، فتبادلا نظرة
صامتة طويلة، قبل أن تتمتم الأخيرة مأخوذة:
- تفسير غريب حقاً..

تراجعت فى مقعدى قائلاً:
- ولكنّه الأكثر منطقية وقرباً إلى الواقع..
ونظرت إلى (أحمد) الذى لم يتفوّه بحرف منذ بدأت الكلام وقلت:
- ما رأيك يا باشمهندس..؟
هز رأسه وكأنّه يفيق من حلم جديد، وقال:

- لا أدري يا دكتور.. كلامك منطقى ومنظم، ولكننى لا أستطيع الإقتناع
بأننى لم أعش هذه الذكريات من قبل.. لا أعرف كيف أصف لك
الأمر، ولكن هذه الأحلام ليست أحلاماً عادية.. عندما كنت أحلم
فى العادة، كنت أنسى تفاصيل الحلم بمجرد إستيقاظى، أما فى هذه
الحالة فالأمر يختلف.. إننى أستيقظ مُتذكراً كل شئ.. كل التفاصيل..
كل ما أراه يلتصق بذاكرتى.. الوجوه والأصوات والروائح.. حتى فتيّات
الخراطة (لاحظ أننى لم أعمل بها من قبل).. حياة بأكملها أكاد أوقن
أننى عشتها من قبل..

تنهدت قائلاً:
- هذا لأن أحلامك كما قلت لك ليست عادية.. الحياة والتفاصيل التى
تعتقد أنّك عشتها سابقاً، رأيتها كلّها أثناء إقامتك فى (الإسكندرية)، لذا
فهى تبدو لك مألوفة.. هذا يختلف نوعاً عن ظاهرة الـ (ديجا - فو)
الشهيرة، فى أنّك رأيت التفاصيل بالفعل من قبل.. والتصاقها بذهنك
بعد استيقاظك هو نوع من الوسائل العقلية الدفاعية لحسم الصراع
النفسى الدائر فى أعماقك..

- (بتوتّر): ولكننى متأكد أننى لم أر هؤلاء الأشخاص الذين أحلم بهم
من قبل..

- أنت رأيتهم بالفعل.. ولكنك نسيت.. أنت تعلم أن ذاكرة الإنسان تحتفظ بكل ما مرّ ويمرّ به طيلة حياته، ولكن عقلك الواعى أزاح هذه الذكريات من ذاكرتك المؤقتة.. أطفأ المصباح الذى يضيئها فتوارت.. فعل هذا كي يرضى ضميرك عن تجاهلك للمآسى التى رأيتها أو سمعت عنها.. ولكن ضميرك لم يفعل، وراح يوخزك بهذه الأحلام وأصوات الأئين لتتذكر..

تساءلت (أمل) باهتمام :

- وماذا عن الكابوس الأخير..؟..

عقدت حاجي متسائلاً بدورى:

- أى كابوس..؟..

(بتوتر): منذ إسبوع كامل.. كل ليلة.. نفس الأحداث.. نفس الوجوه.. نفس النهاية البشعة.. الإحترق بين السنة النيران..

- الأمر واضح..

قلتها بحسم، فطلّعا إلى بأعين متسعة مليئة بالتوتر والفضول..

- جزء من القصة (التي تعرفها ولكنك نسيتها كما قلت لك) بالغ الشناعة.. وهو فى الغالب يتعلّق بما مرّ به (عمّار) ورفاقه عقب دخولهم المعتقل.. هذا الجزء الشنيع من القصة يحاول عقلك الباطن تذكيرك به بالطريقة العتيدة.. بالرمز.. نظراً لبشاعة التفاصيل التى قد لا تحتمل تذكّرها..

- وهل هناك ما هو أكثر شناعة من السقوط فى النار..!!؟..

- لاحظ أنّك لا تكمل سقطتك.. عقلك يقوم بإيقاظك قبل أن تفعل حتى لا تموت بالصدمة العصبية.. ولكن المخيف بالفعل هو مدى فظاعة الذكرى التى تجعل العقل الباطن يداريها ويحاول الإشارة إليها برمز مثل النيران..

قالت (أمل) بتوتر:

- الأكثر بشاعة أنّ هذه الذكريات التى يجاهد عقله الباطن لحمايته منها حدثت -ولربما تحدث فى هذه اللحظات- فى الواقع للعمّال البؤساء..

نظرت إليها بشئ من الضيق.. الواقع أنها كانت تتكلم وكأنّها تقرأ ما

يعتمل في أعماق.. ثمة شعور حاد بتأنيب الضمير ينخس روحى منذ سمعت منها تفاصيل الإيقاع بالعمّال والظلم الذى تعرّضوا له.. حاول أن تفهمنى يا صديقى.. منصب رئيس جامعة (الإسكندرية) الذى أسعى إليه يمثل طموحاً عشت أتعطاه طيلة سنوات طويلة مضت.. وفي الفترة الأخيرة كانت نشاطاتى سواء فى الحزب أو فى الجامعة كنائب رئيسها لشئون البيئة مثار إعجاب الجميع.. لدرجة أن صديقى الحميم الدكتور (زكريا) قال لى ذات مرّة أنّ القيادات العليا تتابع مجهوداتى برضا، وأنها تضمّر لى أمراً عظيماً..

ألا تعرف ما هى الجهة الوحيدة التى لها سلطة تحويل مدنيين إلى المحكمة العسكرية..؟! وهل أنت مستعد للوقوف فى مواجهة هذه الجهة..؟!

الأمر دقيق بالفعل ولا يحتمل أية مخاطر.. مجرد إثارتى لهذا الموضوع سيقرب المنضدة على رأسى ويثير السخط على بدون أية فائدة.. وأصير «لا طلت بلح الشام ولا عنب اليمن» كما يقولون.. لا العمّال سيخرجون من محبسهم، ولا أنا سأحقق طموحاتى.. فلا مجال إذن لأعمال بطوليّة هى إلى الحماقات أقرب..

دعك من أننى لا ألم بكافة تفاصيل الموضوع، وهناك الكثير مما لا أعرفه بخصوص العمّال والأسباب التى تدعو إلى محاكمتهم عسكرياً.. كل ما أستند إليه هو أحلام يراها فتى مضطرب نفسياً، وقصص روتها لى منتجة برامج تبحث عن الإثارة الصحفية والفرقة الإعلامية.. فمن الجنون إذن أن أخاطر بطموحاتى إستناداً إلى مثل هذه المعطيات الواهية..

لأتجاهلنّ الأمر، ولا أحملن نفسى مسئوليّة ليست لها أصلاً.. وليكون هذا هو الرد على إزعاج الضمير الذى ينغص علىّ حياتى منذ أن عرفت القصة..

قلت لـ (أحمد) وكأثماً أخاطب نفسى:

- إنس.. إبعد الأمر تماماً عن ذهنك.. لا مسئوليّة عليك فيما أصاب

هؤلاء البؤساء.. يداك نظيفتان تماماً من دمائهم ومعاناتهم.. طمئن ضميرك المعذب من هذه الناحية.. عليك أن تتخبط في عملك.. تقدم إنجازات مثمرة.. هذا هو المجال الوحيد الذي يمكن أن تخدم الناس فيه.. غير ذلك فأنت لا شأن لك به، ولا تعرف عنه شيئاً من الأساس.. دعه لولي الأمر فهو عليه أقدر..

والتقطت نفساً عميقاً ثم أردفت:

- هذا هو العلاج الوحيد لمشكلتك.. التجاهل والنسيان والانشغال بالعمل..

كانت هذه هي الجلسة الأخيرة التي جمعتني بالباشمهندس (أحمد خشبة) ومدام (أمل الشافعي).. لا أخفيك سراً أنني كنت مرتاحاً إلى إغلاق ملف هذه الحالة الشائكة التي سببت لي الكثير من الضيق وتأنيب الضمير..

تفرّغت في الأيام التالية لمتابعة عملي في الجامعة وإدارة مستشفى الخاص لعلاج الأمراض النفسية والعصبية هنا في (باراديس هايتس)، وفي ذات الوقت حرصت على مواصلة نشاطي الحزبي..

كانت بؤادر مشكلة جديدة قد بدأت في الظهور على السطح بعد سلسلة التحقيقات الصحفية التي نشرتها واحدة من الصحف اليومية الخاصة حول تمرد عمال أحد المصانع واعتصامهم في المصنع في محاولة لإجبار الإدارة على صرف مستحققاتهم المتأخرة منذ سنوات، وعن مؤامرة دبرها مالك المصنع للإيقاع بهم..

كانت التحقيقات جريئة فعلاً.. مصاغة بأسلوب رائع شديد اللهجة، وتطالب بفتح ملف العمال المعتقلين من جديد ومحاسبة من ظلمهم.. وقد أثارت عواصف من الإهتمام على أصعدة مختلفة.. نوقشت أكثر من مرة في برامج التوك شو اليومية، وتقدّم عدد من نواب المعارضة في مجلس الشعب بطلبات إحاطة و استجوابات لعدد من المسؤولين على رأسهم وزير الداخلية والقوى العاملة وئيس اتحاد العمال وغيرهم.. أما في الجامعة، فقد كانت ردود الأفعال أقوى ممّا تخيلت وتخيّل الكثيرون.. في البدء لم يبد أن أحداً سمع بالأمر من أساسه.. غير أنّ

المظاهرات إنفجرت بغتة ودون سابق إنذار.. راح آلاف الطلبة والطالبات يجوبون أرجاء الجامعة منددين بالظلم والظلمة ومطالبين بإنقاذ العمال البؤساء.. أثار هذا دهشتي في بادئ الأمر لبعد المسافة بين العالمين (عالم الطلبة وعالم العمال)، وتساءلت عن السبب الذي يدفع آلاف الشبان والشابات إلى التظاهر من أجل عدد من العمال، قبل أن أدرك الجواب على الفور، وأنا أنظر إلى الشاب الملتحي الأسمر الذي يقود المظاهرة حاملاً مكبراً صوتياً، والذي يعرف الجميع أنه أحد أبرز قادة النشاط الطلابي لطلبة الإخوان المسلمين.. إسمه (مصطفى عبد الرازق) فيما أذكر.. يحيط به عدد آخر من الطلبة الملتحين يرددون الصيحات الحماسية بصدق، بينما تتعالى من الخلف الأصوات الرفيعة الصادرة من حناجر الطالبات المنتقبات والمختمرات السائرات خلف المظاهرة.. لا شك لدى في صدق حماسة هؤلاء الشباب، ولكن اقتراب موعد إنتخابات مجلس الشعب القادمة يطرح أسئلة عديدة حول حجم وتوقيت و -وهو الأهم- الدوافع الحقيقية للمظاهرة..

قام حرس الجامعة بإغلاق البوابات لمنع المظاهرات من الإنتقال من الحرم الجامعي إلى الشارع، ووقف العقيد (سليمان قنديل) -قائد الحرس- يتوعد المتظاهرين بتكسير عظامهم وضياح مستقبلهم، بينما أصابت الدكتور (ماجد رسلان) - رئيس الجامعة الحالي - حالة من الجنون وهو يرى جحافل الطلاب تدق أبواب الجامعة بينما أصواتهم تزلزل المكان..

- كل واحد يرجع على مدرّجه.. الى مش هايسمع الكلام هايتفصل فصل نهائي ومستقبله هاضيع..

كذا صرخ بكل قوّته، دون أن يلتفت إليه أحد.. كان الجو متوتراً عصبياً مقبضاً.. وشعرت بالشفقة إزاء عصبية الدكتور (ماجد) وهو يرى مستقبله مهدداً ما بين غضب الطلبة وجحافل الأمن..

- الله أكبر والله الحمد..

- يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة بينا وبينك..

- مش هنخاف مش هنطاطي إحنا كرهنا الصوت الواطي..

تتوالى هتافاتهم الحماسية عبر مكبرات الصوت، لتضيق بينها صرخات

قائد الحرس ورئيس الجامعة.. وعبر أسياخ حديد البوابة الرئيسية.. وعلى امتداد شارع (سوتر) بدت شاحنات الأمن المركزي الضخمة بلونها الزيتوني المميز، وكأنّها مجموعة مخيفة من العمالقة هائل الحجم.. وتراصت صفوف الجنود سود الثياب أمام البوابة، لتتصادم صيحاتهم القويّة مع هتافات المتظاهرين..

مرّت اللحظات عصبية.. الكل متوتر.. الكل يصرخ.. الأعصاب مشدودة.. العرق ينهمر على الوجوه.. «مش هنخاف مش هنتاطي».. عدد من الرجال يرتدون الملابس المدنيّة والمناظير الشمسيّة الداكنة واقفون في الخارج يراقبون الموقف باهتمام.. لا يحتاج المرء لكثير من الذكاء ليعرف أنّهم من مباحث أمن الدولة.. «هاه.. هاه..».. الفتيات المنتقيات يواصلن الهتاف بينما ترفعن أكفهن المتشابكة.. من هذه المسافة أرى عروق جبهة (مصطفى عبد الرازق) تتفخ ووجهه الغارق في العرق محمّر بشدة، وهو يهتف عبر مكبر الصوت.. «إحنا كرهنا الصوت الواطي».. جنود الأمن المركزي يدقون الأرض بأقدامهم صانعين إيقاعاً مخيفاً، بينما أصابعهم تقبض على هراواتهم.. «هاه... هاه»..

- هل تعرف لماذا وقع اختيارنا عليك؟..
سألني العقيد (محمد السّمّان)، فارتج علىّ للحظات ولم أدر بم أرد..
إبتسم قائلاً:

- أنت تعلم بالتأكيد أن أهم ركائز عملنا هو المعلومات.. لقد صرنا في هذا المجال أكثر خبرة وكفاءة من المخابرات الأمريكية ذاتها.. لدينا قنوات معلومات متدفقة طويلة الوقت عن كل شيء وكل شخص في البلد.. الهمسات في البيوت مسجلة لدينا على الأشرطة.. تأوهات النساء المنبثقة من تحت رجالهن نسمعها أولاً بأول.. هل أنت معي؟..
جف ريقى وأنا أجب:

- نعم..

- لدينا ملف كامل عنك يا دكتور.. معلومات عن عائلتك.. زوجتك وأبنائك.. سجلّك المهني.. بعثتك إلى (اليابان).. علاقاتك بزملائك.. سنوات

الإعارة التي قضيتها ما بين (السعودية) و(الكويت).. المؤتمرات التي تشارك فيها.. مستشفى في (باراديس هايتس).. نشاطك في الحزب.. كل شيء..

ونظر إلى عيني مباشرة مستطرداً بلهجة خاصة:
- حتى موضوع شقيقك الأكبر الراحل الذي توفي في المعتقل عقب القبض عليه بتهمة الانتماء إلى الجماعات المتطرفة..

قلت بصوتٍ مبحوح:

- كان ذلك قبل مدة طويلة..

إبتسم قائلاً:

- بالتأكيد..

وأشار إلى كوب عصير الليمون المثلج الموضوع أمامي على المنضدة :

- إشرب الليمون قبل أن يسخن ..

شكرته وأنا أرتشف من الكوب ، في حين تراجع هو في مقعده متابعاً :

- عندما فكرنا فيمن سنقوم بتوليته رئاسة الجامعة خلفاً للدكتور (ماجد رسلان) -وأنت تعلم أن هذا القرار لا يخرج إلا من عندنا- كان لدينا بعض المواصفات التي لا بد من توافرها في الشخص المطلوب..

و راح يعد على أصابعه:

أولاً : أن يكون عضواً في الحزب، ويحوز رضا قيادته..

ثانياً : أن يكون أكاديمي محترم ذو سمعة طيبة..

ثالثاً : ألا يكون له أي نشاط سياسي خارج الحزب ..

رابعاً : ألا تكون له سابقة تعامل أو حتى تعاطف مع الإخوان المسلمين..

خامساً: أن يكون مشهوداً له بالتدين، وذلك لحرق كارت الدين الذي يلعب عليه الإخوان دوماً..

سادساً: القدرة على اتخاذ قرارات حازمة لخدمة مصلحة ووظيفة الجامعة، والتي تقتصر فقط على تقديم العلوم للطلبة ولا شيء آخر..

وصمت لحظة وكأنما يتابع أثر كلماته على ثم أردف:

- وكل هذه المواصفات وجدناها تنطبق عليك يا دكتور (حازم).. فكان

إسمك هو المرشح المثالي..

كان انفعالي قد بلغ ذروته، فتمتعت بعبارات شكر متداخلة جعلته يتسم قبل أن يقول بجديّة:

- أول وأهم وأخطر أزمة ستواجهك هي النشاط الإخواني في الجامعة.. وهو السبب الحقيقي في إقالة سلفك الدكتور (ماجد) - وليست المظاهرات الأخيرة فقط- برغم كفاءته الإدارية، ولكن الكفاءة الإدارية ليست كل شيء كما سبق وأخبرتكم.. النشاط الإخواني متغلغل في الجامعة بشكل قوى جداً، ويكاد يتفوّق على نظيره في جامعتي (القاهرة) و(عين شمس).. والخطّة الجديدة لمحاصرته هي جعل طلبة الإخوان عبّرة لمن يعتبر.. لقد أعلن لقد تحدى هؤلاء الفتية الأمن، مدفوعين بتعليمات من الكبار من أجل مكاسب سياسية، فلا أقل من أن يرى الناس أن الثمن فادح حقاً، وسيكلّفهم مستقبلهم ذاته..

إلى جانب ما سنفعله نحن.. نريد فصل عديدين، ومنع آخرين من خوض الإمتحانات.. إتحاد الطلبة القادم لابد أن يخلو ممن لا تتضمّن قائمتنا.. الشدة يا دكتور.. نتنظر أن نرى منك الكثير منها..

قلت بصوتٍ مبجوح:

- سأكون عند حسن الظن بإذن الله..

وارتشت من عصير الليمون، بينما هو يقول:

- الجامعة من أخطر المنابر التي يتسلل منها الفكر الإخواني وينتشر بين الشباب، وقد لاحظنا زيادة معدل هذا الإنتشار في الفترة الأخيرة بما يهدد أمن واستقرار الجامعة وقدرتها على أداء مهمتها..

وأشعل سيجارة مستوردة نفث دخانها متابعاً:

- ولكن سياستك في إدارة كلية الطب أثناء توليك منصب عمادتها تجعلنا نتفائل بصدد قدرتك على التعاون معنا، لحفظ الأمن والاستقرار في الحرم الجامعي.. فهل أنت جاهز..؟؟

بكل تأكيد..

لا تظلمني يا صديقي ولا تفهمني بشكل خاطئ..
لست إستغلاليّ ولا خائناً.. وليس في الأمر شبهة لصفقة بيني وبين الأمن..

كل ما هنالك أن للجامعة وظيفة محددة هي العلم ولا شئ سواه كما قال العقيد (محمد السّمان).. ومن الطبيعي أنّ أى محاولة لإستغلالها -أى الجامعة- كمنبر للتظاهر أو أى غرض آخر سياسى أو غير سياسى لابد من مقابلتها بمنتهى الشدة والحزم وإلا صارت الأمور «ميغة» واسمح لى.. هذا جانب..

الجانب الآخر هو موقفى الفكرى من المعارضة السياسيّة بشكل عام ومعارضة الإخوان بشكلٍ خاص.. هذا الموقف نابع من آراء لفقهاء عظام فى الدين الإسلامى الحنيف.. الإسلام يأمر المؤمنين بالطاعة المطلقة للحاكم أو وليّ الأمر.. يقول الله عز وجل فى كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم).. أى ربط تبارك وتعالى طاعة الحاكم (وليّ الأمر) بطاعته وطاعة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم، وعليه فإنّ معصية الحاكم تعدّ معصية لرب العزّة وللرسول الكريم.. بل لقد ذهب بعض الفقهاء الثقات، إلى أنّ معصية الحاكم والثورة عليه لا تجوز حتى ولو سرق أو زنى، مادام ينطق بالشهادتين ويؤدى الصلاة.. هذه الفتوى ليست إعتباطاً، ولها بالتأكيد مغزى وهدف أكبر.. ألا وهو وأد الفتنة التى ستنشأ بسبب تمرد الرعيّة على راعيهم.. هذه الفتنة التى قد تغرق البلاد فى بحورٍ من الدم.. بالتأكيد قرأت شيئاً من التاريخ الإسلامى يا صديقى، وتعلم المآسى التى جرت بسبب تمرد بعض الثوّار على حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم.. وما كانت النتيجة...؟! لا شئ.. الحكم ظل باق كما هو، ولكن أنهار الدماء شقت أراضى (مصر) و(الحجاز) و(الشام) و(العراق).. فالحل المثالى فى رأيى هو الصبر على البلاء والتضرّع إلى الله عز وجل لرفعه.. هذا فى حالة فساد وظلم الحاكم، وهو ما ليس موجوداً لدينا فى (مصر) بالمرّة والله الحمد.. من هذا المنطلق، كنت دوماً رافضاً لأى نوع من الدعاوى التى تنادى بالثورة على النظام وإسقاطه مهما كانت النوايا الكامنة وراء هذه الدعاوى صادقة.. إنها مسألة عقيدة وإيمان، و ليست مزايدة للحصول على مكاسب من النظام.. لذا فقد كانت سياستى أثناء رئاستى لقسم الطب النفسى ثم عمادتى لكّيّة الطب هى الوقوف بحزم أمام أى

محاولة لإستغلال الأنشطة الطلابية في التحريض ضد النظام.. كثيراً ما كنت أشعر بشئ من تأنيب الضمير وأنا أعاقب طالباً أو أنهر طالبةً، ولكنّها مسؤوليتي أمام الله وإدارة الجامعة من بعده.. وبذلك لم يكن صعباً عليّ الموافقة على عرض (سمه أمراً لو شئت) العقيد (محمد السّمان) ..

كما لك أن تتوقع كان هناك الكثير من الضجيج والمشاكل.. كنت -هذه المرة بالذات- في منتهى الشدّة والحزم.. قمت بفصل عدد كبير من الطلبة ومنعتهم من أداء إمتحانات هذا الفصل الدراسي، وأعطيت الحرس الجامعي صلاحيّات كبيرة وصلت لدرجة السماح لهم بتفتيش سيّارات الأساتذة الجامعيين أنفسهم.. بالطبع سبب هذا ثورة عارمة بين الأساتذة ضدي، ولكنني كنت مصراً.. طلبة الإخوان يقومون بإدخال لافتات وسّماعات وميكروفونات وبروجكترز يستخدمونها في التظاهر.. يسرّبون هذه الأجهزة خلسةً إلى داخل الجامعة برغم رقابة الأمن المشددة.. فلا مجال إذن لإستثناء سيارات الأساتذة من التفتيش، والمفروض أنّ هذا جزء من النظام الجامعي -الذي أضعه أنا بصفتي رئيساً للجامعة- وعليهم أن يتقبّلوه.. دعك من أنّ عدداً من هؤلاء الأساتذة الغاضبين ينتمى فعلياً إلى الجماعة المحظورة، ولديّ قائمة كاملة بأسمائهم.. وهو ما أعلنته في إجتماع لمجلس الجامعة كان مخصصاً في الأصل لمناقشة زيادة الميزانية المرسودة لتطوير البحث العلمي، واستغلّه بعض الأساتذة الغاضبون لمناقشة الإجراءات الأمنية التي يرونها غير مقبولة..

ثارت إحتجاجات كثيرة.. وانبرت صحف المعارضة تهاجم موافقي، وخضت معارك كلامية حامية على شاشة برامج التوك شو دافعت فيها عن سياسة الجامعة، وأعلنت مبدأى الرفض تماماً لتسييس الجامعة.. أقام الطلبة المفصولون دعاو قضائية ضد الجامعة حكمت لهم بمواصلة الدراسة وخوض امتحانات الفصل الدراسي، غير أنّ العقيد (السّمان) أخبرني أن أتعامل مع تلك الأحكام باعتبارها حبراً على ورق، لأنّ القضاء مخترق بعناصر من الإخوان ففعلت..

مع قدوم موعد إنتخابات إتحاد الطلبة، منعت عدداً من الطلاب المعروفين بانتماءاتهم الإخوانية من الترشح لعضوية الإتحاد.. ثارت العديد من الإعتراضات، وحاول وفد من هؤلاء الطلبة مقابلي فرفضت، بل أن إحدى الطالبات المنتقبات حاولت إعتراضى أثناء توجهي إلى سيارتي لمناقشتي بشأن منع الطلبة من خوض الانتخابات، رفضت مناقشتها فأصرت لدرجة أغضبتنى بشدة، فثرت وكدت أن أصفعها على وجهها، لولا أن رجال الحرس الجامعى المحيطين بى تدخلوا فأبعدوها، ودفعها أحدهم بقوة فألقاها أرضاً.. أثار مشهدها وهى تهض باكياً شفقى، غير أننى لم أكن لأسمح لمشاعرى بأن تسيطر على أثناء أدائى لعملى.. كان الأمن قد أرسل إلى بقائمة الطلبة المسموح لهم بخوض الانتخابات (وسأكون صريحاً معك وأقول لك أنهم المسموح لهم بالسفوز بعضوية الاتحاد)، وبالتالي لم يكن هناك مجالاً للمناقشة بشأن ترشح آخرين قد ينجحوا وقد لا يفعلون..

أعلم أن هذه الإجراءات التى اتخذتها قد تبدو من النظرة الأولى متعسفة أو غير شرعية (ولا أكذبك خبراً بأننى كنت كثيراً ما أتألم بسبب ضياع فصولاً دراسية على طلبة فى سن أبنائى) ولكن النظرة المتأنية بالتأكيد ستغير الكثير من المفاهيم.. الضرورات تبيح المحظورات أحياناً.. والضرورة التى أمامى الآن هى قطع الطريق أمام الفصائل السياسية المعارضة كالإخوان وغيرهم لتسييس الجامعة واتخاذها منبراً لبث فكر التمرد والثورة على النظام.. فلا مناص من اتخاذ بعض الإجراءات التى قد تبدو تعسفية غير مشروعة لتحقيق الهدف الأهم الذى هو مشروع بكل تأكيد.. وبينما أنا غارق حتى أذنى وسط كل هذه المشكلات، وصلنى فى مكتبى طرد صغير يحمل شعار (فيديكس).. قمت بتمزيق المغلف البلاستيكي الخارجى، فوجدت بداخله شريحة موبايل مطبوع عليها شعار واحدة من شركات المحمول، ومعه ورقة بيضاء مطوية.. فضضتها، وجرت عيناي بسرعة على كلماتها القليلة..

عزيزى (د. حازم أبو زيد)..
للأهمية القصوى.. أرجو منك تشغيل الشريحة المرفقة بهذه الرسالة

على وجه السرعة، وستتلقى مئى إتصالاً بمجرد أن تفعل إن شاء الله..
الأمر عاجل وشديد الخطورة..

(أمل الشافعى)

قرأت الرسالة بسرعة، وشعرت بالدهشة لغموضها، ولكنى لم أتوقف عندها طويلاً.. وضعت الشريحة والرسالة داخل المغلف البلاستيكي، ثم وضعت الأخير في حقيبتى، وعدت لمتابعة عملى..
نسيت قصة الشريحة تماماً بقيّة اليوم مع انشغالى فى العمل، غير أننى تذكرتها مرّة أخرى ليلاً وأنا مستلق على فراشى أردد أذكار النوم بصوتٍ خفيض خاشع فى ظلام غرفة النوم.. تذكرتها بغتة فتوقفت عن التريـد، ورحت أفكر فيها وقد عاودتنى الحيرة إزاء غموضها وإسـلوبها الموحى بالخطورة..

نهضت من الفراش محاذراً إيقاظ زوجتى المستغرقة فى النوم إلى جوارى، وهبطت إلى غرفة المكتب (التي نجلس فيها الآن).. جلست إلى مكتبى، وكدست الشريحة الأليكترونيّة فى محمول قديم الطراز وقمت بتشغيله.. مرّت لحظات من السكون ثم..

ترررررن.. تررررررررن..
نظرت للهاتف بدهشة.. أمِن المعقول أن تكون جالسة بانتظارى..!!؟..
ضغطت زر ok و أنا أدس مسماع الـ (hand - free) فى أذنى و..

- (نبيرة ارتياح): أخيراً..

- (بحذر): مدام (أمل)..؟..

- ظللت أجرب الإتصال بك طيلة اليوم ..

تجاوزت دهشتى وسألتها:

- هل هناك ما يدعو لهذه الإجراءات البوليسيّة..؟..

- بالتأكيد..

إنتظرت أن تشرح لى، ولكنها لظمت الصمت.. سألتها:

- كيف حال الباشمهندس (أحمد)..؟..

- ليس على مايرام..

- أمازالت تتتابه تلك الأحلام..؟..

- لم تتوقف ليلة واحدة..
- (بدهشة): أمازال ضميره يؤنبه إزاء تجاهله لهموم العمال؟!..
- ليست مسألة ضمير بأى حال..
- نَفَد صبرى بالفعل إزاء كل هذا الغموض الذى تتصنَّعه.. قلت بحدة:
- لِمَ لا تتكلمى بوضوح إذن بدلاً من هذا الفيلم..؟..
- مرت لحظات من الصمت، قبل أن تقول بحروف بطيئة مُنذرة:
- ما لدىّ يتفوق عملياً على أفلام (هوليود) ذاتها، حتى أننى أحياناً أكاد لا أصدق ما وقعت عليه..
- (بنفاد صبر): وما الذى وقعت عليه بالضبط...؟..
- هل يسمح وقتك بأن أحكى لك..؟..
- نظرت إلى الساعة ذات النقوش الذهبية الموضوعة على مكتبى، فوجدت عقاربها تقترب من الثانية صباحاً.. لا بأس.. سأدعها تتحدث لـ ١٠ دقائق أخرى، فإذا وجدت كلامها غير ذى أهمية، فسأقطع الإتصال على الفور.. أنا رجل صاحب مسؤوليات، وليس لدىّ وقت لأى هراء..
- تفضلى..

obeikandi.com

إنس.. إبعد الأمر تماماً عن ذهنك.. لا مسئولية عليك فيما أصاب هؤلاء البؤساء.. يدالك نظيفتان تماماً من دمائهم ومعاناتهم.. طمئن ضميرك المعذب من هذه الناحية.. عليك أن تتخبط في عملك.. تقدم إنجازات مثمرة.. هذا هو المجال الوحيد الذي يمكن أن تخدم الناس فيه.. غير ذلك فأنت لا شأن لك به، ولا تعرف عنه شيئاً من الأساس.. دعه لولي الأمر فهو عليه أقدر..

لن أكذب عليك دكتور (حازم).. تحليلك لحالة (أحمد) كان منطقياً جداً.. ولكنني لم أهضم منطقك الذي حاولت إقناعه به لينزع موضوع العمال من ذهنه.. بل أنني شعرت - ولعلّ مخطئة- أنك أنت نفسك غير مقتنع بهذا المنطق.. أنت رجل متدين يا سيدي وتعلم أن (الساكت عن الحق شيطان أخرس) كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والجرم واضح و صريح أمام أعيننا.. فلا مجال للتبرير واختلاق الحجج للتهرب من مسئولية فضح الظلم..

في أعماقي كنت أعرف أنني لن أقف مكتوفة اليدين (فيما بعد حكيّت القصة كلها لزميل دراسة قديم لي يعمل حالياً صحافياً في إحدى صحف المعارضة بموضوع العمال وكتب عنه سلسلة تحقيقات أثارت ضجة).. ولكنني لم أنفوه بكلمة عن نواياي لـ (أحمد).. المسكين كان يمر بحالة لا مثيل لها من العصبية والتوتر والخوف.. حاولت تهدئته و- أسأل الله أن يسامحني- إقناعه بمنطقك.. نصحته بالانغماس أكثر في العمل، وذكرته بأننا أضعنا وقتاً ثميناً.. وكنت أرى بالفعل أن الانشغال بالعمل قد يسهم كثيراً في علاجه، غير أنه أجابني بابتسامة مريرة:

- كيف تنتظرين مني أن أعمل بينما ساعات نومي اليومية لا تزيد عن الثلاث ساعات..؟!..

كان محقاً.. نظرت إلى وجهه الشاحب ووجنتيه البارزتين، والهالات الداكنة (التي ازدادت سواداً في الفترة الأخيرة) حول عينيه.. العينين

المحمرّتين الزائغتين.. هل هذا وجه قادر على العمل..!!؟..
تنهدت قائلة:

- أسأل الله تعالى أن يشفيك..

كُنّا جالسين في مقدمة زورقه الخاص الذي ينقلنا من (باراديس هایتس) إلى (الإسكندرية).. البحر هادئ بالفعل، والجو لطيف.. نظرة غريبة إنبعثت من عينيه..
- (أمل)..

- نعم..

- من فضلك لا تتخل عني..

وراح جسده يرتعش.. شعرت بشفقة حادة تجاهه.. رغماً عني وجدتني أنهض من مقعدي لأريت على كتفه مهدئة..

- ستجدي بجوارك دائماً.. فقط هدي من روعك..

رفع عينين مترققتين بالدموع.. حدّق في وجهي.. قال بصوتٍ متهدج:
- أحبك..

- ماذا..!!؟

لم يردّ.. وفي اللحظة التالية، فوجئت به يمد ذراعيه بغتةً ليحتضني ويضمني بقوة إلى صدره.. وشعرت بشفتيه تلتصقان بشفتي.. أخذتني المفاجأة لأوّل وهلة.. ملأت أنفي رائحة أنفاسه المعتقة برائحة التبغ.. إنتنفّض جسدي كلّهُ.. دفعته عني بكل قوّة صارخة:

- هل جنت..؟..

لا أعرف إن كانت دفعتي هي السبب أم هو جسده المتهالك بفعل الإنفعال وقلة النوم.. طار جسده إلى الخلف كأنّما تلقى قبلة في صدره.. تجاوز حاجز القارب واختفى من أمام ناظريّ، وسمعت صوت إرتطامه بالمياه..

صرخت أنادي عم (خليل) -قائد القارب- الذي بدا وكأنه لم يلحظ أي شيء مما جرى بسبب ضجيج محرّك القارب.. هرع الرجل مذعوراً ليرى مخدومه الشاب بين الأمواج.. أوقف المحرك، في حين قذفت أنا طوق نجاة مربوط بحبل نحو الفتى الذي بدأ يسبح عائداً إلى القارب..

الكثير من الإعتذارات.. الكثير من التوسلات.. الكثير من الدموع
إنهمر من أعين كلانا.. عدت إلى بيتي وقد اتخذت قراراً حاسماً بقطع
علاقتي بهذا الشاب المنحرف الذي لا يستطيع التحكم في مشاعره، ولا
يفرّق بين أنثى وأخرى..

غمرنى شعور عارم بالمهانة والندم على اندفاعي في علاقتي به إلى
الحد الذي جعله يتجرّأ علىّ إلى هذه الدرجة ويقدم على فعلته
الطائشة التي فعل.. قالت لي والدتي بحزم بعد أن قصصت عليها ما
جرى:

- إنه خطأك بالطبع..

- كيف يا أماه..؟..

إنفجرت غاضبة:

- منذ حادثك وأنتِ تنسين دوماً أنك أنثى، وتعاملين مع الجميع
كأنك رجل.. وكم من خلافات نشبت بيني وبين والدك بشأن هذه
النقطة، لأنه كان فخوراً بكِ ودأب على منحك حرية مطلقة مساوية
لتي يمنحها لشقيقك الرجل..
- ولكن يا أمي..

- لا تقاطعيني.. أنظري إلى أفعالك منذ بدأت تلك المشكلة التي
قصصتها علي.. لا أتحدث عن أسفارك الكثيرة، ولا سهرك لأوقات
متأخرة خارج البيت لأنني أعلم أنكِ تكونين في العمل (برغم تحفظي
على نوعية العمل التي تدعو المرأة إلى التأخر ليلاً) ولثقتي في أخلاقك..
كلامي هنا عن ذهابك إلى (كروموز) ليلاً بصحبة شاب غريب مضطرب
نفسياً، ومحاولة السرقة التي تعرضت لها.. والحيوان الذي مد يده
عليك.. ثم ذلك الشاب الوقح الذي لم يقدر ثقتك به وحاول أن
يقبلك.. ما الذي جعلك تحدرين إلى هذا الحد..؟.. كيف سمحتي
لنفسك أن تصل بكِ الأمور إلى هذه الدرجة التي انهار معها إحترام
الناس لك بهذا الشكل المخزى..

كانت تتكلم، ومع كلماتها امتلأت نفسي بالخزي والمرارة.. حاولت أن
أرد.. لم أستطع..

- مالك أنت وما يعاينيه هذا الفتى المخبول..؟.. أهو زوجك أم أخيك

أم قريبك...!!؟.. ما الذى حشرك فى كل هذا العك...!!؟..

حقاً.. ما الذى «حشرنى» فى كل هذا «العك»...!!؟.. كنت قد أخبرتك مسبقاً -لو تذكر- دكتور (حازم) أننى متحيرة بشأن دوافعى للوقوف إلى جوار (أحمد ممتاز خشبة) فى المحنة الغريبة التى يمر بها.. الآن أقول لك وبعد أن فكرت فى الموضوع بهدوء وروية، أنها كانت حالة تعاطف إنسانى لا تخلو من فضول صحفى مهنى إكتسبته بحكم عملى.. هذا فقط هو ما حشرنى»..

- كوني عاقلة يا بنيتى كما كنت دوماً.. تخلصى كلياً من هذا الموضوع الشائك، واقطعى علاقتك نهائياً بذلك الشاب المخبول الوقح..

لا بأس.. كنت قد اتخذت هذا القرار مسبقاً..

- حاضر..

- وأعدى نفسك لأنّ هناك عريساً يرغب فى رؤيتك..

عريس...!!!..

- طيب أطفال.. زميل لشقيقك الأكبر فى (جدة)..

لا رد..

- (محمود) شقيقك يثنى بشدة على أخلاقه وتديّنه ونجاحه فى عمله..

لا رد..

- عرف ظروفك، ووافق عليها..

لا رد..

- هل أصابك الخرس...!!؟..

- ماذا تريدننى أن أقول يا أماه...؟..

- رأيك..

- ولماذا رأيي...!!؟.. ألم يثن (محمود) على أخلاقه وتديّنه...؟.. إذن ما الحاجة لرأيي...!!؟.. كل ما علىّ إذن أن أعد نفسى كي أروق له..

- (بغضب): (أمل)..

- منذ متى عهدتى من هذا النوع من النساء يا أمى...؟.. هل نسيت كيف تزوجت (مجدى)...؟.. كنتم جميعاً عدا أبى رحمة الله عليه ترفضونه وتفضلون عريساً آخر أغنى، ولكننى تحديث الجميع وأصررت عليه لأننى أحببته..

- وما كانت النتيجة يا فالحة..؟..
- جعلني أسعد إنسانة في العالم..
- وماذا ترك لك بعد وفـ.
- بترت تساؤلها وهى تنظر لى بوجهٍ شاحب.. عضت بأسنانها على شفـتها السفلى.. نظرت لها صامتة، فقالت والدموع تترقق فى عينيها:
- أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت يا (أمل)..
- شعرت بالدموع تحتشد فى عينيّ أنا الأخرى.. إحتضنتها قائلة:
- بعد الشر عليك يا ست الكل..
- إستكانت بين ذراعى وهى تقول:
- العمر يجرى يا بنيّ ولن أعش أكثر مما عشت.. منذ أن نفّذ الله مشيئـته واختار زوجك وطفلك إلى جواره وأنا أتعذب كل يوم، عندما أفكر أننى سأموت وأترك وحيدة فى هذه الدنيا..
- ربت على ظهرها وقلت:
- لست وحيدة يا حبيبتى.. لـدى إخوان وأبنائهم وبناتهم أطال الله فى عمرك وأعمارهم جميعاً.. لـدى عملى وزملائى و..
- قاطعتنى و هى ترفع رأسها نحوى:
- الدنيا تلاهى يا بنيّ.. ولا أحد فاضى لأحد.. لابد للواحدة مـنّا من رجل ليكون ظهراً لها ليحميها..
- ربنا موجود يا أمـاه..
- ماذا ستفعلن عندما يتقدم بك السن وتصبحين وحيدة لا مؤنس لك..؟..
- (بمرح): سأتزوج حينئذ..
- لن تجدى من يرضى بك وقد كبرت سنك وأصبحت عجوزاً..
- وحركت أصابعها على وجنتى مردفة برقة:
- أنت لست عجوزاً بعد، وجميلة كالقمر.. ومرغوبة.. فلم ترفضين حتى مجرد التفكير فى الأمر..؟..
- لأننى مازلت أحب زوجى الراحل ولا أتخيّل نفسى مع أحدٍ سواه..
- (بضراعة): فقط إمرئى هذا العريس الجديد فرصة.. قابليه لمرّة واحدة ثم اقبله أو ارفضه..

صمّت مفكرة للحظات ثم تنهدت قائلة:
- حسناً يا أمى.. كما تشائين..

غادت الحمام -بعد دش ساخن- ضامّة أطراف البرنس الأبيض على جسدى.. أمام المرأة جلست أمشط خصلات شعري المبتلة.. غريب هذا.. ثمة شعور غير مألوف يداعبني.. بالأحرى هو شعور مألوف ولكنّه قديم.. قديم جداً ولم أشعر به منذ سنين طويلة.. ما سر هذا السعادة الغامضة التي تتلاعب في أعماقي..؟.. أتراني مازلت مراهقة تفرح بإعجاب شاب مثل (أحمد خشبة) بها..؟.. أم هي بهجة خفية أرفض الإعتراف بها سببها وجود من لايزال يرغب في الإرتباط بي..؟..
ياالحماقتي..!!..

أسنان المشط تتحرك بين خصلات الشعر التي كانت فاتكة النعومة في يوم من الأيام، ثم لم تعد كذلك.. منذ متى -فكرت- فقد شعري نعومته..؟..

لمع الخاطر بذهني في لحظة.. إقتربت بنصفى العلوى من سطح المرأة المغطاة بعض مواضعه بالبقع الداكنة.. لاحظت وجود خطين منحنيين يحيطا بالجفنين السفليين.. وثمة خطوط خفيفة جداً على جانبيّ شفتيّ..

نهضت واقفة وسحبت حزام البرنس تاركّة البرنس نفسه يهوى على الأرض.. تراجع خطوة للوراء، وتفرست في تفاصيل جسدي العارى.. بالتأكيد لم يعد هو ذات الجسد النضر الرشيّق الذي انتزع تلك التهيدة الحارّة من صدر (مجدى) ليلة الدخلة والتي دفعت الدماء الساخنة إلى وجنتيّ.. لم أصر بعد كرة من الشحم، ولكن.. متى تهدل صدرى بهذه الصورة..؟.. متى امتلأ ردفاى بهذا الشكل..؟.. ما هذه الاستدارة التي صارت عليها بطني..؟.. كرش..!!.. هل حقاً صرت من صاحبات الكروش..؟..!!..

تنهدت بحرارة..

هاقد بدأ مرور الزمن- كما تقول أمى - يترك آثاره على ذلك الوجه والجسد الذي همس (مجدى) يوماً في أذني أنّه لن يشيخ أبداً..

(مجدى سليم).. طالب الإعلام النموذجى.. الرجل كما ينبغى أن يكون.. الشخصية الكاسحة الطموحة قويّة الشكيمة.. الذكاء المتوقد والبديهة فائقة السرعة.. الطول الفارع والوسامة الأخاذة.. صوته القوى الواثق -الرفيق برغم ذلك- وهو يصارحنى أسفل إحدى الشجرات المتناثرة فى باحة الكلية.. بأنّه يميل إلىّ ويرغب فى الارتباط بى.. لحظة أقرب إلى الحلم.. تفاصيل لا تبارح ذاكرتى.. أصوات الطيور.. الأفق المصبوغ بلون الشفق الأحمر.. الهواء الخريفى البارد قليلاً.. أوراق الشجر الصفراء المفروشة والمتطايرة من حولنا.. أنفاسى المأخوذة.. شفتاه الرفيعتان يحيط بهما شارب ولحية دقيقان.. ثم العينين.. العينان البنيّتان اللتان تهمسان بالكثير والكثير.. هل كان من الممكن أن أرفض..؟..

(مجدى سليم).. الصحفى الموهوب.. الاسم اللامع الذى صعد بسرعة الصاروخ ليتولى منصب مدير التحرير فى واحدة من أهم الصحف المصريّة فى الفترة الأخيرة.. أداء متميز.. أسلوب راق.. إدارة حازمة.. ذكاء فى التعامل مع الحكومة..

- فى ظل الظرف الراهن يمكنك مهاجمة أيّة أوضاع فى البلد بشرط الإبتعاد عن مؤسسة الرئاسة..
قلت له معترضة:

- ولكن هذا يعد بالفعل قصوراً فى ممارسة الصحافة..
- أعلم هذا، ولكنّها قواعد اللعبة الصحفيّة فى (مصر) وعلينا أن نقبلها كما هى إذا أردنا العمل كصحفيين لخدمة هذا البلد..

أدرك بالفعل قواعد اللعبة مبكراً جداً ولعب عليها محافظاً على الخط الرفيع الفاصل بين الصحفى الذكى البارع والصحفى المنافق الموالس فحقق نجاحاً كنت أفخر به دوماً رغم إبتعادى عن الصحافة وانخراطى فى مجال إنتاج البرامج..

جلست على طرف الفراش وأشعلت سيجارة.. نظرت إلى صورتي المنعكسة على زجاج المرأة.. لا داعى للمزيد من الذكريات يا (أمل).. لقد ذهب زوجك وطفلك ولن يعودا وبذهابهما انتهت حياتك فعلياً.. هلا أخبرتيني ما الذى تغعلينه فى حياتك..؟.. ما الذى ترمين إليه من وراء كل هذا العمل والنشاط والتفافز من مكانٍ لمكان..؟.. المال..؟.. هذه

ليست الحقيقة وأنتِ تعلمين هذا، فأسرتك ميسورة الحال والحمد لله..
الطموح..!! لا تكذبي.. أى طموح تبغين تحقيقه ينتاج تلك البرامج
السخيفة التى تعلمين جيداً فى أعماقك مدى تفاهتها وسذاجتها..؟
أنفث دخان سيجارتي..

إضاعة الوقت.. هذا هو الجواب الذى أنتظره.. أنت وحيدة يا
صديقتي.. وحيدة وبائسة وبلا هدف.. ويوماً ما كما قالت أمك
ستلتفتين حولك فلا تجدين أحداً.. الكل مشغول بحاله.. ستنكمشين
حول نفسك بينما جبال الجليد تتعالى من حولك حتى تقضين نحبك
بعد سنوات من الوحدة والوحشة دون حتى أن يشعر أحد باختفاءك
من على خارطة الأحياء..

ضمنت ركبتى إلى صدرى وأحطتهما بذراعى.. كنت أرتعش لا أدري أمن
البرد أم من الحزن.. برد قارص مخيف وحزن عميق ثقيل.. جذبت
أغطيّة الفراش لألفها حول جسدى العارى.. نظرت إلى أصابعى..
كانت السيجارة ترتعش بين سبابتي ووسطاى، بينما الدموع تحتشد
فى مقلتي..

وعندما يبلغهم جيرانك بأنّ رائحة عفونة قادمة من شقتك -عندها
فقط- سيذكرون أنّ لهم صاحبة ظلت فى طي النسيان لسنوات وسنوات
قبل أن تموت وحيدة منسيّة..

كانت نوبة اكتئاب إعتدت زيارتها لى من آن لآخر من بعد وفاة زوجى
وطفلى.. يوم أو يومين أقضيهما فى الفراش لا أحداثاً أحداً ولا أتناول
طعاماً، وتكاد أمى تموت خلالها هلعاً و حزناً على.. ثم لا ألبث أن أعود
إلى حالتى الطبيعىّة..

أرجو عُذرك يا دكتور (حازم) لإسترسالى بعيداً عن موضوعنا.. خل اصة
القول أننى عدت لممارسة عملى.. كاد العمل أن يتعثر تماماً مع انشغالى
بمشكلة (أحمد)، لولا أنّ (ميخائيل) مساعدى الشاب كان بالفعل شديد
البراعة والإخلاص فى تحمّل مسئولية إدارة العمل طيلة فترة غيابى.. لم
يعد (أحمد) للعمل، فأبلغت السيّد (رأفت) مالك المحطة بذلك،
وأخبرته بأننى سأعود للتعامل مع المهندس (محمود مفيد)، وأرسلت

لـ (أحمد) ما تبقى من مستحقات مالية نظير العمل الذي قام به..
 عدت إلى العمل مجدداً، وفي الأيام التالية حققنا معدل إنجاز مرتفع،
 وتم تصوير حلقات البرنامج بالتتابع، حتى جاء اليوم الذي زارني فيه
 العريس الجديد بصحبة (محمود) شقيقى في موقع التصوير..
 الدكتور (إيهاب عبد المولى).. طبيب أطفال في منتصف الأربعينات من
 عمره.. لم يزوج لإنشغاله بعمله في (جدة).. دعوتهما لتناول بعض
 المربطات في كافيتريا قريبة -وما أكثرها هاهنا في (مارينا) حيث يتم
 تصوير البرنامج- ورحنا تبادل أحاديث عامة..
 أعترف أنه كان لا بأس به.. خفيف الدم وذو حضور.. ولاحظت أنه كان
 يطيل النظر إلى وجهى.. تحدث عن عمله في المملكة العربية السعودية،
 والمتاعب التي تواجهه المغتربين دوماً، حديثه شائق متزن فعلاً..
 أصغيت له بإنصات وهو يحكى عن نفسه، واستشعرت لذة أدهشتنى
 في أعماقي وأنا أحدثه عن نفسى وعملى إجابة لتساؤلاته..
 بينما كنت تنجاذب أطراف الحديث إرتفع رنين هاتفى المحمول..
 ألقىت نظرة على شاشته.. كان رقم (أحمد خشة).. شعرت بالدهشة
 لوهلة ثم ضغطت زر (Cancel)، وعدت إلى متابعة الحديث مع ضيفى،
 غير أن رنين المحمول إرتفع مرة أخرى.. إعتذرت لهما، ونهضت مبتعدة
 إلى ركن قصي من المكان..
 - (برود): السلام عليكم..
 فاجأني صوته المضطرب:
 - آسف لإزعاجك يا (أمل).. ولكن هناك شيئاً مهماً أريدك أن تعرفيه..
 - خيراً يا باشمهندس..
 - هل أمامك تليفزيون الآن؟..
 - (بدهشة): تليفزيون؟!..
 - نعم..
 نظرت إلى الشاشة العريضة الـ flat التي تعرض أغاني غربية تبثها قناة
 (Melody Hits) وقلت:
 - أمامى تليفزيون بالفعل..
 أسرع يقول:

- شاهدى إذن القناة الفضائية المصريّة..
- هل تتصل بي لتطلب منى متابعة القناة الفضائية المصريّة..!!؟..
- هناك شيئاً هاماً لابد أن تريه..
- (بصرامة): إسمع يا باشمهندس.. لا وقت لدى لعبثك هذا.. لو كانت هذه وسيلة جديدة للـ قاطعنى بلهجة ضارعة:
- أعديك أن يكون هذا آخر ما أطلبه منك.. لن أزعجك مرةً أخرى..
- إزدادت دهشتى للهجته.. توجهت إلى أحد العاملين بالكافيه، وطلبت منه تحويل الإرسال إلى الفضائية المصريّة لدقيقة واحدة.. إستجاب العامل الشاب بدمائه، فشكرته و رحت أتابع ما تنقله الشاشة..

(إيجى — نيرجى).. أول شركة مصريّة عالميّة متخصصة فى إنتاج وتوليد واستخلاص طاقة الرياح.. وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العلميّة أنّ طاقة الرياح من أهم وأوفر مصادر الطاقة المتجددة غير المستغلّة.. ووفقاً لجداول الإحصاءات والدراسات الجغرافيّة وتقارير متابعة الأرصاد الجويّة فان المنطقة الممتدة بطول الساحل الشمالى لـ (مصر)، والمطلّ على البحر الأبيض المتوسط تعتبر من أغنى مناطق العالم بطاقة الرياح نظرا لتلاقى تيارات هوائية مختلفة أقواها بالطبع الرياح الشمالية الغربيّة القادمة من (أوروبّا) شمالاً..

- سألنى:
- هل تشاهدين إعلان (إيجى - نيرجى)..؟..
- نعم..
- هل ترين وجه الضيف المتحدث على الشاشة..؟..
- كان وجه المُعلّق يظهر من حين لآخر بين المشاهد المصوّرة لمحطات وماكينات (إيجى - نيرجى).. وكان ظهوره مصحوباً بظهور شريط أزرق أسفل الشاشة يحمل بحروف بيضاء واضحة إسم الرجل (د.يوسف محي الدين) وموقعه فى الشركة (المدير التنفيذى للمشروع)..
- نعم أراه.. ما شأنه..؟..

- (بانفعال جارف): نفس الملامح.. نفس الصوت.. نفس الرجل.. أراه في الكابوس الذي يزورني كل ليلة.. هل تذكرينه..؟..

وجهه ممتلئ أصلح ذو نظارات.. يلقي نظرة ثابتة على وجهي.. يربت على رأسي.. يقول بصوتٍ عميق :
- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..

- دقائق ويكون الشواء جاهزاً..
ثم شعرت بقدمه تركلني في منتصف ظهري لتدفعني بقوة لأطير عبر الباب المفتوح وأهوى لأسفل..

- هل تعنين أن مدير التنفيذ بشركة (إيجي - نيرجي) هو من رآه الباشمهندس (أحمد) في كابوسه يقذفه في النار..!!؟..
- هكذا أخبرني..

- إذن فقد جُنّ تماماً..

- (بحسم): مُطلقاً..

- ما دخل (إيجي - نيرجي) وموظفيها بأزمة ضمير الفتى والأحلام التي تورقه..!!؟..

- دار هذا التساؤل بذهني، وأعترف بأنني في البداية ظننته قد جُنّ..
ولكن ما عرفته بعد ذلك جعلني أُغيّر رأيي كليّةً..
- هلا أوضحت أكثر..

جالسين يتبادل النظرات في ذلك المكتب الفاخر بمبنى شركة (إيجي - نيرجي) بد (الزمالك)..
همس:

- أشكرك لأنك قبلت المجيء..
- (بخفوت): الشكر لله..

فتح فمه ليتكلم، ولكنني عاجلته بهمس حاد:
- ولكن اعلم أن أي تصرف أحقق يصدر منك، سأقابله بمنتهى الشدة..

أنت رأيت بنفسك أننى لست رخوة ولا ضعيفة، وأعرف جيداً كيف
أدافع عن نفسى.. دعك من أننى سأتركك تواجه مشكلتك بمفردك، ولن
ترانى مرة أخرى..

- أعدك أننى لن أضايقك أبداً..

عاد الصمت ليسود بيننا.. مرّت ثوان ثم تساءلت:

- هل أنت واثق من أنه نفس الوجه..؟..

- (بحسم): ثقة كاملة..

فى تلك اللحظة دلف (د.يوسف محي الدين) إلى الغرفة.. رحب بنا
معتذراً عن تأخره علينا، وتساءل عما يمكنه أن يقدم لنا من خدمات..
متوسط القامة.. ممتلئ الجسد.. أنيق الملبس.. فى حوالى الخامسة
والأربعين من العمر..

- (أمل الشافعى).. من محطة (asc) ..

و أشرت إلى (أحمد):

- (أحمد ممتاز).. مُعِد..

- (بابتسامة دبلوماسية): تشرفنا..

بطرف عيني لمحت (أحمد) يحدق فى وجهه بعينين متسعيتين..
بالحماس..!!.. ستفضحنا بنظراتك تلك أيها الـ!!..
أسرعت أنكلّم حتى أشئت إنتباهه.. أخبرته أن المحطة بصدد إعداد
برنامج جديد عن مستقبل الطاقة فى منطقة الشرق الأوسط خلال
السنوات المقبلة و..

- سيكون هناك العديد من خبراء الطاقة البتروليّة والنوويّة.. ويسعدنا
أن تكون ضيف البرنامج للحديث عن تجربة (إيجى - نيرجى) فى مجال
إستخلاص وإنتاج الطاقة المتجددة..

قال دون أن تفارق الابتسامة شفثيه:

- تشرفنى بالطبع المشاركة فى برنامجكم.. ولكن المشكلة هى أنّ وقتى
ضيق جداً، و..

دار نقاش روتينى بيننا لبعض الوقت.. كان الهدف من هذه الزيارة
هو أن أتُحقق من شخصيّة الرجل، وأن يتحقق (أحمد) من الوجه الذى
يراه فى أحلامه.. أعلم أن إقياىدى وراء تلك الهواجس قد يبدو لك يا

دكتور (حازم) عبثياً ساذجاً لا مبرر له، فضلاً عن كونه جالباً للمشاكل، كما حدث لى من قبل، ولا أخفيك سرّاً أننى بعد مكالمة (أحمد) لى - تلك التى أشار فيها لأوّل مرّة إلى العلاقة بين (يوسف محي الدين) والشخص الذى يراه فى أحلامه- لم أكترث له.. أنهيت المكالمة وأنا أنوى ألا أندخل فى هذا الموضوع مرّة أخرى.. غير أننى وفى ذات الليلة لم أستطع النوم.. ظللت طيلة الليل أسترجع توسلاته، وصوته الضارع وهو يرجونى أن أقف إلى جواره يتردد فى أذنى..

- أكاد أجن.. لم أستطع النوم طيلة الأيام الفائتة إلا لساعات معدودة.. كلما استغرقت فى النعاس، أرى هذا الرجل يلقي بى فى فرن مشتعل..

- حتى الأقراص المخدرة لم تجد معنى.. أتردين..؟.. بعد كل هذا، صرت أفكر كثيراً فى الموت.. لا أجد مخرجاً آخر من هذا العذاب..

لم أستطع النوم أنا الأخرى.. وكيف يمكن أن أنام، وأنا أعلم أن هناك من يتعذّب بهذه الصورة..؟.. نهضت من فراشى فتوضأت وصليت ركعتين، وجلست أقرأ القرآن.. بعد قليل كنت قد إتخذت قرارى..

(إنّ الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه).. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم..

- هناك شئ ما بالغ البشاعة حدث لـ (عمّار) ورفاقه فى محبسهم أكثر من مجرد السجن.. وهذا الأصلع هو المسئول عنه..

لكن..

حقاً يبدو كلامك هذه المرّة يا (أحمد) بعيداً جداً عن الواقع.. ويزداد بعداً وأنا أستمع إلى الرجل وهو يتحدث.. ما شأن (د.يوسف محي الدين) المدير التنفيذى فى (إيجى - نيرجى) بمجموعة من العمّال المعتقلين..؟!..!! الرجل يتحدث بطلاقة عن الطاقة المتجددة ومشروعات الشركة للاستفادة منها، ولا يبدو أن هناك ما يشغله سواها..

فلم يسطح خيالك بعيداً إلى هذه الدرجة..؟!..!!

هكذا صارت الفتى البائس برأى بمجرد خروجنا من مبنى الشركة..

- لا تدع خيالك يذهب بعيداً.. تذكر كلام الدكتور (حازم)..

كان رد فعله عصبياً..

- ألا تفهمين؟.. لا حيلة لي فيما أراه وأشعر به.. الرجل بالفعل متورط في عملٍ قذر يخص العمال البؤساء مهما بدا لك العكس..
- إذا كان المتحدث مხოولاً، فليكن المستمع عاقلاً.. أخبرني ما الصلة التي يمكن أن تربط هذا الرجل بمأساة العمال، وسأصدق كلامك..
صمت للحظة، ثم قال بلهجة غريبة:
- حالياً لا أعرف.. ولكنني سأفعل..

عند هذه النقطة، قررت أنني قدمت لـ (أحمد ممتاز) كل ما بوسعي أن أقدمه.. الفتى صار بالفعل بحاجة إلى علاج نفسي مكثف.. عدت إلى (الإسكندرية) ليستغرقني العمل من جديد.. وأثناء ذلك تكررت زيارات (إيهاب) لي أكثر من مرة.. إجتاحتني الدهشة بحق.. قبل أيام قليلة كنت أحيط نفسي بسياج من ذكريات حياتي السابقة يمنع أي محاولة للاقترب مني.. كنت أرى -كما ذكرت لك- أنَّ حياتي الفعلية إنتهت بوفاة زوجي وطفلي، وأنَّ ما هو قادم من الأيام ليس إلا تحصيل حاصل، وتأهبت لإستئنافها من هذا المنطلق.. ولكنَّ يا للعجب.. زيارة (إيهاب) لي ومكالمته الهاتفية لم تسبب لي نفوراً من أي نوع، بل على العكس وجدتني أسعد بها بل وأصبحت أنتظرها أيضاً.. تتحدث بالساعات، وترتسم إبتسامة راضية حنونة على شفتي أُمى وهي تراني متربعة على الأريكة وسماعة الهاتف ملتصقة بأذني.. أنصت.. أثرثر.. أضحك.. أرى إبتسامتها الدافئة فأجيها بأخرى من أعماق قلبي..

تعددت الزيارات والمكالمات.. صارحتني (إيهاب) برغبته في الإرتباط بي، وطلب مني أن أفكر في عرضه بروية ريثما يعود من (الرياض) إن شاء الله بعد شهر واحد يصفى خلاله ما تبقى من أعماله حتي يتسنى له أخيراً العودة إلى (مصر)، فوعدته بأن أمنحه جواباً محدداً عند عودته سالمًا بإذن الله..

مضى إسبوع أو أكثر، ثم استقبل بريدي الأليكتروني ذات صباح رسالة من (أحمد خشبة) مرفق بها ملف فيديو..

الجزء الثالث

الحقيقة

obeikandi.com

د. يوسف محي الدين

2 مليار نسمة في العالم لا يحصلون على حصتهم من الطاقة الكهربائية، وبالتالي ليس هناك حل سوى الاعتماد على الطاقة المتجددة لتمكين الناس من العيش بصورة أفضل..

بروفيسور (بيرين مايجارد) رئيس هيئة طاقة الرياح في العالم
والحاصل على جائزة (نوبل) في الإستخدام السلمي للطاقة
عام ٢٠٠٥

لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..

جزء من حوار تليفزيوني مع الدكتور (يوسف محي الدين) المدير التنفيذي لمشروعات (إيجي - نيرجي):
- دكتور (يوسف).. هلا شرحت لنا مدى حاجة (مصر) لإستغلال الطاقة المتجددة..؟..

- لجوء (مصر) لإستغلال طاقاتها المتجددة أصبح أمراً حتمياً ليس فقط من أجل التنمية الاقتصادية، بل لمنع كارثة طبيعية ناتجة عن التغيرات المناخية، ونضوب مصادر الوقود في العالم، وارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء، وذوبان الكتل الجليدية في القطبين الشمالي والجنوبي، مما سيؤدي إلى غرق المدن الساحلية المصرية الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ومدن الدلتا.. ما زال أماننا بعض الوقت لتجنب هذه الكارثة ولكن بأسرع ما يمكن، وذلك بانتقالنا من حرق الوقود إلى استغلال الطاقة المتجددة والمتوفرة بكثرة..

- وهل تمتلك (مصر) مصادر طبيعية مناسبة من الطاقة المتجددة..؟..
- بالفعل تمتلك (مصر) ثروات طبيعية كبيرة من الطاقة المتجددة

ممثلة في الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، فالشمس متعامدة عليها طوال العام، ولديها طاقة رياح هائلة تؤهلها للتصنيع المحلي للطاقة، وستؤدي لتنمية إقتصادية وصناعية واستغلال الطاقات المهدرة سواء كانت طبيعية أو بشرية..

- وهل هذه الطاقة المتجددة مستغلة بالشكل الأمثل...؟..
- بالرغم من أن (مصر) على رأس قائمة الدول الإفريقية الأغنى بالإمكانيات الطبيعية، إلا أن استغلالها لهذه الإمكانيات متواضع للغاية..
- هلا حدثنا عن إحدى التجارب الناجحة للاستغلال الإقتصادي للطاقة المتجددة...؟..

- في (ألمانيا) مثلاً أدى إستغلال طاقة الرياح إلى توفير ١٢٠ ألف فرصة عمل جديدة، وفي (الدانمارك) التي بدأت تنفيذ برنامج الطاقة المتجددة منذ عام ١٩٧٩ بسبب إرتفاع أسعار الوقود بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، أمكن توفير ٣٥ ألف فرصة عمل، وطاقة متجددة للتصدير بحوالي ٧ بلايين يورو، واستطاعت كذلك تحقيق معدل للنمو السنوي يصل لحوالي ٣٠ %..

- وهل تطمح شركة (إيجي- نيرجي) لتحقيق معدل استخدام أفضل للطاقة المتجددة المصرية...؟..

- (إيجي - نيرجي) شركة مصرية مدمجة مع واحدة من أكبر شركات الطاقة في العالم وهي شركة (نيو ميدل إيست فور إينرجي).. وهدفنا هو توفير استغلال أمثل للطاقة المتجددة في (مصر) وذلك لتحقيق نهضة إقتصادية وصناعية من خلال أبحاث علمية دقيقة وبالاعتماد على أحدث تكنولوجيا مستوردة في هذا المجال..
- وما هي خطتك لتحقيق هذه الأهداف...؟..

- قام الفريق البحثي الخاص بالشركة بعمل سلسلة من الأبحاث والدراسات الجغرافية والجداول الإحصائية، وبناءً على كل هذا قام الخبراء بتحديد مواضع إنشاء سلسلة من محطات استقبال واستخلاص طاقة الرياح بطول الساحل الشمالي المصري ومدن الدلتا و(القاهرة) والمدن المطلة على ساحل البحر الأحمر مثل (شرم الشيخ) و(الغردقة)، بالإضافة إلى عدد من لوحات التوزيع و٤ محطات محولات رئيسية..

وبالفعل تمكّنّا من تغطية ما يزيد عن ٢٠ مليون وحدة سكنية وصناعية وتجارية..

- وهل هناك خطط مستقبلية محددة؟..

- وضعنا خطة لزيادة عدد محطات الاستقبال ولوحات التوزيع، ونشرها في مواضع مختلفة مثل مدن وقرى الصعيد والمناطق النائية كـ (حلايب) و(شلاتين) و(شرق العوينات).. ونتوقع أن تغطي الجمهورية كلها في أقل من عامين..

- وماذا عن مدى تفاعل الحكومة المصرية مع مثل هذا المشروع الضخم؟..

- قامت الحكومة بالفعل بتوفير كافة التسهيلات الممكنة لإنجاز المشروع إقتناعاً منها بوطيئة أهدافه والمكاسب الهائلة التي ستعود على (مصر) من وراءه، وإننى لأنتهز الفرصة وأوجه الشكر لكل المتعاونين معنا، وعلى رأسهم السيّد رئيس الجمهورية..

- في النهاية نشكرك شكراً جزيلاً دكتور (يوسف) على الوقت الذي منحتّه لنا ولإجابتك عن تساؤلاتنا..
- (بابتسامة واثقة): عفواً..

بالطبع الدول النامية -ومنها (مصر)- ليس باستطاعتها شراء الطاقة، ولذلك عند ارتفاع سعر الطاقة سيكون هذا بمثابة النهاية للدول النامية..

بروفيسور (بيرين مايجارد) رئيس هيئة طاقة الرياح في العالم والحاصل على جائزة (نوبل) في الاستخدام السلمي للطاقة عام ٢٠٠٥

(التسجيل مُل تقط بواسطة كاميرا رقمية.. الصورة مهزوزة غير واضحة المعالم إلى حدٍ ما.. الإضاءة رديئة.. يظهر في منتصف الكادر رجل أصلع هو (يوسف محيي الدين)، مُقيّداً إلى مقعد خشبي.. عارى الجسد، وثمة دماء متجلّطة على جانب وجهه، وكدمة زرقاء حول عينه اليسرى)..

(الكامي را تقترب ببطء من الرجل المُقيّد.. صوت (أحمد ممتاز) يأتي من خارج الكادر.. من الواضح أنّه هو نفسه حامل الكاميرا)..

- تكلم.. أعد ما قلته لى منذ دقائق..

(برغم عدم وضوح الصورة، إلا أنّ ارتعاش شفّتيّ الرجل واضح)..

- (بصوت غاضب): قلت تكلم..

- (باستعطاف): سيقتلوننى لو فعلت..

(ومن خارج الكادر هوت قبضة شخص ما على جانب وجه يوسف.. يتأوه.. تتناثر قطرات من الدم على وجهه.. يبيكى بصوت مسموع)..

- وستموت هنا والآن لو لم تفعل..

(ضربة أخرى)..

- (بكاء حار):

- (بغضب): تكلم يا حيوان.. ماذا فعلتم بالعمّال..؟..

(الضربات تنهال على وجه يوسف و جسده.. الصراخ يتعالى)..

- إصرخ كما تشاء.. لن يسمعك أحد هاهنا..

ثم..

- (فتحى).. عينه..

(ملقعة يتصاعد منها البخار تقترب من وجه يوسف أسفل عينه اليمنى مباشرة)..

- (يصرخ): الرحمة..

- تكلم وإلا اقتلعنا عينك..

(الملقعة تكاد تلتصق بجلد الوجه)..

- (برعب): سأتكلم..

- ماذا فعلتم بالعمّال..؟..

- (برعب):

أرجو أن تقدر موقفى جيداً..

لست قاتلاً على الإطلاق.. ولا أستطيع ذبح دجاجة كما يقولون..

منظر الدماء يجعلنى أقيماً.. غير أن كل هذا لا شأن له بعملى فى (إيجى - نيرجى).. أنا أتعامل مع أوراق.. أرقام.. رسوم يابّية.. جداول إحصائية

على شاشات الكمبيوتر.. ولا أخالك ترى في هذا أى شئ غير مشروع.. أنا مجرد مدير تنفيذى لمشروع ضخم تشترك في تمويله رؤوس أموال هائلة وأسماء لامعة في عالم البيزنس.. آلا.. أرجوك لا داعى لمزيد من العنف.. سأشرح لك كل شئ.. فقط أزعج هذا النصل من على وجهى.. بدأ كل شئ أثناء فترة دراستى في (الولايات المتحدة الأمريكية).. الحقيقة أننى إنتقلت إلى الـ states لإستكمال الدراسة بعد انتهائى من دراستى بالجامعة الأمريكية في (مصر)، ويسّر ذلك لى ثراء أسرتى.. غير أنك تعرف بالطبع أن المال وحده لا يصنع النجاح.. لابد من الاجتهاد والاجتهاد الشديد.. وكنت أنا طيلة عمرى مثال للطالب المجد الذى لا يعنيه أى شئ في الحياة قدر تسجيل أعلى الدرجات والتقديرات..

إستغرق الأمر منى سنوات طويلة من العمل الشاق الدؤوب، صرت بعدها الدكتور (يوسف محي الدين) أستاذ الاقتصاد وعلوم إدارة الأعمال.. وخلال هذه السنوات أثارت ذهولى -كما كانت تفعل دوماً- العقلية الغربية شديدة التميز والكفاءة في إدارة المؤسسات المختلفة.. النظم الصارمة التى يخضع لها الجميع.. الديمقراطية.. الحرية.. الثقافة.. الاقتصاد الحر والسوق المفتوح الخاضع لقانون العرض والطلب.. إنبهرت بكل هذه المزايا، وقارنتها بالكم الهائل من الركام الفكرى الموروث الذى يجثم على العقلية الشرقية فيزيدها تخلفاً وراء تخلف.. لهذا يتقدم هؤلاء القوم وتراجع نحن..

غير أننى كنت مالكا لخياراتى.. أمامى أن أنطلق لأتحق بالعالم الحر المتمدين المتحضر، أو أن أعود لأغوص في وحل عالم قديم متخلف إنتهى أمره منذ قرون.. لأكون أحق ابن أحق لو ترددت لحظة.. حصلت بالطبع على الجنسية الأمريكية، وصرت مواطناً أمريكياً.. إنخرطت في العمل بمركز بحثى مرموق، وفي إحدى المنتديات الاقتصادية كان لقائى الأول بـ (كمال فودة) رجل الأعمال الأمريكى -مصرى الجذور - الشهير..

توطدت علاقتنا خلال جلسات المنتدى، وتحدثنا طويلاً عن النظم الاقتصادية الحديثة، ولاقى آرائى حول إقتصاديات السوق المفتوح إستحسانه.. وذات مرة تحدث إلى حول مشروع ضخم ذو طبيعة خاصة

ينوى البدء فيه..

obeikandi.com

ليس هذا مجرد مشروع إنتاجى عادى دكتور (محي الدين).. هذا بيزنس على أعلى مستوى، وقائم على تطبيقات لنظريات ودراسات علمية دقيقة في مجالات متنوعة كالطبيعة والبيولوجى والطاقة والاقتصاد..

لست عالماً متخصصاً في أي من هذه المجالات السابقة، فأنا رجل أعمال كما تعرف، ولكنى سأحاول أن أقدم ملخصاً وافياً عن طبيعة مشروعنا..

العلم يقول أنه ينبعث من كل منّا ما يُعرف بـ (السيال الحيوى).. وهو نوع من الطاقة الروحية تنبعث من أجسادنا طيلة الوقت، تؤثر بشكل أو بآخر على المحيطين بنا..

ألا تشعر أحياناً أنك ترتاح لفلان أو أنّ إعلان طلّته حلوة كما تقولون عندكم في (Egypt)؟.. وفى المقابل ألا تحس أحياناً بالنفور أو الإنقباض من أحد الأشخاص عند رؤيته ولو كانت للمرة الأولى؟..

ليست هذه المشاعر نوعاً من التخاريف أو المعتقدات البدائية.. السيلال الحيوى يلعب هنا دوراً هاماً في إحداثها.. وتأثيره يختلف من شخص لآخر، وكذلك قوة هذا التأثير..

نوع من الطاقة هو إذن.. طاقة حقيقية ملموسة وإن كانت رؤيتها غير ممكنة بالطبع إلا في مجال للأشعة تحت الحمراء.. ومادام الأمر كذلك، فهو كغيره من أنواع وأصناف الطاقة يمكن استخلاصه واستغلاله وفقاً لقوانين فيزيائية معينة..

هناك العديد من البحوث الشهيرة التى تحدثت عن السيلال الحيوى، ولكن أهمها بالطبع الدراسات التى أجراها العلماء اليابانيون.. تلك الدراسات التى كانت نقطة البداية التى إتخذها علماء (هالبرتون) - وهى مؤسسة بحثية أمريكية خاصة- لبحث وسائل استخلاص هذه الطاقة، وكيفية الاستفادة منها..

لن أصدع رأسك بكثير كلام عن عشرات الدراسات ومئات التجارب التي جرى إجراؤها على مدى سنوات طويلة.. فقط سأحدثك عن النتيجة النهائية التي توصلوا إليها، وهى أنّ هذه الطاقة يمكن استخلاصها بسهولة من الأجساد المحتضرة.. إستخلاصها وتخزينها في أنابيب مجهزة خصيصاً لهذا الغرض..

كانت التجارب الأولى تُجرى على حيوانات التجارب كالقُرآن والقردة والخنازير.. يتم توصيل الأقطاب والأنابيب بأجسادها، ثم حقنها بمنشطات قوية للقلب، تدفع قلوبها إلى الخفقان بقوة تعجز عن تحمّلها فتتوقف.. كان الحيوان يلقي مصرعه، فتتدفق طاقته الحيويّة في الأنابيب لتتجمّع في أنبوبة رئيسيّة تحمل رقم التجربة.. وهكذا ظلت التجارب تُجرى على هذا المنوال، حتى اقترح البروفيسور (ديفيد جولدمان) -رئيس فريق العلماء- تنويع وسائل قتل حيوانات التجارب، وقياس معدلات طاقة السّيال الحيوى المنبعثة عند كل وسيلة.. وكانت المفاجأة..

الحيوانات التي ماتت غرقاً أو حرقاً أو سلخاً أو صعقاً بالكهرباء أو.. أو.. بلا بلا بلا.. سجلت معدلات انبعاث للطاقة الحيويّة أعلى بمراحل من الحيوانات التي ماتت بعد حقنها بالأنسولين أو منشطات القلب.. لا أقل من أضعاف أضعافها.. وكلما زادت فترة الاحتضار، زادت كمّيّة الطاقة التي نحصل عليها..

ثم كانت الخطوة التالية هى البدء في إجراء التجارب على نوعية مختلفة من حيوانات التجارب..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

لا أحب أن أدخل في جدل أخلاقي حول مدى بشاعة قتل إنسان

للحصول على سياله الحيوى.. لست واعظاً ولا رجل دين.. ولكن بصدق أقول أنّ العيّات البشريّة الّتي قامت مجموعة البحث بتعذيبها لإنتزاع طاقتها الحيويّة كانوا موق من الأساس.. لا.. لا أعنى بذلك أنّهم كانوا مرضى بأمراض قاتلة.. ولكن نظرة واحدة إلى هويّاتهم أو أحوالهم تكفى لجعل كلامى مفهوماً..

مهاجرون غير شرعيون من (المكسيك) و(الصين) و(باكستان) و(مصر) والعديد من الدول.. عناصر إرهابيّة ذات أصول عربيّة ثبتت عليهم تهمة الإرهاب، وتجاهلتهم بلادهم تماماً.. مدمنى المخدرات ومرضى الإيدز.. كل هؤلاء وغيرهم كثير عناصر بائسة فى المجتمع لا فائدة منها، ومضارها عديدة، والأمل معدوم فى أن ترتقى وتلعب دوراً فى بناء أى مجتمع.. أى أنّهم عملياً لا يزيدون فى شئ عن حيوانات التجارب الّتي تُجرى عليها البحوث.. فما المشكلة إذن فى الاستفادة من موتهم مادامت حياتهم غير ذات فائدة..؟..

قد يقول قائل أن هناك ظروفاً عديدة تسببت فى الحالة الّتي صار عليها هؤلاء كالفقر والجهل والدكتاتوريّة، وأنّهم غير مسئولين مسئوليّة كاملة عمّا هم فيه.. هذا أقول له أننى لست باحثاً اجتماعياً.. أياً كانت الأسباب فهى لا تهمنى.. لدينا هنا مخلوقات نبذها العالم لسبب أو لآخر، فلا مانع من استغلالها كما تُستغل الحيوانات.. بل لعل هذا يجعل لها قيمة أكثر مما هى عليه لو تُركت وشأنها..

وفقاً لهذا المنطق بدأت مجموعة البحث فى (هالبرتون) فى إستخراج طاقة السيلال الحيوى من حيوانات تجارب بشريّة.. فما كانت النتيجة..؟..

مدهشة بكل المقاييس.. لا أستوعب الكثير من التفاصيل العلميّة ولكن ما عرفته أن الطاقة الحيويّة المستخرجة من الأجساد البشريّة المحتضرة أبدت قابلية فائقة للتأين الكهربى، وهو ما يعنى أنّ هذه الطاقة قابلة للتحويل بسهولة إلى طاقة كهربيّة..

دعنى أعطيك مثلاً لتوضيح كلامى..

obeikandi.com

من الصباح للمساء.. والمطرقة فيدى..
 صابر على دى الأساء.. حتى نهار عيدى..
 إبن السيل انكسى، واسحب هراييدى..
 تتعروا من مشيتى..
 واخجل أخطبكم..
 بيرم التونسى

الساعة السابعة صباحاً..
 رنين الجرس يدوى فى جوانب العنبر.. موعد الطعام.. أحشائى تتقلّص
 من الجوع..
 أنهض من على فراشى مستنداً إلى ذراعى السليمة.. أتحرك ببطء نحو
 الفتحة المستطيلة الموجودة بين قضبان ززانتى والمخصصة لمناولة
 طبق التعيين.. مددت يدي.. تناولت الطبق من يد الحارس النوبتجى،
 وناولته طبق عشاء الأمس.. لم ينظر إلىّ مطلقاً.. ناولنى طبق الطعام
 وكأنّه يلقي بالبرسيم إلى دابة فى حظيرة..
 ززانة ضيقة تلك التى أشغلها.. لا تزيد مساحتها عن مترين فى مترين..
 محتوياتها قليلة لا تزيد عن فراش.. مرحاض بلدى مزود بسيفون.. ولا
 شئ آخر..
 متى تم نقلنا من المعتقل..؟.. لا أذكر بالضبط.. أعتقد أننا لم نمكث
 فيه أكثر من أربعة أيام.. وفى الليلة الخامسة، تم شحننا (حوالى مائة
 عامل) فى سيارتى نقل إلى هنا..
 ظللنا جالسين تتبادل النظرات لما يقرب من ثمانى ساعات كاملة حتّى
 شعرنا بالسيّارتين تتوقفا.. مرّت ثوانٍ ثم انفتحت أبواب الصندوق
 الخلفى لكل سيّارة (حيث نجلس)، وغشى ضوء النهار أعيننا..
 مازلنا قرييين من البحر.. هذا مؤكد.. صحيح أن تلك الأسوار العالية
 تحجب أى شئ خارجها، إلا أننى ميّزت رائحة البحر المشبعة باليود..

وقفنا منتظمين في أربعة صفوف.. سيّارتا النقل اللتا جلبتانا إلى هنا متوقفتين على مسافة ليست بالبعيدة.. العشرات من الجنود يحيطون بنا حاملين أسلحتهم..

المكان من حولنا محصور بين أسوار خرسانية -هكذا بدت لي- شاهقة الارتفاع.. أمامنا مباشرة مبنى صغير مكون من طابقين، متصل بممر مسقوف بمبنى آخر هائل الحجم تحيط به صفوف من الأبراج المعدنية المتصلة بعدد من الأسلاك..

الشمس تحرق رؤسنا والإرهاق بلغ ممّا مبلغه.. كم مر علينا ونحن هنا وقوف..؟.. لا أدري.. لم أشعر إلا والجنود يقتادوننا عبر ممرّات طويلة مضاءة بالنيون داخل المبنى الكبير.. نسير.. نسير..

- إحنا فين بالطبط..؟..

تساءل (عاشور).. لم يجب أحد بالطبع لأنّ أحداً لا يملك جواباً.. ليس هذا بالسجن أو المعتقل.. صحيح أنّنا نقضى الليل في زنازين، إلا أنّ هذه الزنازين تختلف عن مثيلاتها في السجون الأخرى.. عرفت مساجين عديدين حكوا لي عن فترات سجنهم.. لم أسمع من أى منهم عن زنازين انفراديّة خمس نجوم مزوّدة بدورات مياه.. قال (طحلاوى) وهو يمزغ طعامه:

- آنى أول مرة نسمع عن سجن بينزل رز وخضار ولحمة يوماتي للمساجين..

وبصق (فرحات) على الأرض قائلاً:

- إحنا كده مش ناقصنا غير الدخان ونبقى ميت قل وعشرة.. التدخين غير مسموح به هنا.. شئ غريب أيضاً لم أسمع به ممن حكوا لي عن تجاربهم في السجون..

جالسين في الفناء نستدفي بحرارة الشمس من برد الشتاء القارس.. كم مضى علينا في هذا المكان..؟.. شهرين أو ثلاثة.. أزعم أنّي لولا قلقي على المرأة والعيال لكانت هذه الأيام هى الأكثر راحة لي منذ بدأت العمل في ورشة الأسطى (طه) قبل خمس وعشرون عاماً..

- إحنا فين بالطبط..؟..

تساءل (عاشور)، وهو ينظر تجاه الرئيس (حمدي)، الذي ظل صامتاً
للحظات، قبل أن يقول ببطء:
- منيش عارف.. بس الفار بيلعب فد عي..

في تلك الليلة حدث أمر رهيب..
تميل غريب سري في أطرافي.. في جسدي كله.. لا أقوى على تحريك
إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟ هل أصبت بالشلل..؟ أم لعلّه
الموت..؟
أرقد على فراشي.. عيناى مثبتتان على سقف الزنانة.. البرد شديد..
شديد.. لابد أنه الموت قادماً.. رغماً عني ملأتني الفكرة خوفاً..
وشعرت بدمعة باردة تغادر مقلتي..
هل هذا صحيح..؟ أأنا ميّت حقاً..؟ هل هذا هو ما يحسه
الموتى..؟
لا ألم هنالك.. تنفس..؟ نعم تنفس.. أنا أتنفس.. إذن فأنا حيّ..
مازلت حيّاً.. حمداً لله..
عبثاً أحاول تحريك أطرافي بلا جدوى..
كلينج.. كلينج.. (صوت باب الزنانة إذ يفتح)..
وجه يطل على من أعلى.. لا أرى بوضوح.. الصورة أمامي مهتزة كأنها
هى مطبوعة على صفحة ماء..
جبهة عريضة.. عيناى ضيّقتان.. يميل على.. إصبعان يمتدان ليفتحا
عيني اليمنى على اتساعها.. العيناى الضيّقتان تحدّقان بتركيز..
الوجه يتعد عي.. بصعوبة أسمع الصوت وكأنّه قادم من أعماق
بئر سحيق:
- خذوا هذا..

لم يكن عدد العساكر كبيراً من حولنا.. ولكن الواحد منهم طول
بعرض مثل ضلفة الدولاب.. منتفخ العضلات.. يرتدى زياً أسود يشبه
زيّ القوّات الخاصة.. البندقية معلقة خلف الظهر.. جهاز اللاسلكي
يتدلّى من الحزام، وإلى جواره جهاز آخر لم أعرف وظيفته في البداية،

غير أنني رأيت أحد العساكر يستخدمه عندما تشاجر (عاشور) معه ذات مرّة..

(عاشور) ليس ضعيفاً.. عضلاته مفتولة وقلبه ميّت لا يخشى شيئاً.. لا أذكر سبب المشاجرة.. لربما وجّه العسكرى السباب له أو العكس.. الأرجح أن (عاشور) هو الذى تحرّش بالرجل، ربما كنوع من جس النبض أو اختبار رد فعل المسؤولين عن المكان.. المهم أن صوتيهما تعالياً، وسمعت السباب البذئ يتدافع من فم (عاشور)، قبل أن يتشابكا بالأيدى.. لمحت العسكرى يسحب ذلك الجهاز من حزامه و يدفعه في صدر (عاشور)، وفي اللحظة التالية رأيته - (عاشور) - يسقط أرضاً، وجسده ينتفض بعنف.. فيما بعد فهمت أنّ هذا الجهاز الصغير هو صاعق كهربى..

تجمّدنا في أماكننا لثوان، قبل أن نندفع نحو الجسد المرتعش.. إلّ تفّ البعض حول العسكرى يريدون الفتك به، ولكن عشرات العساكر ظهروا بغتة، وراحوا يهوون على الرؤوس والأجساد بهراواتٍ قصيرة..

الألم لم يكن هيباً على الإطلاق.. الضوء الأبيض الباهر يخترق حدقتيّ عينيّ فيحرقهما.. أحاول إغماضهما بلا جدوى.. الممر طويل.. طويل..

مصاييح النيون المثبّته في سقف الممر تتوالى أمام عينيّ.. ممدداً فوق تروللى ولا أشعر بجسدى على الإطلاق.. أميّز الأصوات من حولى جيّداً.. أزيز مصاييح النيون.. أصوات احتكاك عجلات الترولى ببلاط الممر.. أنفاس ذلك الذى يدفع الترولى.. خذوا هذا..

قالها الرجل الذى أطلّ علىّ في الزنزانة.. يأخذوننى إلى أين..؟.. وما الذى سيفعلونه بى..؟.. وما سرّ هذا الشلل الذى سيطر على جسدى..؟.. أنا خائف..

المزيد من المصاييح.. المزيد من الضوء الأبيض.. المزيد من الألم.. لم يعد لدىّ سوى الأئين..

الأئين المحبوس فى الصدر بلا أى قدرة على إطلاقه..

ذات يوم إكتشفنا اختفاء (طحلاوى)..
إقتادنا الحراس بعد الإفطار كما هو الروتين اليومى إلى الفناء.. جلسنا
نرتجف من البرد، والبخار يتكاثف حول أفواهنا وأنوفنا.. ثم تساءل
الرئيس (حمدى) بغتة:
- أمال فىن (طحلاوى)..؟..
تلفتنا حولنا، نبحت عنه.. بالفعل لم يكن موجوداً..
- (عبده).. إنت زنراتك جنب زنراته.. ماشفتوش النهاردة..؟..
- لا والله يا رئيس.. أنى لقيت زنراته فاضية وأنى خارج، ففكرته سبقى..
- أمال راح فىن..؟..

رائحة غريبة -تذكرنى برائحة المستشفيات- تملأ أنفى.. سقف أبيض
ناصع.. مصباح نيون مستدير.. عيناى اعتادتوا الضوء إلى حد ما.. وجه
أثوى رائع الجمال ينظر إلى من أعلى.. عيناى زرقاويتان .. أنف دقيق..
فم مكتنز.. بشرة شاحبة قليلاً.. شعر أشقر ناعم.. معطف أبيض
كمعاطف الأطباء.. هل هى طبيبة..؟..
أصابعها تعمل بسرعة.. تقيس حرارتى.. تسحب عينة من الدم
واللعاب.. أرغب بشدة فى أن أسألها عما حل بى.. ولكنى لا أستطيع
بالطبع.. تختفى من أمامى.. أسمع صوت خطواتها تتحرك جيئةً
وذهاباً.. ثم أسمع الصوت الرقيق لأول مرة:
..positive -

فى الأيام التالية تكررت حوادث الاختفاء..
العديد من العمال راحوا يختفون دون سابق إنذار.. طلبنا مقابلة
البك الضابط، ولكنّه رفض مقابلتنا.. ثرنا، وقامت مشاجرات عنيفة
بيننا وبين الحراس، ولكن الصواعق الكهربيّة حسمت الأمر تماماً..
وكان من جراء هذه المشاجرات أن عوقبنا بحرماننا من الساعات
اليوميّة الّتى كنا نقضيها فى الفناء نستدفئ بحرارة الشمس.. أغلقت

الزنازين علينا، وقبعنا فيها نرتجف من شدة البرد.. ظللنا على هذا الحال لما يقرب من إسبوع، حتى جاء ذلك اليوم..

- positive..

لا أفهم ما قالته..؟.. هل أنا سليم..؟.. إذن ما سر هذا الشلل الذي أصابني..؟..

لم تدع لي فرصة للتساؤل.. وخزة مؤلمة قليلاً في ذراعي.. أئن بصمت.. بم تحقنني أيّتها العاهرة..؟..

وجهه ممتلئ أصلع ذو نظّارات يلقى نظرة ثابتة على وجهي.. يربت على رأسي.. يقول بصوتٍ عميق:

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..

ما معنى هذا..؟.. هل سيجرون لي جراحة..؟.. لماذا..؟.. لعلاج هذا الشلل..؟.. "قليل من الألم" هو قال هذا..؟.. إذا كانوا سيجرون لي جراحة فهل سيفعلون من دون تخدير..؟..

أشعر بأحدهم يدفع التورللي من جديد عبر ممر قصير.. نصل لغرفة صغيرة.. أيدي عديدة تنزع عني ثوبي.. لحظات ثم صرت عارياً كما ولدتني أُمي..

كان الوقت عصراً، والجو شديد البرودة، عندما سمعت صوت باب الزنّانة يفتح.. إعتدلت في فراشي، ونظرت إلى الحراس الثلاثة الواقفين على باب الزنّانة.. أشار إليّ أحدهم قائلاً:

- ياللا معانا..

تساءلت:

- على فين..؟..

- (باقتضاب): العيادة..

- خير فيه حاجة..؟..

- هاتعرف هناك..

نهضت معهم.. وفي العيادة، إستسلمت للطبيب الذي راح يجري عليّ مجموعة من الفحوصات.. عينة من الدم.. عينة من البول.. قياس

الحرارة.. أشعة على المخ والبطن.. إلخ.. سألته بقلق:

- إيه الموضوع يا دكتور..؟..

أجاب وهو يغرس إبرة محقن في ذراعي:

- ولا حاجة يا (عمّار).. بنطمّن على صحتك بس..

- ولقيت حاجة..؟..

- (مستمر في الحقن): صحتك زى الفل..

لم أطمأن.. شئ ما في لهجته لم يريحني.. كان يتجنّب النظر في عيني مباشرة..

- وإيه اللي بتديهولى ف الحقنة ده..؟..

- (يسحب الإبرة): مقوّيات..

أعادوني إلى الزنانة.. وبعد دقائق بدأت أشعر بتلك الأعراض..

تميل غريب سري في أطرافي.. في جسدي كلّ.. لا أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل أصبت بالشلل..؟.. أم لعلّه الموت..؟..

مبتتاً بأربطة جليدية إلى ذلك المقعد الصلب البارد كالثلج.. عدد من أصحاب المعاطف البيضاء يتحرّكون من حولي.. أياد تتحرّك بسرعة على جسدي العاري.. عشرات الإبر والأقطاب تُثبت إلى جسدي.. عدد هائل من الأسلاك يدور حول المقعد، و يتصل بالإبر والأقطاب المثبتة إلى جسدي..

رعب هائل يكاد يذهب بعقلي.. أود أن أصرخ.. أضرب.. أهرب بعيداً.. بعيداً..

ماذا تفعلون بي يا ولاد الكلب..؟.. ماذا تفعلون..؟..

شعرت بأحدهم من خلفي يثبت شيئاً ما حول رأسي، ثم لمحت الواقف أمامي يشير له بقبضة مضمومة وإبهام مرفوع، قبل أن يتحرك من أمامي لأرى من ورائه إسطوانة ضخمة في حجم أنبوبة البوتجاز، مكتوب عليها أرقام بالانجليزية قرأتها بصعوبة..

..(2552005)

وفي اللحظة التالية سمعت الصوت الأثوى (لعلّه صوت المرأة الشقراء) يأت من خلفي.. ترطن بكلام لا أفهم منه شيئاً.. فقط رأيت جميع الموجودين يغادرون المكان، وسمعت صوت باب يُغلق من خلفي، لأغرق في ظلامٍ دامس..

رغمًا عني، راحت الدموع تسال ببطء على وجهي.. أصعب شيء ألا تدري ماذا يحدث لك.. هأنذا في نهاية المطاف مشلول عاجز مُقيّد، غارق في الظلام، لا أرى، ولا أفهم شيء مما يحدث لي.. صمت تام في المكان إلا من أصوات أنفاسي الثقيلة.. تذكرت (محفوظة) والطفلين.. ترى هل مُقدّر لي أن أراهما مرّة أخرى قبل أن أموت..؟.. كيف سيعيشون من دوني..؟.. ما الـ.. آسى..

- أبوكو غَرَقَ يا عيال..

قالتها أُمّي صارخة، وراحت تلطم على خديها.. إخوتي من حولي يكون ويصرخون، وأنا -ذو الأعوام الثلاثة- متعلّق بجلباب خالي.. لا أفهم شيئاً مما يدور حولي، ولكنني أرتعش من الخوف.. أسمع خالي ينهر أُمّي كي تتوقف عن اللطم والعويل..

- ابن الكلب صاحب العبّارة هرب على بلاد برّة، ومحدث هايعرف ياخذ منه لا حق ولا باطل..
- يعنى الراجل مات، وملوش دية..

جسدى ينتفض بعنف.. ألم بشع يسرى في جميع أعضائى.. أجز بقوة بأسناني فأقضم لسانى.. مذاق الدم في فمى.. لمبة صغيرة تعلو أنبوبة البوتجاز أمامى تضئ بضوء أحمر..
الكهرباء تمرّق جسدى.. ألم رهيب.. أنتفض..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شيء بيدى سوى الأئنين.. الأئنين..
والمزيد من الأئنين..

كنت أعبث بالحصى، محاولاً أن أصنع منه كومة على التراب، عندما

شعرت بذراع أمى يطوّقنى، ويرفعنى عالياً.. أجفّلت صارخاً:
- فى إيه يامّا..؟..

لم ترد.. راحت تجرى فى الحارة، بينما ذراعها الآخر متشبّت بسبّبت
الكُرّات والفجل والليمون.. عديدون من حولها كانوا يجرون أيضاً..
عم (نفادى) بائع الطرشى.. عم (جرجس) صاحب نصة الشاي.. (أم
مجدى) بتاعة الحمام..
- فى إيه يامّا..؟..

لم ترد.. سمعت أصوات سرينة وضجيج عال.. أدّرت رأسى فرأيت تلك
السيّارة الكبيرة تتوقف فى مدخل الحارة، وّعدة رجال ضخام يقفزون
من صندوقها الخلفى.. الناس تحاول الهرب من أمامهم.. يمسون
بـ (عراى) بتاع الكشرى.. يصرخ مستعطفاً.. يلقون به فى البوكس، ثم
يدفعون عربته.. يلطم على خديه مولولاً، بينما أوانى المكرونة والعدس
والصلصة تسقط وتسكب على الأرض.. يرفعون العربة إلى صندوق
سيارتهم..

- فى إيه يامّا..؟..
لم ترد.. الرجال الضخام يمسون بالناس، ويجمعونهم فى البوكس..
الكثير من الضجيج.. الكثير من الصراخ والعويل.. كف ثقيلة تقبض
على كتف أمى وتجذبها للخلف، فتكاد أن تسقطنا أرضاً..
- رايحة على فىن يا مَرّة..؟..

سقط السبّبت من ذراع أمى، ورأيت ثمار الليمون والكُرّات والفجل
تتناثر على أرض الحارة، فتدهسها أقدام الفارين..
- أبوس رجلك يا باشا.. أنى بنجرى على يتامى..
قالّتها أمى مستعطفة، وأهوت لتقبل حذاء الرجل، الّذى جذبها
بقسوة صائحاً:

- قومى يا بنت الـ (....) مش فاضينليك..
حاولت المقاومة، ولكنه لم يرحمها.. دفعها بقوة نحو السيّارة،
فسقطت على وجهها وسقطت معها، وأنا أصرخ باكياً:
- فى إيه يامّا..؟..

إبر ملتهبة تخرج من الكرسي الذى أجلس عليه.. تنغرس في أردافى
ومؤخرتى.. ألم فظيع فظيع.. يتصاعد في أنحاء جسدى ليصل إلى
رأسى.. البلل يغمر أردافى.. لربما كان دماً أو بولاً.. لا أعرف..
اللبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدى سوى الأئنين.. الأئنين..
والمزيد من الأئنين..

يقع بيتنا في بدروم عمارة الحاج (عبد السلام كرواية).. ليست المشكلة
في الرائحة الخانقة أو الرطوبة التى نخرت عظامنا..
ليست في الشمس التى لا تدخل المطرح عبر تلك النافذة الضيقة
الوحيدة والتى تعلو رصيف الشارع بشبرين ثلاثة..
ليست في أن المطرح عبارة عن حجرة واحدة تشارك فيها أنا وأمى
وإخوتى (٣ بنات وولد آخر).. ولا في أنه ليس لدينا كنيف، وأنا نستخدم
دورة مياه عمومية في الميدان..
المشكلة الحقيقية هى المجارى.. كل يوم والتانى نصحو لنجد أنفسنا
غارقين في مياه الصرف التى ملأت الشارع، وتسالت إلى المطرح من
الشباك لتغرقه.. نهض سابين لاعنين.. الرائحة خانقة قذرة إلى حد
لا يُحتمل.. نخلع ثيابنا، ونبدأ في محاولات لسد النافذة، ونزح المياه
القذرة التى تغطي الأرض التى ننام عليها..

الآن صار المقعد نفسه ملتهباً ساخناً.. الألم لا يوصف..
الدخان.. أشم رائحة لحم محترق.. لحمى..
اللبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدى سوى الأئنين.. الأئنين.. والمزيد من الأئنين..

الحارة مليئة برجال الشرطة..
هتف الأسطى (طه) صاحب الورشة:
- بس ده كده يبقى قطع ارزاق يا سعادة الباشا..
قال الضابط بخشونة:
- إنت عايز تخالف التعليمات..؟..
- لا وربنا يا باشا.. الست هانم تانس وتشرف وتنور.. وان ماشالتهاش
الأرض نشيلوها ف رموش عينا.. بس آنى عندى طلبات ف الورشة، ومعاد
تسلميها بكرة، ولو ماسلمتهاش ف معادها هایتخرب بيتي و..
لكزه الضابط في صدره مقاطعاً:
- (بعصبيّة): إنت هاتحكيلى قصة حياتك..؟.. مايتخرب بيتك اللا بيت
أبوك أنا مالى..
- (بضراعة): بس يا باشا..
- إخلص يا (..) امك.. الورشة تتقفل دلوقت واللا نشمعهها لك والله..
وابقى اشتغل براحتك بعد الزيارة الزفت ماتخلص..
كتّا واقفين بالقرب منهما.. إلتفت الأسطى (طه) إلينا صائحاً:
- مستنى إيه يا (....) منك له..؟.. هاتوا ضلفها وغوروا ف ستين داهية
حسبى الله ونعم الوكيل..
كان هذا في الصباح الباكر، بينما رجال البلديّة يغرسون الأشجار
الصناعيّة، ويقيمون صواناً فاخراً إستعداداً للزيارة التاريخيّة-كما قالوا
لنا- الّتي ستقوم بها السيّدة العظيمة بصحبة السيّد المحافظ والسادة
المسؤولين لمعاينة الحىّ ودراسة مشكلاته على الطبيعة..

الجسم صلب.. مدبب.. ملتهب.. أشعر به يرتفع ببطء من قاعدة
الكرسى لينغرس في فلقة مؤخرى.. يخرقها كما يخرق السكين قالب
الزبد الفلاحى.. الدم -دمى- يتفجر كالنافورة من مؤخرى.. رائحة
البراز..

الألم رهيب.. رهيب..
اللّمة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر..
أحاول أن أتحرك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أُصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدي سوى الأئين.. الأئين..
والمزيد من الأئين..

”يا أيُّتها النفس المطمئنة. إرجعى إلى ربك راضيةً مرضيةً. فادخلى فى
عبادى وادخلى جنّتى“
صدق الله العظيم..

إنتهى العزاء، وانصرف المعزّون، وتم فك الصوان..
راقداً على ظهرى فى الظلام.. صدرى يعلو و يهبط من الإنهاك.. كان
يوماً عصبياً بالفعل.. التّغسيل.. الصلاة.. الدفن.. العزاء.. بالقرب من
ركن المطرح أسمع صوت أنين أمى تبكى ابنتها الراحلة..
لكم أحببت شقيقتى.. كنت آخر العنقود، وكانت تكبرنى بعامٍ واحد،
لذا فقد كانت بيننا صلة من نوع خاص تختلف عن صلتنا بباقى إخوتنا..
مودّة أخويّة صافية تحمل شئ من مشاعر الإمومة كانت تغمرنى بها..
عندما أفكر فى الحيوان المسئول عن ترك عمود الإنارة مفتوحاً لتخرج
منه تلك الأسلاك العارية أكاد أجن.. ما كان يضره لو أتقن عمله قليلاً،
قام بتغطية فتحة العمود ..!!؟..

إهمال بسيط فى العمل.. الأسلاك خارجة من العمود تحمل الموت
على أطرافها.. الناس تمر بها دون أن تعيرها انتباهاً.. وحدها أختى
تتعرّ عند مرورها بجوار العمود.. تمد يدها لتستند إليه لتحفظ
توازنها و..

«يا حبيبتى يا بنتى..»

- نعملكو إيه..؟.. ده نصيبها.. إعترضوا بقى على قضا ربنا..
كذا صاح الموظف عندما ذهبنا طالبين مقابلة رئيس الحى.. بلاغ فى
الشرطة.. ثم..

- ماتضيعوش وقتكوا..

قالها أحد أولاد الحلال، فسأله (إسماعيل) أخى الأكبر عن السبب..
- العالم دى واقفة تسند بعضها.. عندهم الفلوس والورق
والمحامين.. وهايعرفوا يخرجوا م الحكاية دى زى الشعرة م العجين..

- طب ودم البت الى راحت..
- يعوض عليكوا ربنا..

.....

.....

.....

.....

الألم رهيب.. رهيب..
الللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدي سوى الأئين.. الأئين..
والمزيد من الأئين..

«أنا امي لَمّا ماتت مازعلتش وحمدت ربنا.. عارفة ليه..؟.. أصلها
اتعذبت أوى قبل ما تموت.. كان عندها المرض الوحش بعيد عنك..
كنت بنقعد قدامها وهى بتتوجع وقلبي يبتقطع.. نبكى ونقولها آنى
فداكى ياما.. مآنى ماكانش حيلتى غير الكلام و البكا بعد ما الداكتور ف
المستشفى الميرى قال انّه مافيش فايده م العلاج»

.....

.....

.....

.....

الألم رهيب.. رهيب..
الللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدي سوى الأئين.. الأئين..

ليه تهدمونى ونا اللى عزكم باني..
أنا اللى فوق جسمكم قطنى وكتانى..
عيلتى فى يوم دفنتى مالقيتش أكفانى..
حتى الأسية.. ونا راحل وساييكم..
بيرم التونسى..

obeikandi.com

لكل مئاً أخطائه.. هذا مؤكد..

لكن حين تمدد (منير باشا فودة) -جدي- على الشيزلونج الوثير على ظهر الباخرة (مليكة) المبحرة إلى (مونت كارلو) يدخن سيجاره ويرقب شاطئ (الإسكندرية) وهو يتعد رويداً رويداً، كان موقناً في أعماقه أنه لم يخطئ..

العام ١٩٥٦.. العسكر أحكموا قبضتهم على كل شبر في البلد.. الملك وحاشيته غادروا إلى (أوروبا).. الألقاب والامتيازات والممتلكات ذهبت.. فقيم بقاءه هو..؟..

كان حاد الذكاء بعيد النظر.. أدرك أن الأمور من بعد حرب (فلسطين) لن تستقر إلا قليلاً.. ربما كان السطح هادئاً بعض الشيء، ولكن ما تحته يغلي بشدة توطئةً للانفجار.. الانفجار الذي سيلتهم كل شيء.. السراى والحكومة والأحزاب والباشوات ولربما الاستعمار ذاته.. لذا فلم يضع وقتاً..

«قرار رئيس الجمهورية بتأميم قناة (السويس) البحرية شركة مساهمة مصرية»..

بدأ يصفى أعماله بشكل تدريجي ويحولها إلى أموال سائلة، ينقلها إلى بنوك مختلفة في (أوروبا) و(أميركا).. في خلال عامين كان قد هرب ثلاثة أرباع ثروته خارج (مصر)، وترك الربع الباقي لتغطية نفقات أسرته ومرتبات موظفيه كيلا يثير شبهة السراى أو أى جهة قد تترصد له.. سطح الباخرة من حوله يعج باليونانيين والإيطاليين واليهود.. الكلمات تنهمر كالمطر بلغات ولهجات مختلفة، ولكن لكنة الحزن مشتركة في جميع الأحاديث.. كلهم حزين لإضطراره الرحيل..

والآن وهو يلقي نظرات الوداع الأخيرة على (الإسكندرية) المبتعدة في ضوء الغروب الحزين يمتزج في قلبه شعورٌ بالأسى لفراقها -وهى المدينة التي شهدت أجمل أيامه- والراحة لنجاحه في تأمين مستقبل

ولديه (حسن) و(فريدة) بما استنقذ لهما من أموال.. سيقضى بعض الوقت في (مونت كارلو) على سبيل التسيّرة عن النفس، ثم ينطلق بعدها إلى (نيويورك) حيث تنتظره حياة جديدة ووجوه جديدة وأعمال جديدة في ذلك البلد الواعد المبشر بفرص رائعة..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

لو أقيمت -عزيزى (محيى الدين)- نظرة داخل البوتقة (المصطلح الذى نطلقه على الغرفة المخصصة لإنزاع السبال الحوى من العيّنة) على البطاريّة المتصلة بالمقعد الذى ثبت إليه العيّنة لوجدت أسلاكاً دقيقة تخرج منها لتغادر المكان من خلال أنبوب مخصص لها في الجدار.. هذه الأسلاك تحمل طاقة السبال الحوى المخزنة لتنقلها داخل الأنبوب عبر ممر رأسى court خاص يصعد بها طوابق المبنى حتى تصل إلى قدس الأقداس أوغرفة المحوّلات..

تقع غرفة المحوّلات في الطابق الأخير من (هالبرتون)، وتتمتع بنظام تهوية وتبريد آلى خاص.. جميع خطوط الأنابيب القادمة من البطاريّات المختلفة تصب في المحوّل الذى يستقبل الطاقة الحيويّة، ويبدأ في تأيينها باستخدام شحنات مضادة.. يتم التأيين على عدة مرّات، وفي النهاية تخرج الطاقة الكهربيّة الصافية من الجانب الآخر من المحوّل ليتم توزيعها على الخلايا الكهربيّة..

كانت هذه الإكتشافات هى ثمرة ست سنوات متواصلة من البحث والتجارب في المختبرات المغلقة.. وإذا كانت المرحلتين الأولى (إستخلاص السبال الحوى وتخزين طاقته) والثانية (تأيين هذه الطاقة وتحويلها إلى طاقة كهربيّة) قد استغرقت هذه السنوات الست، فإن المرحلة الثالثة وهى تسويق هذا الإكتشاف وتحويله إلى مشروع استثمارى لم

تستغرق أكثر من عام..

من نافلة القول أنّ (هالبرتون) فرضت سياجاً كاملاً من السريّة حول الأبحاث التي تُجرى في مختبراتها.. لاحظ أن الاكتشاف ذو طبيعة خاصة، وليست أي عقلية قادرة على استيعابه وتقدير فوائده.. مجرد تسرب الخبر سيثير جنون الشعوب والحكومات والأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان..

في دولة رأسمالية مثل الـ (States) يسهل أن تُقيم بيزنس ضخمة طالما لديك التمويل الكافي.. لذا فلم يكن صعباً على مجموعة رجال الأعمال المالكين لأسهم (هالبرتون) -و منهم أبى الملياردير (حسن فودة) - تأسيس مؤسسة عملاقة هي (نيو ميدل إيست - إينرجي).. النشاط المعلن هو إنشاء مشروعات لإنتاج وتصدير الطاقة المتجددة في منطقة الشرق الأوسط، بينما النشاط الحقيقي (والسري كذلك بالطبع) هو استخلاص الطاقة الحيويّة من الأجساد المحتضرة وتحويلها إلى طاقة كهربيّة..

أجساد من...!!!..

سؤال غريب.. أجساد سكان هذه المنطقة.. أعني منطقة الشرق الأوسط بالطبع..

من فضلك لا تكن نمطيّاً وتثرثر بكلام مستهلك عن انتهاك الآدميّة وحقوق الإنسان والاستغلال و.. و..

أنت رجل عملٍ مثقف ويمكنك أن تفهمني بسهولة..

هذه الشعوب تعيش منذ أكثر من خمسة قرون في ظلام الكهوف بكامل إرادتها.. لست بيولوجيست، ولكنني أعتقد أن شيئاً ما أو مركب ما في خلاياهم يدفعهم إلى الاستماتة في التخلف عن الحضارة.. لا أنكر أنّ جذوري مصريّة، ولكن هذا لا يعنى أنني مصري.. أنا أمريكي قلباً وقالباً -والمفروض أنّك كذلك أيضاً منذ حصلت على الجنسيّة الأمريكيّة- منذ أول لحظة خطت فيها قدما جدي (منير باشا فودة) على رصيف ميناء (نيويورك).. لذا فأنا أتكلم هنا بحيادٍ علميٍّ خالٍ من أيّة عواطف إنتماء..

نعم هناك شيئاً ما في الوعي الجمعى لهؤلاء الناس وبخاصة المصريين منهم يجعلهم يستكينون لكل من يظلمهم .. وكلّما زادت شدة الظلم زاد إزعاجهم وخضوعهم له.. حقاً أعجز عن تفسير هذا السلوك الشاذ الذى ينفردون به بين سائر الشعوب والأمم .. والطريف أنهم يتفنونون في إيجاد المبررات التى تسوغ لهم سلوكهم .. مبررات اجتماعية ودينية وثقافية يفرزونها طيلة الوقت مثل المواد المخدرة التى يفرزها الجسم البشرى ليخفف عن نفسه الألم حال تعرضه لحادث مميت مثلاً..

لو تابعت أخبار (مصر) في الصحف والمحطات التليفزيونية في الفترة الأخيرة لوجدت عجباً.. شعب كامل يُدهَس ويتعرض يومياً لإبادة منظمة بمختلف الوسائل الممكنة وغير الممكنة.. يذكرني هذا بالإبادة التى تعرض لها الهنود الحمر إبان الاجتياح الأوروبي للعالم الجديد توطئةً لنشأة ما عُرف فيما بعد بـ (الولايات المتحدة الأمريكية).. لم يدّخر الأوروبيون وسيلة لقتل الهنود -أصحاب الأرض الأصليين- ابتداءً من ذبحهم وإطلاق النار عليهم، إنتهاءً بالتخلص منهم عن طريق البطاطين الملوثة بالجدرى..

أليس هذا شبيه بما يتعرض له المصريين يومياً؟!..!! مئات (وربما آلاف) يلقون مصرعهم كل يوم في حوادث الطرق والقطارات المحترقة والعبّارات الغارقة.. عشرات الآلاف يتم تسميمهم عمداً سواء عن طريق المبيدات المسرطنة أو مياه الشرب المخلوطة بمياه الصرف الصحى.. دعك بالطبع ممن يموتون من جراء التعذيب داخل أقسام الشرطة ومقار الأمن المختلفة بطول البلاد وعرضها (وهذه النقطة بالذات كانت سبباً رئيسياً في إختيار هذا البلد لبدء مشروعنا)..

لو كان هذا شعباً محترماً.. أو حتى شعباً يستحق صفة الآدمية لثار على الظلم منذ دهور، ولانتزع حريته بيديه، وانتقم من ظالميه.. ولكنه لم يفعل.. ترك حكامه يعبثون به ويدهسون بالأحذية، فصار أشبه بقطيع من الأغنام قابع في الحظيرة ينتظر ذبح الجزّار له.. فما الفارق هنا بين جزّار وآخر..!!؟..

ماداموا مذبحين لا محالة، فلا مانع إذن من يُذبحوا في آلاتنا كي نحصل نحن على سيالهم الحيوى بدلاً من أن يضيع سدى.. على

الأقل سيجعل هذا لهم قيمة ما بشكلٍ أو بآخر..

كان قرار مجموعة رجال الأعمال أصحاب المشروع -وهو قرار مستند إلى دراساتٍ اقتصاديةٍ وسياسيةٍ دقيقةٍ أشرفت عليها بنفسى- أن نبدأ بـ (مصر).. تقدمنا بطلب إلى الحكومة المصرية بإنشاء شركة متخصصة في إستخلاص وإنتاج الطاقة المتجددة تحت إسم (إيجى - نيرجى)..

- لا أرى أى داع للخوف من رفض الحكومة المصرية للمشروع.. المقابل الذى سيحصلون عليه ليس بالقليل على الإطلاق.. ثم إنَّ الرجل المرشح للتفاوض معه كفيل في حال موافقته -وهو أمر شبه مضمون- بتسهيل كافة العقبات.. سيضمن لنا موافقة وزارة الاستثمار، وأنَّ أحداً لن يبحث وراءنا، وأنَّ المشروع الحقيقى سيظل سراً لن تعلم به إلا فئة محدودة جداً هى كل من نحتاج إلى معرفته..

كذا قلت في أحد الاجتماعات..

إبتسامة ساخرة ارتسمت على شفتى أحدهم، وأطلت نظرات مستهزئة من أعين البعض منهم.. شعرت بحرق بالغ كتمته في أعماقي على الفور.. أعلم - فكرت - أنَّ هؤلاء الحمقى يتشككون في قدراتي، ولا يرون في إلا طفلاً يرغب في العبث بأموال والده.. ولكن صبراً أيها الأوغاد.. سَتشاهدوننى وأنا أعمل، وستعلمون حقاً من هو (كمال فودة) وما هى قدراته الحقيقية.. ولأثبتن لكم بأى ثمن أننى لست ظلاً لوالدى، وأننى أفوقه فكراً وتطوراً بمراحل..

لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت بفضل الرشاوى الهائلة التى دفعناها.. قمنا بشراء آلاف الأمتار المربعة في مناطق متفرقة، وتم إنشاء مزارع للطاقة تسع آلاف البطاريات البشرية، وعدد من المحولات والخلايا.. بالإضافة إلى ديكور تمويهى بارع يشبه إلى حدٍ كبير ماكينات وأجهزة محطات الطاقة المتجددة الحقيقية..

ثم كانت الخطوة التالية هى إتمام الاتفاق السرى الذى أبرم مع واحدة من الشخصيات الهامة جداً في البلد.. لن أذكر أسماء ولا أماكن ولا تواريخ.. ولكن يكفى أن تعرف أنَّه بمقتضى هذا الاتفاق تقوم جهات ما بالحكومة بإمدادنا بحاجتنا من البطاريات البشرية بصورة دورية

منتظمة.. في الواقع بدأت المفاوضات الحقيقية مع الجانب المصرى في هذا الشأن قبل تقديم الطلب الرسمى إلى الحكومة، بل أننا لم نقدم الطلب فعلياً إلا بعد التوصل إلى صورة كاملة للاتفاق.. ولم تكد تمضِ بضعة أشهر حتى وصلت بالفعل أول شحنة من البطاريات البشريّة إلى المزرعة (أفضل أن إسم: المحطة) الرئيسيّة.. كانوا مجموعة من الفلاحين قاموا بقطع الطريق الدولى وحرقت بعض الممتلكات كنوع من الاعتراض على تجاهل الحكومة المصريّة لمشكلاتهم مع مياه الشرب فيما أذكر.. لم يدر البؤساء ما الذى يجرى لهم.. في البدء نقلناهم إلى المحطة الرئيسيّة حيث قدمنا لهم رعاية طبيّة وغذائية فائقة لم يحظوا بمثها من قبل (تشهد على ذلك أجسادهم النحيفة ووجوههم السمراء الممصوصة).. كان هذا نوعاً من التسمين الذى يقوم به الجزار للمواشى قبل ذبحها، واستمر الأمر كذلك لما يقرب من الشهر، حتى وصلت معدلاتهم الصحية والحيويّة إلى المستوى المقبول، وعندها بدأت الماكينات تعمل، وامتلات البطاريات بسيال حيوى متدفق..

إحرق ابن سافلة..

إحرق..

إحرق..

إحرق..

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

أرجو أن تستوعب كلامى جيداً..

لقد صنعنا بالفعل بروبجندا صاخبة حول مشرونا.. العشرات من السيمينارات واللقاءات التليفزيونيّة والموضوعات الصحفيّة مدفوعة الأجر في الصحف الكبرى، والأفلام التسجيليّة الّتي أشرفت على إنتاجها واحدة من أكبر الشركات المتخصصة.. كل هذه المواد تحدثت كثيراً عن أهميّة المشروع وفوائده وقيّمته كعملٍ وطنى يهدف لخدمة (مصر) .. و ..

والحقيقة أن (مصر) بالفعل بحاجة إلى تأمين مصادر طاقتها وبخاصة مع التناقص المستمر في مخزونها من البترول والغاز الطبيعي وغيرها من الثروات الطبيعيّة في أرضها.. ولكن إذا سألتك هل لدى الحكومة المصرية المقابل الذي تستطيع به شراء الطاقة التي نستخلصها فبمستحيب..؟! لا تحتاج أن تكون عبقرياً كي تجيب بـ «لا».. وضع (مصر) الاقتصادى ينحدر بصورة منتظمة برغم كل الدعايات التي يبثها النظام حول النمو الإقتصادى ومعدلات الادّخار وغيرها من الأكاذيب التي تدحضها الدراسات والتقارير المحترمة عن الأداء الإقتصادى المصرى.. فلا مجال هنا للحديث عن قدرة (مصر) على شراء الطاقة.. وإذا كنّا نتحدث بإسهاب في الفقرات الإعلائيّة عن تغطية خدماتنا لملايين الوحدات السكنيّة والصناعيّة، فهذا كما شرحت لك يدخل في نطاق البروبجاندأ..

إذا كانت (مصر) غير قادرة على شراء منتجاتنا من الطاقة، فغيرها كثير لديه الحاجة ولديه المقدرة أيضاً.. مثل من..؟! لن نذهب بعيداً.. (إسرائيل) مثلاً..

عجلات الطائرة تتوقف تماماً على أرضيّة ممر الهبوط بمطار (القاهرة) الدولي.. السيّارة التي تحمل السلم تدنو منها..

«أنا باقول إني مستعد أروح لآخر العالم من أجل السلام»..

باب الطائرة يفتح.. يبرز منه وجه وجسد (حسن فودة) -أبى- الملياردير الشهير.. حُلة فاخرة.. معطف ثمين.. منظار شمسي داكن من نوع Rayban يغطى عينيه.. يتوقف على باب الطائرة.. يتأمل المكان أمامه.. يلتقط نفساً عميقاً..

«وستُدهش (إسرائيل) عندما تسمعنى أقول أننى على استعداد للذهاب إلى بيتهم»..

منذ ما يزيد عن العشرين عاماً غادر والده البلاد شبه مطرود..
صحيح أنه كان محتاطاً لذلك، ولكن هذا لا يمنع المهانة التي ظلت
مصاحبة له حتى وفاته..

يتسم.. هاهي ذى العجلة قد دارت دورة كاملة يا باشا، وعادت أبواب
(مصر) مفتوحة أمامنا على مصراعها..
الحذاء الأمريكي الفاخر يطأ أرض المطار نحو السيّارة الواقفة بانتظاره..

«الكنيست ذاته»..

(تصفیق)..

بالنسبة لي كـبـيـزـنـس مـان أميركي.. (إسرائيل) دولة مثل أي دولة.. ليس
لديّ أي نوع من التحفظ على التعامل معها، بل على العكس أجدها
مكاناً للاستثمار أفضل من كثير غيره.. وهذه كانت نقطة الخلاف بين
والدي وجدى الراحل الذي لم يفتأ يرفض التعامل مع الإسرائيليين
باعتبارهم مغتصبى أرض (فلسطين).. طبعاً أنا مُقدر لأسباب جدى
ودوافعه لإتخاذ هذا الموقف، ولكننى لا أستطيع التعاطى مع تلك
الدوافع، ولا أرغب في ذلك أصلاً، ولماذا أفعل..!!؟..

لست مصرياً أو سورياً أو فلسطينياً أو عراقياً أو.. أو.. لست عربياً لتكون
لديّ حساسية تجاه التعامل مع (إسرائيل).. دعك من أن العرب أنفسهم
لم تعد لديهم تلك الحساسية منذ زمنٍ بعيد، فلم تظن أنى (وأنا
الأميركي القح) لست كذلك أيضاً..!!؟..

مكان واحد فقط في (مصر) هو الذي يستفيد بإنتاجنا من الطاقة هو
منشأة (باراداييس هايتس).. لذا فقد حرصنا على تزويده بمحطة عالية
القدرة تلبى كافة احتياجاته.. أمّا الجزء الأكبر فمخصص للتصدير كما
سبق وذكرتك لك..

- أنت تفكر في صناعة القرار الرئاسى.. فما هو ترتيب أولوياتك اليوم
سيادة الرئيس..؟..

- مصلحة المواطن أولاً.. أى شئ أقوم به أبحث فيه عن مصلحة المواطن والفئات محدودة الدخل، وتجذني في كل خطبي وكلامى ومرورى أبحث عنه..

من حوار تليفزيونى بين الرئيس (مبارك) والإعلامى (عماد الدين أديب)- ٢٠٠٥

لكل مئاً أخطائه.. هذا مؤكد..
ومشروع ضخم مثل مشروعنا ليس استثناءً عن هذه القاعدة.. لا أتكلم عن الناحية الأخلاقية.. أتكلم عن مشكلة غربية برزت بوضوح خلال مرحلة تأيين طاقة السيل الحيوى..
لاحظ فريق العمل بمعامل (هالبرتون) أن الدكتور (ويليام أوبرايان) أصيب بحالة من التوتر والأرق المستمر، وشكا عدة مرّات من هواجس غريبة وأصوات مريبة يسمعها أحياناً.. طبعاً اعتبر زملائه هذه الأعراض نتائج طبيعية للعمل الشاق المتواصل في المختبرات المغلقة لفترات طويلة، ومنحه البروفيسور (جولدمان) إجازة ليريح أعصابه، غير أن الدكتور (أوبرايان) عاد من إجازته أسوأ حالاً مما كان.. إزداد عصبيّة وتوتراً.. لم يعد ينام تقريباً.. وبدأ يهلوس بشأن العينات البشرية التي نجرى عليها التجارب.. ثم بدأت تصيبه نوبات من الهياج العنيف إندفع خلال إحداها محاولاً تحطيم الكمبيوتر المتصل ببوتقة التجارب والذي يحمل برنامج المؤثرات المؤلمة التي تتعرّض لها العينة لإنزاع سيالها الحيوى، وكاد بالفعل أن يحطمه لولا تكالب رجال الأمن عليه.. وخلال الأيام التالية تم إجراء سلسلة كاملة من الفحوص على الدكتور (أوبرايان).. فحوص فسيولوجية وسيكولوجية عالية الدقة تليق بما لدى (هالبرتون) من إمكانيّات، ثم كانت المفاجأة..

obeikandi.com

لا يعرف لنفسه اسماً..

بالواقع هو أصلاً لا يعرف لنفسه تعريفاً محدداً، ومن العبث أن نطلب منه أن يفعل، كأن نطلب من أصابع قدمك اليمنى مثلاً أن تعرف نفسها.. نعم هي جزء من كائن حي هو أنت، ولكنها لا تملك إرادتك ولا وعيك بنفسك.. هذا أمر بديهي، وينطبق على جميع أجزاء جسدك وروحك..

إختلافه عن باقي أجزاء الجسد هو أنه أقرب إلى صورة من صور الطاقة.. طاقة حيوية غير مرئية تشع من الجسد نفسه طالما بقي هذا الجسد حياً، فإذا فارقت الحياة، فارقه هو أيضاً معها ليتبدد ويتبعثر في الفراغ..

إختلافه هو أنه أشبه بشريط سليلويد تنطبع عليه كل التفاصيل التي تتقطّعها حواس الجسد الخمسة منذ اللحظة الأولى لدخوله الدنيا، وحتى اللحظة الأخيرة قبل خروجه منها..

علماء البيولوجي والباراسيكولوجي يطلقون عليه أسماء عدّة مثل (السيال الحيوي) و(الإكتوبلازم) و(الأورا) و(السجلات الأكاشية) وغيرها.. ولكن -وأنت تفهم ذلك بالتأكيد- لا يهمه في شيء، كما لا يهم القط أن يعرف أن اسمه قط أو cat مثلاً..

لعب إيه يا وليّة ف الحر ده..؟.. إنتى عاوزه العيال تجيلها ضربة شمس...؟..

من البديهي كذلك أنه لا يحسب لنفسه عمراً.. خمسة وأربعون عاماً مرّت عليه بصحبة هذا الجسد المادى دون أن يشعر، فإحساسه بالزمن مثل إحساسه بأي شيء آخر: صفر.. اللحظة الوحيدة التي يشعر بها هي لحظة مفارقتها للجسد المادى..

إنه يشعر بعلامات دنو النهاية، وتراجع المعدلات الحيويّة، فيبدأ لإرادياً في الاحتشاد، ثم يغادر ببطء مع انسحاب الروح من الجسد.. غير أنّ ظروف معيّنة قد تدفعه إلى اتخاذ نهج مختلف في المغادرة.. فعلى سبيل المثال.. جسد مثل هذا تعرّض لمؤثرات مؤلمة في غاية القوّة.. الألم الشديد البطيء الناتج عن احتراق خلايا الجسد أو صعقها بالكهرباء زاد من معدل احتشاده ودفعه بصورة غير مألوفة.. عمليّة تعذيب بطيئة إستغرقت ما يزيد عن الساعة نتج عنها اعتصار خلايا الجسد ، وخروجه منها بكامل كمّيّته..

الجديد هنا هو أنّه لم يغادر الجسد ليتشتت في الفضاء كما يفعل أمثاله منذ بدء الخليقة.. ما حدث هو أنّ أقطاب عديدة موزعة بدقة مدروسة على مواضع احتشاده وخروجه من الجسد كانت بانتظاره، ظلت طيلة فترة تعرض الجسد للألم تستقبله وتخزنه في حيز مادي آخر..

تبييييييت..

هو الآن محتجز في حيز مادي محدد -بطاريّة رقم (٢٥٥٢٠٠٥)- وهو وضع غريب حقاً بالنسبة له هو الذي اعتاد الارتباط بجسد مادي دونما الاحتواء بداخله.. لو كانت لديه القدرة على الدهشة لأصابه الذهول، ولو كانت لديه القدرة على الخوف لأصابه الرعب من الوضع الجديد غير المألوف له.. لا يدرى بالطبع -كما سبق وذكرنا- كم ظل محبوساً.. ربما مرّت عليهِ لحظات أو دقائق أو ساعات أو أيام.. النتيجة واحدة..

في لحظةٍ ما إنفتحت ثغرة في قمة الحيز المادي.. لا إرادياً بدأ كيانه -كالعادة- يحتشد نحو هذه الثغرة.. وهنا حدث الشئ الأكثر غرابة..

- فين البطيخ يا وليّة..؟
مايقصدش حاجة وحشة يا حاج لا قدر الله.. هو بس يقصد ان

الأستاذ (محمد حسبو) راجل طيّب، والعالم الى حواليه دول ولاد حرام.. بينيموه بكلمتين حلوين، ويلعبوا بديلهم من وراه..

لو أن بشرياً تعرض لمثل هذا الأمر، لبدا له أشبه بعاصفة استاتيكية متصاعدة الشدة.. بدأت ببطء، ثم راحت تشتد وتقوى.. ولبدت له الشحنات المضادة أشبه بحبات رمال تضرب كيانه.. هدير قوى يرتفع في الجوار.. ثمة تغير طفيف يطرأ عليه.. الشحنات المضادة تندفع نحوه بقوة.. ترتطم به.. كل موضع في كيانه يرتطم بشحنة مضادة يتأين على الفور.. تجربة فريدة هي من نوعها.. لو كان بشرياً لتعالى صرخاته، ولاشتتم رائحة حريق.. الشحنات تضربه بقوة أكبر.. الهدير يتعالى أكثر وأكثر.. كيانه ينتفض بقوة وهو يتحول..

.....
.....
.....
.....
.....
.....

يا بت دانتي ضفرك برقبتهم كلهم.. بس الحتت دى مش للى زيننا..
لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها..
- أخوكى..!!!.. ماشى.. الصبر حلو.. أخوكى..!!!.. ماشى.. الصبر حلو..
آنى النهارده هاندخلوكى السيمة.. الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها
نرجعو بحرى نتعشّو سمك وجمبرى عند (الراوى)..

إكتمل تحوله..

هو الآن يسرى كطاقة كهربية عبر الأسلاك بسرعة لا تصدق.. تم تمريره على خلايا كهربية خفتت من جهده، ثم انطلق من جديد.. ولكن ثمة شئ ما يجعله مختلفاً عن أى تيار كهربى عادى.. شئ غير مادي، لم يتأثر بالتأين الذى تعرض له عندما كان لايزال سيالاً حيويًا،

وتسبب في تحويله إلى طاقة كهربية..
بالفعل هى ظاهرة خارقة للعادة.. أن يسرى تيار كهربى عبر الأسلاك،
وتسرى معه حزمة من الذكريات والانفعالات مطبوعة على جزيئات غير
مادية من الطاقة النفسية العالقة بالتّيار نفسه..
التّيار يقطع مئات.. آلاف الكيلومترات حاملاً معه مئات.. آلاف
الذكريات والعواطف والمشاعر..

ونستى لبكره ليه يا ريس..؟!.. نتوكل على الله ونفرّجهم دلوقت.. دى
حالتهم ما يعلم بيها الاربنا..

وإيه اللى بتديهولى ف الحقة ده..؟..

في لحظة ما حدث الانفصال..
التيار الكهربى يخترق الموصلات ليشتعل محرّكات جهاز التكييف في
تلك الفيللا.. الجزيئات النفسية العالقة به تصطحبه كعادتها.. ولكن
عند تحوّلـه -التّيار- إلى طاقة حرارية، حدث الانفصال..
طبعاً لم يستغرق الأمر سوى جزء من الثانية.. تحررت بقايا الطاقة
النفسية من ارتباطها بالتيار الكهربى -السيال الحيوى سابقاً- لتغادر
الموصلات وجهاز التكييف كله، وتسبح ببطء في فضاء المكان/الفيللا..
يحتاج الأمر إلى جهاز لعمل مجال للأشعة تحت الحمراء لرؤية
الجزيئات النفسية وهى تتسرّب عبر فتحات جهاز التكييف لتحتشد في
صورة أشبه بالسحابة، ثم تسبح بثقة وروية في الفراغ.. تطوف المكان
كلّـه.. تحتك بالحوائط.. بالسقف.. تزحف على الأرضية الباركيه.. ثم
ترتفع بسلاسة ملامسةً لملاءة الفراش الذى يتوسط الغرفة.. تطوف
ببطء حول الجسد الراقد عليه -على الفراش- قبل أن تنحدر نحوه
بنعومة.. ثم تغوص خلال جزيئات السيلال الحيوى الخاص به..
الجسد نحيف جداً.. غارق في العرق.. سكسوكة خفيفة تحيط بالفم
نصف المفتوح.. جزء من إحدى السنتين الأماميتين مهشم.. وشم
صغير مطبوع على إحدى الذراعين يمثل ثعبانين يدوران حول جمجمة

قبيحة الشكل..

صاحب الجسد غارق في سباتٍ عميق.. شكل ولون وحركة سياله الحيوى - لو نظرنا له عبر منظار الرؤية في مجال الأشعة تحت الحمراء- يؤكد هذا.. غير أنَّ الوضع يختلف عند الإلتحام بالجزيئات النفسِيَّة الغازية.. يضطرب السيل الحيوى.. يتغيَّر لونه، وكأنَّ مقاومة ما يخوضها ضد الوافد الجديد.. تمر لحظات من الإحتدام والإضطراب ثم يستقر الوضع من جديد..

صاحب الجسد يستيقظ منزعجاً.. قطرات العرق تغمر وجهه وجسده وتبلل ملءة الفراش برغم جودة التكييف.. يشعر بأنَّه ليس على مايرام.. ينهض.. يهرع بخطوات متعثرة نحو الحَمَّام.. يتقيَّأ بعنف في المراض.. يعتدل.. يتمضمض ليغسل فمه من آثار القيء كراهه الرائحة، ثم يغادر الحَمَّام مترنِّحاً.. يخرج زجاجة من الخمر من بار صغير في ركن الحجرة يتجرَّع منها بنهم ثم يعيدها ويعود هو ليستلقى على فراشه شاعراً بأنَّه أفضل حالاً..

ومن جديد يستغرق المهندس (أحمد ممتاز خشبة) في سباتٍ عميق غير مدرك بالكيان الجديد الذى التحم بكيانه ليهدم حياته بالكامل فيما بعد..

obeikandi.com

لكل ممّا أخطأه.. هذا مؤكّد..
والخطأ هاهنا كان في عدم تأيّن السيال الحيوى بالكامل.. ثمة جزء
ما ظل مستعصياً على التحول إلى كهرياء.. جزءاً روحياً غير منظور
إلا في مجال للأشعة تحت الحمراء.. جزء يظل مرتبطاً بالتيار الكهربى
حتى لحظة تحوله إلى طاقة حركيّة أو حراريّة أو صوتيّة حسب الجهاز
الذى يُستخدم التيار الكهربى في تشغيله.. في هذه اللحظة يتحرر الجزء
النفسى من التيار الكهربى.. ينفصل عنه.. يخترق الأسلاك والموصلات..
يسبح في الهواء ليختلط بأقرب سيال حيوى له..

أدرك فريق العلماء -مذهولين- هذه الظاهرة الغير مسبوقة عندما
لاحظوا إختلاف طبيعة السيال الحيوى الذى يشع من جسد الدكتور
(ويليام أوبريان).. قارنوا الفيلم الذى تم تصويره له في مجال الأشعة
تحت الحمراء بعد الحالة العصبية التى أصابته بفيلم آخر تم التقاطه
له ولل فريق كله-وفقاً للبروتوكول الذى وضعه الدكتور (جولدمان)-
عند بدء التجارب.. بدا الفارق واضحاً في حجم وكثافة ولون السيال
الحيوى.. إقترح البروفيسور (شيفالييه) إعادة التجارب بالكامل في مجال
الأشعة تحت الحمراء، وبالفعل جلسوا يشاهدون بأعين مذهولة
الجزئيات النفسيّة تنفصل عن التيار الكهربى لتطوف ببطء في فضاء
المختبر المظلم..

كانت موافقة وزارة الإستثمار على المشروع هى العقبة الأهم.. غير أنّ
المال لم يدع عقبة إلا وأزالها..

حدثت مشادات وصدامات عديدة، وتساءل كثيرون عن مغزى
المشروع وطبيعته التى استدعت الكتمان الشديد من جانب البرلمان
حول جلسة مناقشته.. ظل الموضوع حديث الصحف الحزبيّة والمستقلّة

لفترة طويلة نشطت خلالها أجهزة الميديا الخاصة بنا لترويج الغطاء الدعائي الذي سبق وتحديث عنه منذ قليل..

جرى العمل لتجاوز الأزمة في مختبرات (هالبرتون) على محورين:
١ - تشخيص حالة الدكتور (أوبرايان) والبحث عن علاج محدد لها..
٢ - البحث عن وسيلة لمنع خروج الطاقة النفسية من الأجهزة..
بالنسبة للدكتور (أوبرايان)، توصل العلماء إلى أنَّ التلاحم الذي تم بين سياله الحيوى، والطاقة النفسية المنفصلة عن التيار الكهربى (والتي هى فى الأصل جزء من السيلال الحيوى الذى تم انتزاعه من أحد عينات الإختبار البشريّة).. هذا التلاحم هو السبب فى حالة الهياج التي أصابته والرؤى التي يراها.. تلك الرؤى التي هى عبارة عن ذكريات مطبوعة على الطاقة النفسية التي غزت كيانه..
هذا عن التشخيص.. فماذا عن العلاج..؟..

تم تعريض الرجل لبرنامج دقيق من الصدمات الكهربيّة.. أدت هذه الصدمات إلى انفصال الجزيئات النفسية الدخيلة عن سياله الحيوى..
رأها العلماء تغادر فى مجال الأشعة تحت الحمراء، ثم لم تلبث أن تم اصطيادها وتخزينها فى إسطوانة خاصة معدة لهذا الغرض ثم تم تعريضها لحرارة عالية أدت إلى تبديدها تماماً.. بعدها عاد السيلال الحيوى للدكتور (ويليام أوبرايان) طبيعياً كما كان.. صحيح أن حالته النفسية تدهورت أكثر بعد ذلك، وتم إلحاقه بمصحة نفسيّة خاصة، إلا أن العلماء أرجعوا سبب هذا إلى التجربة النفسية القاسية التي خاضها طيلة الأيام الماضية..

أما بالنسبة للإجراءات المطلوبة لمنع خروج وتحرر الطاقة النفسية من الأجهزة، فقد قام فريق المهندسين بعمل بعض التعديلات على تصميمات أجهزة تخزين الطاقة بحيث تقوم أقطاب خاصة باستقطاب الطاقة النفسية عن طريق شحنات مضادة، وتقوم بتعريضها لحرارة عالية للتخلص منها..

إسمعنى جيّداً يا صديقى..

ستعود إلى (مصر) خلال الشهور القليلة القادمة.. ستجد كل شئ جاهزاً بانتظارك.. المزارع.. المحطات.. اللوحات.. فريق كامل من التقنيين والمهندسين..

سيكون عليك تولى عبء إدارة المشروع كله.. لا.. لن يصلح مديراً أمريكياً لهذه المهمة.. هناك مثل عربي قديم سمعته من جدى الراحل يقول «أهل (مكة) أدرى بشعابها».. ثقى بك وبكفاءتك كبيرة، وهو ذات رأى مجلس إدارة (هاليبرتون) فيك بعد الدراسات التى أجريت عنك.. سلطاتك الإدارية شبه مطلقة.. وسيكون عليك إرسال report يومى مفصل إلينا هاهنا.. الدكتور (فرانسيس بولتون) سيسافر معك إلى (مصر) وسيكون مستشارك الأول فيما يتعلق بالنواحي الفنية..

هناك الكثير من البيزنس بانتظارنا عزيزى (محي الدين).. ليس هذا فقط.. العالم كله والعلاقات بين الدول ستتغير.. كل هذا متوقف على نجاح تجربتنا في (مصر).. لذا فلنك أن تراهن على مدى مانتظره منك.. لكل متآ أخطائه.. هذا مؤكد..

ولكن الخطأ هنا يكلف الكثير والكثير جداً..
فلا تخذلنا صديقى العزيز..

obeikandi.com

د. يوسف محي الدين

(التسجيل مُلتقط بواسطة كاميرا رقمية.. الصورة مهزوزة غير واضحة المعالم إلى حدٍ ما.. الإضاءة رديئة.. يظهر في منتصف الكادر رجل أصلع هو (يوسف محي الدين)، مُقيّد إلى مقعد خشبي.. عارى الجسد، وثمة دماء متجلّطة على جانب وجهه، وكدمة زرقاء حول عينه اليسرى)..

إستقرت في (مصر) منذ مايزيد عن الأعوام الثلاثة كي تتسنى لى متابعة أعمال الشركة الجديدة وتثبيت أقدامها، خاصة وأنها ستكون النواة لإنشاء مشروعات مماثلة في دول عدّة بالمنطقة.. أقطن مع أسرتي زوجتي وطفليّ في فيلا بـ (باراداييس هايتس) بينما يقع المقر الإداري الرئيسي للشركة كما تعلم في حي (الزمالك) بـ (القاهرة).. الرحلة بالطائرة لا تزيد عن نصف الساعة، أقضيها صباحاً عند الذهاب في متابعة صحف الصباح (نيويورك تايمز) و(الواشنطن بوست) و(هيرالد تريبيون) على الإنترنت ومعرفة تطوّرات البورصة، أما عند العودة فأكون أشبه بجثة هامدة من فرط إرهاق عمل اليوم بطوله.. أتقّل بصورة دورية بين المقر الرئيسي، والمحطات ولوحات التوزيع المتناثرة في مناطق الساحل الشمالى وشبه جزيرة (سيناء) وعدد من محافظات الدلتا.. أراجع بنفسى سير عمليات تسمين البطاريات البشرية وتوقيات انتزاع سيالاتها الحيوية وشحن البطاريات وتأييدها وتقنيات التصدير.. الإتصالات لا تتوقف بينى وبين العديد من المسؤولين.. ألح عليهم كي يرسلوا لى المزيد من البطاريات البشرية لتغطية الطلب الكبير للتصدير، وأتفاوض معهم لإنشاء المزيد من المحطات في الوجه القبلى.. المشكلة التي لم تكن في الحسبان هى الشراهة الغير متوقعة من المسؤولين الذين أتعامل معهم.. بالرغم من أننا قد رتبنا المعاملات المادية منذ البداية، إلا أن مطالبهم راحت تتزايد بصورة مبالغ فيها كادت تهدد ميزانية المشروع

وتوقف تقدمه، لولا أن بدء تدفق الأرباح بصورة سريعة أنقذ الموقف..
شكوت الموقف لمستمر (كمال) ذات مرة على قناة اتصال مؤمنة بينما
الطائرة تحلق في فوق كثبان شبه جزيرة (سيناء):
- يبدو أنه أصيب بالسعار.. إنه يطالب بزيادة نسبته 0 ٪ دفعة
واحدة..

- أعطه ما يريد.. هو مهم جداً لنا، ولا غنى عن خدماته..
- ولكنّه لن يكتفى بهذا.. شهرين أو ثلاثة وسيطالب بالمزيد..
- لن يفعل..
- وكيف تعلم ذلك...؟..
- سأحدث الرجل الكبير بشأنه.. لا تقلق..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

لا تجعل حديثي يوهمك أنني إنسان قاس لا قلب له.. أنا كما قلت لك
أنفأ مرهف الحس جداً، ولا أطيق منظر الدماء.. هل أخبرتك أنني عضو
في عدد من جمعيات حقوق الإنسان حول العالم..؟.. هل سمعت عن
الحملة الشرسة التي تزعمتها ضد الحكومة المصرية لمطالبتها بالتوقف
عن قتل الكلاب الضالة رمياً بالرصاص..؟.. صدقني.. لست وحشاً كما
قد توحى طبيعة عملي.. كل ما في الأمر أنني أفصل دوماً بين البيزنس
وبين أي شيء آخر، وهذا سر نجاحي..

ثم تعال هنا وأجبن.. هل كان هؤلاء الذين قد يعتبرهم ضيقو
الأفق ضحايا يعيشون في الجنة، وأخرجناهم نحن منها لنقذهم في
الجحيم..؟.. لا أعتقد أن أحداً يمكنه الإجابة بنعم.. إن حياة هؤلاء
هي سلسلة لا تنتهي من البؤس والمعاناة، وخير سبيل لتغييرها هو
إنهائها.. هذه الأوضاع نتيجة تراكم سلبيات على مدى قرون فائتة،
وتصويبها يحتاج لتراكم قرون أخرى قادمة.. إذن فلا مشكلة من

الإستفادة بمعاناة موجودة من الأصل في تحقيق خدمة لا شك فيها للإنسانية.. لا أنكر أنني أحياناً أشعر أن ما نقوم به أمر مريع.. راودني هذا خاطر ذات مرّة وأنا أرمق الفزع المطلّ من عينيّ أحد البطاريّات التي يتم إعدادها للشحن.. رعب هائل حرك مشاعر غريبة بأعماقي، ودفعني لأن أربت على رأسه مشجعاً..

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..

كنت أعنى كل حرف.. ألم بسيط ثم تنتهي معاناتك أيّها البائس.. معاناتك الممتدة بامتداد عمرك كله.. شعور عابر بالشفقة سارعت بوأده.. هذا بيزنس.. بيزنس.. والبيزنس لا مشاعر له.. أرجوك إفهمني.. أنا مقدر للفهم الخاطئ الذي قد يكون دفعك لإختطافي ومعاملتني بهذا الشكل الهمجي، وباستطاعتي نسيان كل هذا لو تخلّيت عن العنف وتجاوزنا بشكل متحضر.. فنحن في النهاية بشر..

obeikandi.com

أفهم شعورك وصدمتك جيداً دكتور (حازم) بعد الذى سمعت.. أنا نفسى مررت بذات الصدمة عقب مشاهدتى لذلك الفيلم البشع.. شعرت بأنفاسى تتردد بصعوبة، ثم لم أدر إلا وأنا منكفئة على وجهى أتقيأ ما فى معدتى بالكامل.. لا أعرف كم مرّ علىّ من الوقت جالسة وحدى فى الكارافان بموقع التصوير -حيث استقبلت ملف الفيديو- أحّدق فى شاشة الحاسوب، أتنفّس بصوت مسموع، والعرق يغمر جبيني وثيابى..

بدأ إحساسى بما حولى يعاودنى.. ألقىت نظرة متفززة على بركة القى الصفراء التى أحدثتها منذ قليل، وملأت رائحتها الكريهة أنفى.. شعرت بيوادر الاختناق من جديد، فأسرعت أغادر الكارافان..

الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً.. أشعة الشمس الدافئة تغمر المكان، وهواء البحر المنعش يملؤه بهجة، بينما هدير أمواجه يملأ الأذان.. الحركة صاخبة.. العمّال والفنيّون يتحرّكون كالذباب جيئة وذهاباً.. المخرج يصرخ فى الجميع بعصبية كعادة المخرجين، بينما وقف الباشمهندس (محمود مفيد) - مختص الديكور الجديد- يتناقش مع مدير التصوير لتنسيق عمليهما..

ألتقط نفساً عميقاً.. رائحة البحر مختلطة برائحة الزهور الطبيعية التى جلبها الباشمهندس (محمود) كجزء من الديكور- تملأ صدرى.. صفحة البحر الزرقاء تعلوها السماء الصافية إلا من سحب قليلة.. طيور النورس تحلّق فى المكان.. سبحان الله.. ما أشد التناقض بين الطبيعة باهرة الجمال كما خلقها الله عزّ وجلّ وبين شديد القبح الذى يتفنن الإنسان فى ممارسته ضد الإنسان..

من بعيد.. فى عرض البحر.. تبدى جزيرة (باراداييس هايتس) كعروس فاتنة كسول راقدة بين الأمواج الزرقاء.. الخضرة تكسوها والقصور الفاخرة تملؤها..

مكان واحد فقط في (مصر) هو الذى يستفيد بإنتاجنا من الطاقة هو منشأة (باراداييس هايتس).. لذا فقد حرصنا على تزويده بمحطة عالية القدرة تلبى كافة احتياجاته..

هل هذا حقيقى..؟.. هذه الجزيرة رائعة الجمال بكل ما عليها من قصور وفيلات وملاهى ومولات وأسواق و.. و.. كل هذا يعيش على أنين البسطاء والفقراء..!!.. هل الصورة حقاً بهذا الوضوح..!!.. شعرت أن ساقى لم تعودا قادرتين على احتمالى.. جلست على سلم الكارافان الخشبى.. (ميخائيل) مساعدى الشاب يهرع نحوى.. يحدّق فى وجهى بقلق..

- ماذا هناك يا ريّسة..؟..

أشحت بوجهى مجيبة:

- لا شئ..

قال والقلق يطل من عينيه:

- وجهك أصفر كالليمون، وعيناك حمراويتين.. هل تشعرين بتوعّك..؟..

- قلت لك لم يحدث شئ.. أنا مرهقة قليلاً فحسب بسبب قلة

النوم.. إذهب أنت وتابع عملك..

- هل تحبين أن أوصلك إلى البيت..؟..

- لا يا صديقى.. قليل من الراحة أمام البحر وسأكون بخير إن شاء

الله..

ظل ينظر إلى متوتراً، فاغتصبت ابتسامة وأنا أقول له:

- إذهب يا فتى ولا تكن لحوحاً كالنساء..

إبتسم قائلاً كلمته المعتادة:

- أمرك يا ريّسة..

إستدار لينصرف، فأسرعت أقول:

- شكراً (ميخائيل)..

رفع سبابته لأعلى قائلاً بمرح:

- الشكر لله..

راقبته وهو يعود إلى عمله بخطوات نشطة برغم جسده المائل إلى السمنة، ثم عدت إلى الكارافان.. جلست إلى اللاب توب، وفتحت الماسنجر لأجد (أحمد) on - line كما توقعت.. قمت بتشغيل الكاميرا، ورأيت صورته على الشاشة أمامى وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة..

- كنت أنتظرك..

- أين أنتِ؟..

- (الإسكندرية).. مكتبي القديم..

- هل هو معك الآن؟..

- معى..

- كيف وصلت له؟..

ضحك قائلاً:

- بمنتهى البساطة..

- كيف؟..

- ظلت أراقب تحركاته شهراً كاملاً.. تأكدت من أنه يمارس رياضته الصباحية يومياً بمفرده حول منزله بـ (الهايتس).. وصباح اليوم تربصت به برفقة بعض الرجال و..

ملاحمه هذه المرة مختلفة عن أى وقت آخر.. عارى الجذع رغم برودة الجو.. وجهه أكثر نحولاً.. لحيته طليقة كثيفة، وشعره الأسود طويل منسدل على كتفيه.. أما عيناه، فكانتا تلمعان بشكل مخيف..

- منذ متى؟..

نظر إلى ساعته وأجاب:

- ثلاثة ساعات تقريباً..

- (بحدة): هل تدرك فداحة ما فعلت؟..

بدت الدهشة على وجهه وهو يردد:

- ما فعلت أنا؟!!..

- تختطف الرجل وتعذبه لإستنطاقه.. هل نحن في غابة؟..

- (بغضب): أمازلت تتساءلين بعد كل ما سمعت ؟!!.. غابة...!!! نعم

يا مدام.. نحن في غابة.. ولعل الغابة مكاناً أقل بشاعة، فحيواناتها لا تقتل بعضها البعض إلا عند الجوع، لا لتزداد ثراءً..

- كدت أعترض، ولكنّه صاح عبر المايك:
- ماذا أصابك يا (أمل)..؟.. لم «تصدّرين ف الهايفة» على غير عهدي بك...؟.. ألم تستوعبي ما سمعت، أم أنّك لم تستمعي من الأصل...؟..
- (بخفوت): سمعت..
- (ساخرًا): ولا ترين بأساً فيما سمعت إلا اختطاف هذا الحيوان واستنطاقه...!!؟..
- (بتوتر): معالجة الخطأ لا تكون يارتكاب خطأ آخر..
- هذا ليس مجرد خطأ..
- أيّا كان الـ..
- (مقاطعاً): إسمعيني جيّداً.. لست هنا بصدد التعامل مع أخطاءٍ أو كوارث.. مهمتي انتهت بتوصيل هذه الإعترافات إليك.. والباقي عليك أنت..
- بح صوتٍ وأنا أسأله:
- ماذا تعني...؟..
- ملف الفيديو الذي بحوزتك يحمل تفاصيل أخطر وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبرياليّة مع الأنظمة العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن لإمتصاص حياته ذاتها.. دورك يا (أمل) هو فضح هذه الجريمة أمام المصريين والعالم كله.. لا بد أن يعرف المصريون بما يُدبّر لهم في الخفاء..
- سألته بقلق:
- وماذا عنك...؟..
- إبتسم بشحوب فظهرت سنته الأماميّة المهشمة..
- قلت لك أنّ مهمتي انتهت بتوصيل هذا الفيديو إليك..
- أقصد ماذا ستفعل...؟..
- فوجئت به يرفع زجاجة سوداء صغيرة إلى فمه ويرتشف منها فهتفت منزعجة:
- هل تشرب...؟..
- خفض الزجاجة وتجاهل تساؤلي قائلاً:
- لم يعد لديّ ما أقدمه في هذه القضية سوى شئ واحد أخير..

- وما هو..؟..
- الإنتقام..
- (بدهشة): ممن..؟..
- (يبتسم بغموض): سأترك هذا لإحساسك..
- نظرت إلى صورته على الشاشة بينما هو يتابع:
- أليست هناك قاعدة دينية تقول العين بالعين والسن بالسن..؟..
- هتفت:
- ولكن
- لست أنت من يقوم بتطبيق هذه القاعدة..
- من إذن..؟..
- وليّ الأمر.. الحاكم..
- لم يعلق.. فقط أطلق ضحكة ساخرة سَعل بعدها بشدة قبل
- أن يبصق على الأرض ثم يرتشف رشفة أخرى من الزجاجاة السوداء
- الصغيرة..
- أسرعت أقول:
- إنتظرن قليلاً.. سأحضر على الفور..
- ألقي نظرة على ساعة يده ثم قال:
- لا وقت يا عزيزتي.. لابد أنهم وصلوا..
- (بقلق): من هم..؟..
- لم يجب.. نهض من أمام الكاميرا.. غاب لما يقرب من نصف
- الدقيقة، ثم عاد قائلاً بلهجة جادة:
- لقد وصلوا كما توقعت.. رأيتهم عبر النافذة المطلّة على المنور..
- عددهم كبير..
- خفق قلبي بقوة وأنا أهتف:
- من هم..؟..
- لا أعرف بالضبط إن كانوا من رجال الشرطة أم رجال هذا الخنزير..
- يرتدون ثياباً سوداء ويحملون الأسلحة..
- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك..؟..
- رفع هاتفاً خلوياً أمام الكاميرا..

- تعقبوا هاتفه بالأقمار الصناعيّة.. أعتقد أن طبيعة المباني من حولنا لعبت دوراً ما في تأخر توصّلهم لموضعنا..

- لماذا لم تتخلص منه..؟..

أقصد الهاتف الخلوّ.. إبتسم بغموض دون أن يرد.. صحت به:

- إهرب إذن..

- سأفعل يا عزيزتي.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

ومال بوجهه نحو الكاميرا..

- هل تعتقدين أنّ الله يحبني..؟..

- (بدهشة): ماذا..؟..!!

صمت للحظات، قبل أن يقول شارداً ببصره بعيداً وكأنّه يحدث نفسه:

- لقد عشت حياة مترفة حقاً يا (أمل).. كل ما كنت أطلبه أجده.. فعلت كلّ شيء يمكن أن تعتبرينه معصية لله.. أحياناً كنت أتوقف لأسائل نفسي عمّا إذا كان راضياً عنيّ رغم كل ما أفعل، وكنت أجيب على نفسي بأنني لا أؤذي أحداً.. أفعل كل ما أريد دون أن يضار أحد مما أفعل.. أليس هذا ما يريده الله من أيّ منّا.. أن نعيش حياتنا دون أن نوذي غيرنا..؟..

نظرت إليه مندهشة.. ماذا دهاه..؟..

- (أحمد).. لا تُضع الوقت.. إهرب قبل أن يصلوا إليك..

تابع وكأنّه لم يسمعي:

- قديماً سمعت البروفيسور (هيجز) يقول أنّ قناعات المعمارى الاجتماعيّة والسياسيّة لا تنفصل أبداً عن حرفته.. وبدونها لا يستحق المعمارى أن يكون كذلك فعلاً مهما بلغت حرفيّته وبراعته.. وقياساً يمكن القول بأنّ قناعات الإنسان سواء أكانت عقائديّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة لا تنفصل عن إنسانيّته، وبدونها لا يستحق الإنسان هذه الصفة..

لمعت الخاطرة في ذهني في لحظة واحدة..

- قناعتى هى الشر ضرورى للتغلب على الشر.. لربما كان القتل والتعذيب شروراً.. ولكن مع شخصيات مثل (كمال فودة) و (يوسف

محيي الدين) فإنهما ليسا شروراً.. بل هما العدل.. العدل الذي أمر به الرب في جميع الأديان والشرائع..
إرتعد جسدي.. هل حقاً ينوي..؟..

هتفت والدموع تحتشد في عيني:

- ولكنتك هكذا لن تفعل شيئاً.. ستخسر حياتك دون جدوى.. ليس الأمر قاصراً على (يوسف محيي الدين) وحده.. إنها منظومة متكاملة..
إذا ذهب واحد، فسيحل آخر محله بمنتهى السهولة..

- لم يعد في الحياة بعد الذي عرفت ما يغريني بالبقاء فيها.. على الأقل سأتلّص من الكوايس، ومن أصوات الأنين التي لا تفارق أذني..
- ولكن الانتحار كفر بالله..

- الله يعلم أنني موقن بوجوده..

- ولكنّه هو الذي نهى عن الإنتحار..

- أنا لن أنتحر..

- ما تفكر فيه هو انتحار..

- إفهميني..

كذا صاح بحدة..

- أنا إنسان ملعون.. أتتني الفرصة لأداء رسالتي في الحياة، فتخاذلت مع أول عقبة.. كذا فعلت بلا مداراة.. وما أصابني هو لعنة الصمت على الظلم والبؤس.. ومالم أقم بدوري، ستظل هذه اللعنة ملتصقة بي، وهو ما أفضل الموت عليه..

- قم بدورك بشكل سليم..

- هذا قراري الذي اتخذت، ولن أراجع عنه..

وصمت للحظة، ثم قال وقد تغيّرت لهجته ولان صوته:

- أبداً لم تتفق منذ عرفتك وعرفتني يا (أمل).. ورغم ذلك لم أحمل لك في أعماقي إلا مودة واحتراماً لم أحملهما لأحدٍ من قبل.. لربما صوّر لك فقداني إتزاني وسوء تصرّفي معك غير ذلك، ولكنّها الحقيقة الوحيدة في تعاملي معك منذ التقيتك..

إرتفعت في هذه اللحظة أصوات طرقات عنيفة على باب الشقة..
أجفلت لوهلة، بينما بدا هو وكأنه لم يلحظ شيئاً..

احرق ابن السافلة ..
احرق..
احرق..
احرق..

obeikandi.com

لا أذكر أغلب تفاصيل ما حدث بعد ذلك دكتور (حازم).. فقط أذكر إستلقائى على المقعد الخلفى لإحدى السيارات.. سحب قليلة تتابع بسرعة أمام عينيّ فى السماء الصافية عبر الزجاج الخلفى .. الدموع متحجرة على وجنتي.. أسمع صوتيّ (مفيد) و(ميخائيل) إذ يتحدثان فى المقعدين الأماميين.. يحملانى حملاً.. مستشفى (مبارك) التخصصى.. الطريق السريع.. أصوات السيارات المارقة من خلفنا على طريق الساحل الشمالى.. الممرات الطويلة ذات الجدران المطلية بلونٍ أخضر فاتح.. وجه الطبيب يطل على.. رائحة التعقيم.. يتكلم..

- صدمة عصبية..

- أين تقيم..؟..

- تحتاج إلى الراحة..

- مهدئ..

-

-

-

أخطر وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبريالية مع الأنظمة العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن لإمتصاص حياته ذاتها..

أمى تضرب صدرها بكفها المفتوح.. تهتف بلوعة:

- ماذا أصابها..؟..

(ميخائيل) يجيب لاهثاً وهو يساعدنى على الجلوس على الأريكة:

- لا تخافى يا حاجة.. فقط هى بحاجة إلى بعض الراحة..

غابة..!!! نعم يا مدام.. نحن فى غابة.. ولعل الغابة مكاناً أقل

بشاعة، فحيواناتها لا تقتل بعضها البعض إلا عند الجوع، لا لتزداد ثراءً..

تضع أمامى صينيّة مرصوفة عليها أطباق الأرز والخضر وورك فرخة وسلطاينة شوربة..

- لقمة واحدة يا (أمّول)..

- (يارهاق): لا أستطيع يا ماما..

- لا بد أن تأكل شيئاً وإلا سقطت مرةً أخرى.. هل نسيت تعليمات الدكتور..؟

- (أجذب الغطاء على جسدى): سأفعل بعد أن أستيقظ إن شاء الله..

أليست هناك قاعدة دينيّة تقول العين بالعين والسن بالسن..؟

تك.. تك.. تك.. تك..

الثالثة صباحاً.. الغرفة غارقة في الظلام إلا من ضوء عمود الإنارة في الشارع والقادم عبر النافذة..

العرق يغمرنى رغم برودة الجو..

أثقل في فراشى..

قناعتي هي الشر ضروري للتغلب على الشر..

تك.. تك.. تك.. تك..

الرابعة صباحاً..

لا أستطيع أن أغفو ولو لدقيقة واحدة..

أدفع الغطاء عني.. أمدد ساقى.. أحرق في السقف..

على الأقل سأتلخّص من الكوابيس، ومن أصوات الأنين التي لا تفارق أذني..

تك.. تك.. تك.. تك..

الخامسة صباحاً..

الله أكبر.. الله أكبر..

أردد الأذان بصوتٍ خافت خلف المؤذن..

صوت قدميٍّ أُمي إذ تغادر الحمام بعد أن توضأت.. تدنو.. أراها من موضعي تطل علىّ عبر فرجة باب الغرفة نصف المفتوح..

وقياساً يمكن القول بأنّ قناعات الإنسان سواء أكانت عقائديّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة لا تفصل عن إنسانيّته ، وبدونها لا يستحق الإنسان هذه الصفة..

صديقان ..؟..

في بلكونة غرفتي..

ضمنت الشال الصوفي على جسدي، ورحت أدخن وأنا أتفقد صحف الصباح التي جلبها البواب بحثاً عن أيّة تغطيّة صحفيّة للمعركة التي جرت تحت سمعي وبصري أمس..

لم أجد أثراً لأيّ شيء في الصحف القوميّة الثلاثة الكبرى.. أما الصحف الخاصة، فتحدثت عن معركة بالأسلحة الرشاشة نشبت في إحدى البنايات بـ (الإسكندريّة) لم تخلف قتلى أو جرحى، وإن أشار شهود عيان إلى أنّ المعتدين (لم يتعرّفهم أحد) حملوا بعض الجثث أثناء انسحابهم الذي جرى قبل وصول قوّات الشرطة و..

«نسألك يا من هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن»..

دخلت غرفتي، ونظرت إلى شاشة الموبايل .. رقم private..

«العزیز الجبار المتکبر الـ»

ضغطت زر OK ..

وسمعت الصوت الرزين..

obeikandi.com

أرجو ألا تضايقك لغتي العربيّة المتعثّرة مسز (أمل).. أعلم أنّك تجيدين الإنجليزيّة، ولكنني أفضل أن نتحدّث العربيّة على سبيل التدريب لي..

دعيني أدخل في الموضوع مباشرةً بلا مقدمات.. هذا أسلوب.. أنت تملكين شيئاً ما يخصني.. الفيديو الذي صورته صديقك الأحمق وأرسله لك صباح أمس.. لا داعي لأي إنكار.. لقد تأكّد رجالى من أنّه فعل من خلال ال lap top الخاص به.. عثروا على عنوان ال E- mail الخاص بك، وعن طريقه جمعوا كل المعلومات بشأنك، وأرسلوا لي هنا في (نيويورك) file كامل يحمل كل تفاصيل حياتك..

ما وصلني عنك مسز (أمل) أنّك إعلاميّة ذكيّة طموحة ومثقفة.. وأعتقد أنّ طبيعة عملك تتيح لك أن ترى العالم من حولك بنظرة بانوراميّة شاملة.. القوة العظمى الأولى في العالم - ال states - تسيطر عليها تكتلات إقتصاديّة بالغة القوة والضحامة والتعقيد.. والمصالح المتبادلة بين هذه التكتلات تفرز سياسات وقرارات تؤثر على المواطن البسيط في أماكن أخرى بعيدة فمثلاً مصلحة مجموع شركات السلاح والبترول والمقاولات الأمريكيّة في الحصول على business في الخليج تنج عنها فقدان المواطن العراقي - البعيد بآلاف الأميال عن ال states - لأمنه وأحبابه وحياته ذاتها.. هذا مثال من كثير.. وفي السنوات الأخيرة إزدادت هذه التكتلات قوّة ونفوذاً، وصارت مثل الإخطبوط لها أذرع في كل مكان في العالم..

(هاليبرتون) واحدة من أقوى هذه التكتلات.. تضم إلى صفوفها عشرات المؤسسات والشركات ذات الأسماء المرموقة في جميع المجالات.. لا داعي لأن أذكر لك بعضها لأنك بالتأكيد تسمعين عنها.. رؤوس الأموال المساهمة في (هاليبرتون) كبيرة حقاً، ويمكن القول بلا مبالغة أنّها هي التي تسيطر على مقاليد الأمور في ال states.. ولا يمكن أن

يحتل الـ white houes ساكن إلا بدعيم منها، وبالتالي لا نبعد كثيراً عن الحقيقة لو قلنا أنها فعلياً تحكم العالم..

شركتنا (Egy-Nergy) من أهم المشروعات العملاقة التي تخضع لـ (هالبرتون)، والأموال التي صرفت عليها تكفى لسداد الديون الخارجية والداخلية لدولة مثل (مصر)، والسبب بالطبع أنَّ العائد المنتظر من وراءها يساوى أضعاف أضعاف المصروفات.. لذا فلك أن تراهني على مدى استعداد (هالبرتون) -التي تحكم العالم كما سبق وشرحت- لعمل أى شئ لحماية إستثماراتها..

كم تساوى قدرة فرد واحد أمام كيان قارّى كـ (هالبرتون)؟.. الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل قسمة أى رقم على الصفر.. أنت سيّدة ذكيّة وطموحة مسز (أمل)، وتعرفين بالتأكيد متى وكيف تنضمين إلى الجانب الرابع.. وأنا أحترم الأذكياء وأصحاب الطموح دوماً.. لقد توصل رجالى إلى الـ password الخاصة بالـ E-mail الخاص بك.. تسللوا إليه، وقاموا بمحو الفيديو من عليه تماماً.. أى أنه لم يعد هناك أى دليل مادى يمكن أن يشير إلى نشاط شركتنا الحقيقى من قريب أو بعيد.. وبالتالي لم يعد هناك وجود لكل التفاصيل التي سمعتها أمس إلا في ذهنك فقط..

أصارك القول أنه من الممكن -وبمنتهى البساطة- أن أمر بالتخلص منك.. قد تكونين سمعتى عني من قبل، ولكنك لا تستطيعين تخيل مدى ما أستطيع القيام به.. أنا -سيدتى- ملك (مصر) الغير متوج.. نفوذى ونفوذ والدى متغلغلان في كل شبر من بلدك.. بإشارة من إصبعى ينهار الإقتصاد المصرى، وبأخرى يعود أفضل مما كان.. أملك الأرضى والشركات والمشاريع والخدمات، وقبل ذلك أملك البشر.. الكراسى.. لذا فعندما أقول لك أن بإمكانى التخلص منك، فثقى أننى لا أمزح أو أهدد أو أتوعد.. أنا فقط أقرر حقائق..

غير أننى سبق وأخبرتكَ أننى معجب بذكاءك وطموحك، وأرى أنّ تعاونك معنا سيؤدى بالتأكيد لنتائج أفضل.. so.. إليك عرضى.. أنت إعلاميّة مسز (أمل)، ولن يبتعد عملك معنا عن مجال تخصصك.. ستوليّين مسئولية مستشارة الدعاية والإعلان في (Egy-Nergy).. سأترك لك

تحديد salary الذى تريه مناسباً لك.. أى رقم تطلبينه ستحصلين عليه.. لا داعى لأن أحدثك عن مميزات الإنضمام إلى كيان قارّى مثل شركتنا.. إنك -وبدون مبالغة- ستغادرين العالم القديم بما يكتظ به من تخلف وتأخر وجمود وسرقة، وستنضمين إلى النظام العالمى الجديد، الذى تمثل شركتنا دعامة رئيسية به (لا تنسى أنّها تتحكم فى أهم عناصره: الطاقة).. مقابل إنضمامك..؟.. بسيط جداً.. ستوقعين على عدد من الوثائق والأوراق التى تضمن لى ولأيك المطلق.. العرض بسيط و محدد.. (عرض لا يمكن رفضه) بلغة (المافيا).. لأن قبوله يعنى أن تربحي كل شئ، ورفضه ليس فقط أن تخسرى حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل ستحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها.. أمامك مسز (أمل) الفرصة للقفز من خندق العناصر غير ذات المعنى فى معادلة العالم الجديد، إلى وضع آخر.. حقيقى ومجسد.. ليس مجرد طنطنة وجعجة بلا طحين.. Pleace.. كوني -وهذا لمصلحتك- موضوعية وتحررى من أية شعارات بالية وحماقات عاطفية.. هلا أبلغتنى بقرارك..؟..

obeikandi.com

أمل الشافعي

إلتقطت نفساً عميقاً..

- تريد قراراً الآن يا مستر (كمال)؟..

- sure ..

مرّت لحظات من الصمت إلا من أزيز إستاتيكي مشحون على الأثير..

كم تساوى قدرة فرد واحد أمام كيان قارّى ك (هاليبرتون)؟..

الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل قسمة أى رقم على الصفر..

لقد توصل رجالى إلى ال password الخاصة بال E-mail الخاص بك..

تسللوا إليه، وقاموا بمحو الفيديو من عليه تماماً..

أنا -سيدتى- ملك (مصر) الغير متوج.. نفوذى ونفوذ والدى متغلغلان

فى كل شبر من بلدك..

لذا فعندما أقول لك أنّ بإمكانى التخلص منك، فثقى أننى لا أمزح أو

أهدد أو أتوعد..

لأن قبوله يعنى أن تربحى كل شئ، ورفضه ليس فقط أن تخسرى

حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل ستحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع

على الصفر.. لا معنى لها..

Please.. كونى -وهذا لمصلحتك- موضوعيّة وتحررى من أيّة شعارات

بالية وحماقات عاطفيّة..

.....

.....

تمت بصوت مبوح:

- تحت أمرك ..

.....

.....

.....

صوت طرقات أمى على باب حجرى الموصد.. فتحت الباب وعدت
إلى التسريحة.. قالت لى لائمة:

- تغلقين الباب على نفسك ساعة كاملة يا (أم)..

بترت عبارتها و هى تنظر لى بدهشة قائلة :

- لماذا ترين ثياب الخروج..؟

- علىّ أن أغادر الآن يا أمى..

- (مذهولة): بحالتك هذه..!!؟

قلت بينما أعقص شعرى إستعداداً لتغطيته بالطرحة:

- لقد صرت على مايرام و الحمد لله ..

لثوانٍ حدّقت فى بعينين متسعين، قبل أن تندفع لتقبض على ذراعى
قائلة بغضب:

- أنت مجنونة..

نزع ذراعى برفق من قبضتها وقلت محاولة الإبتسام:

- لن أجادلك كثيراً فى هذا..

تشبّبت بذراعى بقوة وهى تقول بشراسة:

- لست أمزح.. ولن أدعك تذهبين..

نظرت إليها مندهشة.. أحقاً ما أرى..؟.. هل هذه دموع..؟.. هل

عرفت شيئاً عن الموضوع..؟.. أم تراه قلبها الطيب شعر به..؟..

ضممتها إلى صدرى وقلت:

- سامحيني يا ماما.. هذه المرّة لا بد لى من الذهاب..

.....

.....

.....

- (بصوتٍ مبحوح): تحت أمرك..
بان الظفر واضحاً في نبرات صوته وهو يقول:
- That's my girl.. كنت واثقاً من أنك ستتخذين القرار السليم..

.....
- كم يلزمك من الوقت لإرتداء ثيابك..؟..
- (بعد لحظة من الصمت): عشرون دقيقة..
- fine.. أبدلي ثيابك، وستجدين (لاندروفر) سوداء تحمل رقماً مفرداً
بانتظارك أمام مدخل بيتك.. سيكون المستر (فريد شهاب الدين)
المستشار القانوني لـ (Egy – Nergy) بانتظارك داخلها.. سيكون عليكِ
الذهاب معه ولا تنسى اللاب توب..
- إلى أين سنذهب..؟..
- ستعلمين في الوقت المناسب..

.....
.....
.....
رفعت وجهها المبلل بالدموع وهتفت:
- لماذا..؟..
نظرت إلى عينيها الغائمتين المحاطتين بإطارٍ من تجاعيد ستين عاماً..
ولوهلة شعرت بالضعف..
باللّٰه عليكِ يا أمي.. لقد اتخذت القرار بصعوبة بالغة.. لست خارقة
القوّة أو فائقة الشجاعة.. الحصار محكم علىّ حقاً.. والقرار لم يكن
سهلاً بالمرّة.. أرجوك لا تجعل الأمور أكثر صعوبة..
كانت تحديقاً منتظرة جوابي على سؤالها.. أشحت بوجهي قائلة:
- هذا دوري..

لم تكن تعرف أياً تفاصيل.. فقط أدرك قلبها أنني مقبلة على التورط
في مشكلة خطيرة أو السقوط في هاوية عميقة..
.....
.....
.....

obeikandi.com

الجزء الرابع

الاختيار

obeikandi.com

همفففف (زفرة)..
 طبعاً لست بحاجة إلى أن أصف لك شعورى عقب سماع تلك
 التفاصيل الرهيبة التى روتها لى.. هو بالتأكيد ذات شعورك الآن.. مزيج
 من الذهول والصدمة والاستبشاع والشعور بأنّ العالم الذى تعرفه
 صار مختلفاً عقب هذه المحادثة عمّا كان قبلها.. دعك من الشعور
 الطبيعى الذى انتابنى بأنّ كل هذا غير حقيقى، أو محض أكاذيب
 ترددها تلك المرأة..
 بعد إنتهاء المكالمة، ولم أدر كم ظللت جالساً أحرق فى الظلام..
 لم أتبه إلا مع صوت زوجتى القادم من عند باب الغرفة متعجباً:
 - (حازم).. ألم تتم..؟..
 نظرت إليها وكأننى أراها للمرة الأولى.. صوت أذان الفجر يعلو قادماً
 من المسجد القريب..
 - لماذا غادرت فراشك..؟..
 لم أرد..
 - ماذا حدث يا (حازم)..؟.. لماذا لا ترد..؟..
 إلتقطت نفساً عميقاً وكأننى أستجمع مقدرتى على الكلام..
 - لا شئ يا عزيزتى..
 إقربت منى ووضعت أصابعها على كتفى متسائلة بقلق:
 - لماذا هبطت إلى غرفة المكتب..؟..
 هل أخبرها بما عرفت..؟.. هل ستتحمل سماع هذه التفاصيل
 المرعبة..؟.. عهدى بها أنها قويّة مؤمنة، ولكنّها فى النهاية أنثى..
 - يدك باردة كالثلج..
 بالطبع.. جسدى كله سايب وكأنه الجيلى.. يا إلهى.. أحقاً ما سمعت
 منذ قليل..؟..
 قلت بلهجة حاولت أن تكون هادئة:

- لا تقلقى يا دكتورة.. فقط تذكرت بعض الأعمال التى يتوجب على أدائها، فهبطت إلى المكتب للإنتهاء منها..

نظرت إلى بتشكك وتساءلت:

- أى أعمال تلك التى لا تستطيع الإنتظار حتى الصباح..؟..

- (كاذباً): مشروع طرح جراج الجامعة للبيع الذى ستم مناقشته غداً إن شاء الله فى مجلس الإدارة.. كان لا بد لى من مراجعته..

ظلت للحظات ترمقنى فى صمت محاولة قراءة ما يعتمل بداخلى..
الظلال تكسو وجهها، فى حين يبدو وجهى مكشوفاً أمام عينيها فى ضوء
الأباجورة الصغيرة المجاورة.. الضوء..

حانت متى نظرة جانبية بطرف عيني إلى الأباجورة.. إلى شعلة الضوء
المنبعثة منها.. الضوء..

الضوء... ..

مكان واحد فقط فى (مصر) هو الذى يستفيد بإنتاجنا من الطاقة هو
منشأة (باراداييس هايتس)..

الضوء ..

الضوء.....

هل هذا حقيقى..؟..

ماداموا مذبوحين لا محالة، فلا مانع من يُذبحوا فى آلاتنا كي نحصل
نحن على سيالهم الحيوى بدلاً من أن يضيع سدى.. على الأقل
سيجعل هذا لهم قيمة ما بشكل أو بآخر..

الضوء..

الضوء.....

احرق ابن السافلة ..

الضوء..

الضوء.....

لا شيء بيدى سوى الأئين.. الأئين..

والمزيد من الأئين..

الضوء ..

الضوء.....

الضوء.....

الضوء.....

- (أضغط زر إغلاق الأباجورة ناهضاً بعصية): صلاة الفجر وجبت..

لماذا لم أخبرها..؟..

قلت لك لأتني أخشى من وقع هذا الخبر عليها.. لن يكون هيناً بالتأكيد.. أنا نفسى -الرجل- ظل جسدى يرتعد طيلة ذلك اليوم، فما بالك بها..؟..

(لحظات من الصمت)..
.....
.....
.....
.....

لاكون صريحاً معك.. ليس هذا هو السبب الوحيد.. السبب الآخر هو أننى أردت أن أنفرد بنفسى لأفكر فيما يمكن عمله بدون أى تأثير خارجى.. كنت أعلم ما ستقوله (نشوى) لى عندما أقص عليها ما عرفت.. ستلج على كى أنسى هذا الموضوع تماماً وأبتعد عنه كلياً.. ستتكلم كثيراً عن الباب الذى يأتى منه الريح.. و«إبعد عن الشر وغنيله» وغيرها من الأمثال والنصائح كي تصرفنى عن اتخاذ أى رد فعل يمكن أن يثير أية متاعب.. هى طبعاً تخاف على وعلى المكانة التى حققتها، ولكن الموضوع هذه المرة -كذا فكرت- أكبر من أن تتناساه

أو تتغاضى عنه.. هناك جريمة بشعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ،
تُرَكَّب طيلة الوقت في حق أعداد غفيرة من البسطاء وعائري الحظ
من أبناء هذا البلد.. والسكوت عنها بدافع الخوف أو غيره هو جريمة
أبشع عقابها عند الله عظيم..
كان هذا هو ما فكرت فيه وأنا جالس إلى الدكتور (زكريّا) أقص عليه
كل ما نما إلى علمي بهذا الشأن..

الجسد متصلب كتمثال..
الملامح متحجرة لا حياة فيها.. اللهم إلا من اللمة المنبعثة من
العينين البتّيتين من خلف المنظار الطبي الأنيق..
لمرّة أخيرة تعتصر السبابة زناد المسدس، فتخرج الطلقة من الفوهة
بصوتٍ مدو، وفي الفيمتوثانية التالى تعبر الفجوة التى خلفتها سابقاتها
قبل ثوان في قلب لوحة التصوير..
هنا فقط تبدأ الحياة تدب في الجسد الساكن.. تنخفض اليد حاملة
المسدس.. تتزايد التجاعيد على جانبيّ الشفتين مع توالد الابتسامة
الظافرة عليهما.. العينان ترمقان برضا لوحة التصوير وقد اخترقت
الطلاقات قلبها تماماً..
الجسد كله يستدير نحوى.. ينظر إلى مبتسماً وكأنه يسألني: ما
رأيك...؟..

أبتسم بدوري إبتسامة عريضة وأنا أقول:

- ما شاء الله يا دكتور (زكريّا).. تزداد حنكَةً وبراعة بمرور الوقت..
score مدهش حقاً..

خلع سدادتيّ الأذنين من حول رأسه وناولهما مع المسدس لشابٍ
يقف بالقرب منه وأشار بكفه لى يدعونى لنغادر الـ lane قائلاً:
- لا يمكن أن يمر يوم واحد دون أن آتى إلى هنا لممارسة الرماية قبل
ذهابى إلى العمل.. لقد صار هذا أشبه بالإدمان..

قلت ونحن نغادر مبنى الرماية في نادى (Country Club):

- ولكنّه إدمان محمود يا دكتور.. لقد أوصانا الفاروق (عمر) رضى الله
عنه أن علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل..

ضحك قائلاً:

- في مثل سننا هذه لا مجال لممارسة السباحة أو ركوب الخيل.. الحمد لله على قدرتنا على الإمساك بالمسدس..
- (بسرعة): متّعك الله بالصحة والعافية دوماً..

سرنا متجاورين وسط ممّرات وحدائق النادي شبه الخالية إلا من بعض كبار السن الذين يمارسون رياضة المشي، في تلك الساعة من الصباح.. يتبعنا -عن مسافة مأمونة- رجلان ضخما الجثة يرتديان حلتين فاخرتين ومنظاريين داكنين هما بالطبع -الرجلين- الحارسين الشخصيين للدكتور (زكريّا).. ملاعب الجولف الخضراء تمتد لمساحات شاسعة من حولنا، وأصوات الطيور تملأ الأذان.. نظرت إلى السماء الصافية الخالية من الغيوم، فرأيت الشمس تتبدى بكامل فتنها هذا الصباح..
يا رب العالمين.. الله الله.. صلى على طه الأمين.. الله الله.. واغفر لي والمؤمن...

توقف وألقى نظرة على شاشة هاتفه المحمول، ثم ثبت السماعرة الدقيقة في أذنه وضغط زر الإيجاب..

- صباح الخير معالي الوزير.. كيف الأحوال..؟..
إبتعدت تأدياً كي يتكلّم على راحته، غير أنّه أشار لي بألا أفعل..
- نعم .. نعم .. بلغني خبر هذا الإستجواب.. إطمئن تماماً.. سأكون حاضراً في هذه الجلسة ولأقلّين المائدة على رأس هذا الأّفاق ومن يحتّمى بهم .. لا.. طبعاً طبعاً.. للأغلبية الكلمة الأولى والأخيرة كالعادة..
عفواً معالي الوزير.. لا شكر على واجب.. مع السلامة.. مع السلامة..
وأنهى الاتصال مغمغماً وكأنّه يحدث نفسه:

- لن تصلح هذه البلد وأمثالك خارج السجن..
ثم التفت إلى مبتسماً:

- عذراً يا (حازم).. أنت تعلم مشاكل البرلمان..
- كان الله في عونك يا (د. زكريّا)..

ظلمت أسير بجواره صامتاً، في حين راح هو يخف السير ملتقظاً أنفاساً عميقة، وكأنّه لم يسمع حرفاً مما قصصت عليه منذ دقائق أو سمع ولم يكثرث.. فكرت أن أفتح الموضوع مرة أخرى، ولكنني أطبقت شفّتي

مفضلاً إنتظار ردة فعله هو..

(بتؤدة): هل أنت متأكد مما أخبرتني به..؟..

أسرعت أجيب:

- متأكد جداً..

توقف عن السير، وجذبتني من ذراعى برفق لأجلس بجانبه على أريكة خشبية مغطاة بوسائد صفراء أنيقة على جانب الممشى المبلط بالحجارة.. إلتقط أنفاسه للحظات ثم سألني:

- هل أخبرت أحداً.. أى أحد.. بهذا الموضوع..؟..

- لا أحد سواك دكتور..

تنهد بارتياح أدهشني قائلاً:

- عظيم..

نظرت له بدهشة، فالتفت لى وقال:

- تريد نصيحتى..؟..

- بالطبع..

- إنس الموضوع برمته..

- (بدهشة): أنسى الموضوع برمته..!!؟..

- (بإصرار): وكأنك لم تسمع عنه شيئاً..

إذن فهو يعرف.. صمتٌ مصدوماً للحظات قبل أن أندفع قائلاً:

- ولكن هذه -واسمح لى- يا دكتور (زكريّا) جريمة.. والصمت عنها

جريمة أكبر..

لم يردّ.. ظل صامتاً لبرهة شعرت خلالها بقلبي يهوى بين قدميّ

لإندفاعى فى الكلام بهذه الطريقة.. سحب بيضاء قليلة تسبح فى السماء

الزرقاء اللامعة.. ليس هذا بالرجل الذى يمكن التهور معه..

شرد ببصره متأملاً لملاعب المسطحات الخضراء المترامية.. ثم قال

بهدهوء:

- أنت رجل مثقف يا دكتور (حازم) وتعلم أنّ الخطأ والصواب هى

أمور نسبية تختلف باختلاف الثقافات والأوضاع الإجتماعية والسياسية

والإقتصادية وكذلك باختلاف الزاوية التى تقيّم الأمور منها، فما نراه

نحن خطأ قد يراه غيرنا صواب والعكس صحيح، وليس معنى هذا أنّ

أحدنا مخطئ والآخر مصيب، ولكن الصحيح أنَّ كلانا مصيب من وجهة النظر التي يتكلم منها..

بدا لي كلامه عجيباً.. لم أنطق بحرف، في حين تابع هو:

- أنَّ هناك معيار ثابت لتقييم الأمور صار معتمداً في جميع دول العالم المتقدمة ألا وهو معيار المكسب والخسارة.. معيار أشبه باللغة العالمية التي يفهمها الجميع ويتحدثونها بطلاقة، وهو -هذا المعيار- كفيل بتوحيد الزوايا التي ننظر بها إلى الأمور، وبالتالي إزالة أي خلاف قد ينشأ عن اختلافها..

ومدَّ أصابعه ليداعب الخصلات البيضاء الخفيفة التي تغطّي صلعته مستطرداً:

- لو نظرت إلى مشروع كـ(إيجي- نيرجي) وفقاً لمعيار الربح والخسارة، فستجد أنه مشروع إيجابي جداً لما يحققه من أرباح بأقل قدر من الخسائر.. هذا مشروع يدرّ على الدولة ملايين الدولارات سنوياً، ويشجع على قدوم المزيد من الإستثمارات الأجنبية إلى (مصر)، وبالتالي يساهم في رفع معدل النمو، وتوفير فرص العمل لآلاف العاطلين و.. رغماً عني قاطعته:

- وماذا عن الضحايا..؟..

عقد حاجبيه متسائلاً:

- أي ضحايا..؟..

- (بانفعال): الأبرياء الذين تمزقهم الشركة إرباً لإنتزاع طاقة أجسادهم..

مط شفّيته قائلاً باحتقار:

- من قال أنَّ هؤلاء ضحايا أبرياء..؟.. إنَّهم حفنة من المجرمين والسفّاحين لا يتورّعون عن ارتكاب أبشع الجرائم والموبقات.. حيوانات مفترسة تركها حرّة طليقة يسبب أشد الضرر للمجتمع الآمن.. قلت محنقاً:

- من الممكن سجنهم أو عقابهم أو حتى إعدامهم، ولكن تعذيبهم بهذا الشكل أمر بشع ومخالف لجميع الأعراف والقوانين، وقبل ذلك لشرع الله عزّ وجل..

طال صمته هذه المرّة وهو يحدّق فيما أمامه بنظرة زجاجيّة خاوية من التعبير.. عبرت السماء سحابة ضخمة حجبت قرص الشمس وألقت بظل كبير على المكان..

- أنت بالطبع تعرف الإمام الأعظم الدكتور (البهنساوى).. ما رأيك فيه..؟..

طافت بذهنى على الفور صورة الرجل الفاضل بلامحه السمحة ولحيته البيضاء الوقورة، وتذكرت سلسلة المناصب الدينيّة الهامة التي تولّاها خلال سنوات عديدة مليئة بالعطاء.. تمتعت:

- عالم جليل.. أحسبه على خير ولا أُرَى على الله أحداً..

إبتسم قائلاً:

- عظيم جداً.. للدكتور (البهنساوى) رأى خاص بهذا الشأن الذي تحدث فيه أراحنى كثيراً.. هل سمعت عن حد الحراية في الإسلام..؟.. كنت أعرف الحراية وحدها بالطبع، ولكننى لم أفهم كنه العلاقة بينه وبين موضوعنا.. قلت:

- (بحيرة): أعرفه..

قال بخشوع:

- يقول المولى عز وجل في محكم التنزيل: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ).. أى أنَّ عقاب المفسدين في الأرض هو القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض..

فتحت فمى لأتكلّم، ولكنّه لم يمنحني الفرصة:

- من فضلك لا تقاطعنى.. ما تسميهم أنت ضحايا أبرياء أفتي مولانا (البهنساوى) أنهم ينطبق عليهم وصف المفسدين في الأرض، بعد أن ثبتت عليهم تهم مثل البلطجة أو الإرهاب أو السعى إلى قلب نظام الحكم أو محاولة تكدير السلم الإجتماعى أو إطلاق الشائعات المغرضة لتدمير المجتمع أو الإساءة لسمعة الأمة أو.. أو.. إلخ..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- وماداموا مفسدين في الأرض، إذن تنطبق عليهم عقوبة المفسد في الأرض المذكورة في كتاب الله العظيم.. ويرى الدكتور (البهناوى) أنّه إذا أمكن تحقيق نفعاً إضافياً للأمة من وراء إنزال العقوبة بالمفسدين (وهى عقوبات الغرض منها تعذيب المفسد وتطهيره بالألم)، فلا حرج من ذلك.. وبمعنى آخر.. لا توجد موانع شرعية لتعذيب المفسد في الأرض، والحصول على الطاقة الخارجة من جسده أثناء إنزال العقاب الشرعى به، مادام في هذا تحقيق منفعة للأمة..

ألجمنى منطق.. بقيت صامتاً لبرهة أفكر في كلماته، في حين تشاغل هو بمراقبة سرب من طيور النورس راح يحلّق في دوائر قريبة.. كانت أعماق تفور وتغلى من الحيرة.. هل هذا صحيح..؟.. الرجل يتكلّم بمنطق صريح وواضح، ومستند لأدلة شرعية لا شك فيها.. فهل من الممكن أن..

- ومن المسؤول عن تصنيف المجرم كمفسد أو غير مفسد..؟..
أجاب على الفور:

- الحاكم باعتباره وليّ الأمر.. وأنت مطالب بطاعته حتى لو بدا لك أنّه مخطئ..

- ولكن ما علمته يا دكتور هو أنّ أغلب الطاقة المستخرجة تُصدّر إلى الخارج..

هز كتفيه قائلاً:

- وما المشكلة طالما أننا نحصل على ما يخصنا من الأرباح..؟..

- ولكن الطاقة تذهب إلى (إسرائيل)..!!!

- (بهدوء): (إسرائيل) أو غيرها.. ما شأننا نحن بذلك..؟.. هذه تعاملات وسياسات تخص (إيجى - نيجرى) لا دخل لنا بها..

- ولكن..

- (مقاطعاً): لا تنس أنّ بيننا وبين (إسرائيل) إتفاقية سلام.. والله سبحانه و تعالى يقول: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكّل على الله).. أى أنهم شرعاً وقانوناً ليسوا خصوماً لنا، فما وجه الإعتراض على تصدير الطاقة إليهم..؟..

صمّت تماماً.. وضع يده على كتفى قائلاً بابتسامة هادئة:

- هَدَّئِ من روعك يا (حازم).. أعرف أنَّ الأمر قد يبدو لك مروَّعاً في البداية.. كان كذلك لى أيضاً عندما عُرِضَ علىَّ أول مرَّة، ولكن لو فكرت فيه كما شرحتَه لك ستجدَه منطقياً جداً، وبعيداً عن أى شبهة.. لست أنتَ المسلم الوحيد في هذا البلد.. كلنا مؤمنين والحمد لله، ولا نرضى أن نبيع آخرتنا مهما كان الثمن..

يا رب العالمين.. الله الله.. صلى على طه الأمين.. الله الله.. واغفر لى والمؤمنين..

كدت أنهض.. أشار لى بالجلوس وهو يثبت المسماع إلى أذنه اليمنى..
- أهلاً يا (ممدوح).. كيف الحال يا صديقى..؟.. ما أخبار الطقس لديكم في (لندن).. ههههه.. أعرف أعرف.. لقد قضيت شهراً كاملاً من شتاء العام الماضى هناك.. (صمت للحظات ثم).. القضية..؟.. نعم.. نامت تقريباً.. أعتقد أنَّه سيكون بوسعك العودة في غضون الأشهر القليلة القادمة.. بالتأكيد.. (يتسم).. دعهم ينبحون كما يشاءون.. لا.. لا.. فقط ثق بكلامى.. (صمت للحظات ثم).. حسناً.. في حفظ الله.. مع السلامة..

أنهى الإتصال.. أطرقت برأسى أرضاً دون أن أتكلّم، فقال لى:

- إسمعنى جيِّداً..

رفعت رأسى، فاستطرد بلهجة جادة:

- لا تظن أننى طرف في هذا المشروع.. أنا فقط لدى الكثير من التفاصيل بحكم منصبى الرسمى والحزبى.. هذا المشروع يخص أسماء هامة جداً وخطيرة جداً في البلد.. ومجرد تساؤلك حوله -أى المشروع- يعرضك لمخاطر لا قبيل لك بها.. فابتعد عنه تماماً..

لم أستطع كبح جماح فضولى.. تجاهلت تحذيره وسألته:

- أسماء مثل من يا دكتور..؟..

قال بصرامة:

- قلت لك ابتعد تماماً عن هذا الموضوع وكأنك لم تسمع به.. هذه منطقة محظورة محظورة..

ومال نحوى مستطرداً:

- يا (حازم).. أسهمك مرتفعة عند صانع القرار.. واسلوبك في قمع

الإخوان داخل الجامعة لقي استحسان العديدين، وأكثر من مرة سمعت
إسمك يتردد عند الحديث عن التعديل الوزاري القادم..
لم أصدق أذني..

- (بلهفة): حقاً يا دكتور..؟..

عادت التجاعيد تتراكم على جانبي شفتيه وهو يتسم قائلًا:

- وهل سبق أن كذبت عليك..؟..

أسرعت أقول:

- عفواً يا دكتور..

- نحن زملاء دراسة منذ عشرات السنين يا (حازم).. معزتك لدي
كبيرة، وبشكل أو بآخر أعتبرك أحد رجال المخلصين.. لذا فنصحت
لك خالصة.. إبتعد تماماً عن شركة (إيجي - نيرجي).. إمح الموضوع
بالكامل من ذاكرتك.. أمامك مشوار من النجاح والتقدم، فلا تضع كل
هذا من بين يديك..

وَرَبْتُ على ركبتي وهو يغمز بعينه مبتسماً:

- يا معالي الوزير..

لم أتمالك نفسي من الفرحة.. صافحته بحرارة وأنا أهتف:

- جزاك الله خيراً يا دكتور (زكريّا)..

- (مبتسماً): أنت تستحق كل الخير يا صديقي..

إقترب منّا في هذه اللحظة رجل ضخم الجثة غزير اللحية تزين وجهه
زبيبة صلاة داكنة، وتغطي كتفيه عباءة سوداء فاخرة.. إعترضه حارسا
الدكتور (زكريّا)، غير أنّ الأخير أشار لهما كي يسمحا له بالدنو..

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

- (نهضنا نصافحه): وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

أشار الدكتور (زكريّا) نحوه..

- الحاج (صالح عبد النعيم).. رجل أعمال..

ثم..

- (د. حازم أبو زيد).. رئيس جامعة (الإسكندرية)..

- (بابتسامة عريضة): تشرفنا..

- (بابتسامة عريضة): فرصة سعيدة..

قال الدكتور (زكريّا) محدثاً الرجل:

- كيف الأحوال يا حاج (صالح)؟.. وكيف حال الشيخ (بندر)؟..

- بخير حال يا (زكريّا) بك.. ويرسل لك خالص تحيّاته..

شعرت أنا بأنّ وقتي قد انتهى، فنهضت مستثّناً.. حييت الرجلين بحرارة، ونظر الدكتور (زكريّا) في عينيّ مباشرة وقال وهو يشد على يدي مصافحاً:

- لا تنس ما قلته لك..

- أمرك يا سيّدي..

أدّرت ظهرى لهما منصرفاً وأنا أساءل نفسي متى سمعت باسم الحاج (صالح) هذا من قبل.. تسلل إلى مسامعي صوت دكتور (زكريّا) وهو يخاطب صديقه:

- إعتبر أمر المصنع منتهياً يا حاج.. أبلغ الشيخ (بندر) أنّ موافقة الشركة القابضة صدرت بالفعل.. طبعاً ستكون هناك مناقصة حتى لا يزعجنا أحد و.. و..

ثم غاب صوته -مع ابتعادي- عنيّ.. كانت البهجة تملؤني، ونسيت تماماً موضوع الشركة.. معالي الوزير.. معالي الوزير..

حانت منّي نظرة إلى السماء، فوجدت الغيوم الرماديّة تملؤها، وقد حجبت ضوء الشمس تماماً.. كيف انقلب الطقس -فكرت- بهذه السرعة من النقيض إلى النقيض..!!!

سبحان الله..!!!

كانت دهشة زوجتي كبيرة عندما وجدتني أعود إليها في الفيلا بعد ساعة واحدة من مغادرتي.. سألتني وهي تتأمّل ابتسامتي:

- هل كان اجتماع مجلس الإدارة سريعاً إلى هذه الدرجة؟..!!

- (بارتياح): لم أأدر الهائتس من الأساس..

- (بدهشة): أين كنت إذن؟..

أجبتها وأنا أتجه نحو الدرج الصاعد إلى الطابق العلوي حيث أجنحة النوم:

- في ال (country club) بصحبة دكتور (زكريّا)..
٢٥٦

هتفت من ورأى:

- هل هناك جديد...؟..

أخبرتها باختصار -حتى أتخلص من فضولها- عن بشارة الدكتور (زكريّا) محاذراً ذكر أيّة تفاصيل حول الموضوع الآخر.. وبمجرد أن ولجت جناح النوم، إستلقيت على الفراش شاعراً بسعادة عارمة ممتزجة براحة عميقة وكأن عبء ثقيلاً كالجبل إنزاح من على كاهلى.. حمداً لله العلىّ القدير.. راحت كلمات الدكتور (زكريّا) تتردد بين جنبات رأسى التى يتسلل إليها النعاس بسرعة بعد سهر ليلة البارحة الطويل..

.....

.....

يرى الدكتور (البهنساوى) أنّه إذا أمكن تحقيق نفعاً إضافياً للأمة من وراء إنزال العقوبة بالمفسدين، فلا حرج من ذلك..

.....

.....

وأكثر من مرّة سمعت إسمك يتردد عند الحديث عن التعديل الوزارى القادم..

.....

.....

أمامك مشوار من النجاح والتقدم، فلا تضع كل هذا من بين يديك..

.....

.....

يا معالى الوزير..

جالساً أمام عجلة قيادة سيّارتي.. بجوارى صف من أشجار السرو المنتشرة بطول رصيف الشارع..

الساعة الآن السابعة والثلاث صباحاً.. الجو بارد.. بارد..
أرفع الجوان إلى شفتي.. أسحب نفساً عميقاً.. أنفث الدخان في تكاثف
على زجاج السيّارة الأمامي..

متوتر..؟.. لا.. ما يملؤني حالياً هو شعور شديد بالإثارة والترقب..
كأنني أتابع فيلماً مثيراً على الـ DVD.. ما يضايقني فقط هو الإنتظار..
لكم أمقته..

أنظر إلى ساعتى .. السابعة وخمس وعشرون دقيقة..
نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..
هاهوذا..

يرتدى training suit أزرق اللون وينتعل حذاءً كاويتشوكياً لابد أنه
من أفخر الأنواع..

يغادر بؤابة فيلته.. يبدأ في تكرار السيناريو اليومى بشكل ممل:
الحارس الشخصى يتحرك ليتبعه - يشير له أن يبقى في مكانه - يبدأ في
الركض وحيداً حول الفيللا لمدة عشر دقائق في محاولة للتخلص من
بعض الشحوم التي تكسو جسده الممتلئ- يعود إلى الفيللا ليغادرها
بعد نصف الساعة- وقد اغتسل وأبدل ثيابه - إلى (باراداييس آير بورت)
ليستقل طائرته إلى مقر الشركة بـ (القاهرة)..

هذا السيناريو المتكرر حفظته جيّداً بعد شهر من المراقبة اليومية..
أنا أعيش هنا في الهايتس، لذا فمن السهل على التنقل بين أرجائها
والتواجد هنا للمراقبة يوميّاً دون أن يساءلنى أحد.. من يجرؤ على
ذلك..؟..

تمرّ خمسة دقائق.. من موضعى هذا ألحظ بسهولة الإرهاق البادى
عليه بسبب المجهود.. أكاد أسمع صوت لهائه ودقات قلبه.. مع ذلك
يستمر في الركض..

نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..

من خلف أشجار السرو -من نقطة لا يرصدها الحارس الخاص- يبرز
رجالى الثلاثة.. تـمـر العمليّة في أقل من خمسة ثوان.. ضربة قويّة على
رأسه.. يسقط مغشياً عليه.. أربعة أذرع مفتولة تتلقى جسده المترهل..
ترفعه.. تلقى به كالجوال في صندوق السيارة المجاورة لهم.. ينغلق

الصندوق.. تنطلق السيّارة بهم جميعاً..
في اللحظة التالية.. ألقى أنا ما تبقى من الجوان من نافذة سيّارتي..
أحرك ذراع السرعات.. أضغط دواسة الوقود..

ألقيت نظرة على الشيك الموضوع أمامي على المكتب.. تساءلت:
- ماهذا!..؟..

أجاب الأستاذ (يوسف) -مدير الشؤون الماليّة- بابتسامة واسعة:

- نصيب سيادتكم..

نظرت له دون أن أتكلّم، فأسرع يستطرد موضحاً:

- نصيب مكتب سيادتكم من مكافأة التصحيح.. تصحيح امتحانات
التيرم..

كنت أعرف هذه الأمور بالطبع بحكم السنوات الماضية التي قضيتها
كأستاذ في الجامعة، غير أنّ معرفتي بها شيء، وموقفى منها شيء آخر..

- أضف هذه الأموال إلى حساب مكافآت المصححين، وقدم لي كشف
كامل بها..

بدا عليه الذهول.. ردد بغباء وكأنّه يستوضح الأمر:

- مكافآت المصححين!..!!..

قلت بصرامة:

- أنت سمعتني جيّداً..

أسرع يقول:

- ولكن يا دكتور.. أعني أنّ الدكتور (ماجد رسلان) كان يحصل على
حقه من المكافأة.. ليس هو فقط.. كل من سبقوه من رؤساء الجامعة
كانوا يفعلون.. هذا تقليد معروف و..

- (مقاطعاً): لا شأن لي بأيّة تقاليد.. هذه مكافآت مرصودة للمشاركين
في تصحيح الإمتحانات مقابل جهودهم.. وأنا لم أشارك في عمليّة
التصحيح، لذا فلا حق لي فيها.. مفهوم..؟..

- ولكن يا دك..

قاطعته مرة أخرى:

- (بلهجة حادة): (يوسف).. كلامي يُنفذ من دون مناقشة..

إحتقن وجهه وهو يقول:

- أمرك يا دكتور..

إلتقط الشيك من على المكتب، واستدار لينصرف، غير أنّه عاد يلتفت إلى قائلاً بتردد:

- وماذا عن نسبة الأمن؟..

- نسبة الأمن تذهب إلى مكتب العقيد (سليمان قنديل) على الفور..

اللانشر يشق الأمواج بسرعة هائلة.. الأمواج تعلو وتهبط، بينما الهواء المثلج يكاد يعصف بنا..

أنشبت بحاجز القارب.. الرذاذ يغرقنا.. الرجال يتبادلون الحديث والنكات البذيئة.. يقهقون ساخرين.. أستمع إليهم.. أبتسم.. أقهقه مثلهم..

ألقى نظرة على الجوال الملقى في قاع اللانشر بالقرب مني.. شعور جارف بالنشوة يملؤني.. أمد قدمي لأضعها على الجوال.. لا حركة.. البغل فاقد الوعي حتى الآن؟..!! لابد أنّها كانت ضربة قويّة حقاً.. الرجال يتضحكون.. أضحك معهم..

نظرة من وراء كتفي على (باراديس هايتس) التي تتبعد من خلفنا.. حقاً كانت مغادرتها بهذا الصيد الثمين يسيرة.. إجراءات الأمن مشددة فقط على الداخلين إليها.. أما الخارجين منها، فلا أحد يمكنه أن يعترضهم.. دعك من مفعول المال الذي لا مثيل له..

الغيوم تملأ السماء (كذا هي منذ أيام).. بأصابعي أزيح خصلات شعري المبتلة الملتصقة بجبينتي.. (فتحي) -الدليلر وصديقي القديم من أيام المكتب- يناولني جواناً:

- نهارو لبن..

- لبن بحليب..

كذا قلت وأنا أتناول الجوان منه.. إنفجر ضاحكاً فضحكت معه..

و من أمامنا راح ميناء بحري القديم يقترب.. ويقترب..

في ذلك الصباح استيقظت شاعراً بأنني لست على مايرام.. صداع

مؤلم يتملك رأسى، وشعورُ عام بالإنهاك يملأ جسدى، بالإضافة لألم غير مألوف فى الظهر.. غريبٌ هذا.. أذكر جيداً أننى أويت إلى فراشى فى ساعة مبكرة من مساء اليوم السابق.. أى أننى نلت قسطاً لا بأس به من النوم .. فما سر هذا الصداع والإنهاك؟؟..!!

إعتدلت جالساً فى الفراش.. ضوء النهار الوليد يتسلل من بين فرج الستائر التى تغطى النافذة.. ألقىت نظرة على عقارب الساعة الفسفورية على الكومودينو المجاور، فوجدتها تشير إلى السادسة صباحاً.. أزحت الغطاء ونهضت بسرعة لأتوضأ وأؤدى صلاة الصبح قبل شروق الشمس عندما شعرت بأن هناك شئ ما غير طبيعى..

تجمدت فى مكانى.. إمتدت أصابعى لتحسس مقدمة سروال منامتى.. غريب هذا.. السروال مبتل تماماً من أعلاه..!!! ليس السروال فقط .. بل ولباسى الداخلى أيضاً..!!!!..

جلست على طرف الفراش ورأسى يدور.. ما الأمر..؟؟.. هل تبولت لا إرادياً..؟؟.. كيف هذا..؟؟.. أنا فى الرابعة والخمسين من عمرى.. ومازال أمامى الكثير حتى أصل لمرحلة التبول اللاإرادى.. فهل هو مرض أم..؟؟..

الصداع يمزق رأسى.. مددت أصابعى من جديد أتحسس البلبل.. خلعت السروال بالكامل وأدنيته من أنفى.. لا أثر لرائحة بول على الإطلاق..

سمعت صوت (نشوى) زوجتى يأتى من خلفى محملاً بالنعاس:

- ما الذى أوقظك مبكراً..؟؟..

لأشعورياً خفضت يدى الممسكة بالسروال.. إلتفت إليها مجيباً:

- الشمس تكاد تشرق.. قمت لألحق صلاة الصبح حاضرة..

ظَلَّت عيناها مغمضتين.. إبتسامة غامضة إرتسمت على شفتيها وهى تقول بصوتٍ ناعس:

- لن تجد وقتاً كافياً للإغتسال.. ستشرق الشمس قبلما تفرغ..

هوى على كلامها كالصاعقة.. لن أجد وقتاً كافياً للإغتسال..!!! إذن فهى تعرف بأمر هذا البلبل الذى أصاب ثيابى.. ولكن كيف..!!!؟..

- ظننت أنك ستنام حتى الظهيرة بعد سهرة الأمس..

سهرة الأمس ..!!؟.. عم تحدث ..!!؟..

سألتها بانفعال:

- نحن سهرنا بالأمس..؟..

فتحت عينيها.. نظرة عابثة لم أرها منذ زمن بعيد.. ضحكة خافتة..

- شعرت وكأنّ الزمن قد عاد بنا عشرين عاماً إلى الوراء.. سبحان الله..

لم أكن أظن أنّك مازلت محتفظاً بعافيتك لهذه الدرجة.. اللهم لا حسد..

الصداق.. رأسى يكاد ينفجر.. ما الذى يعنيه كل هذا..؟.. هتفت:

- عمّ تحدثين..؟..

تلاشت ابتسامتها، والتمعت الدهشة في عينيها، وكأنها تنظر إلى

مجنون..

- (بحيرة): هل تمزح أم أنّك حقاً نسيت..!!؟..

- نسيت ماذا..؟..

- ليلة أمس.. عندما نمنا سوياً.. لقد ضاجعتني بقوة شاب في أوج

عنفوانه..!!

أكره أن أتحدث عن موضوع شديد الخصوصية كعلاقتي الجسدية بزوجتي.. أى إنسان يحترم نفسه وأسرته يفعل.. غير أننى مضطر هذه المرة لأن أكون صريحاً معك وستعرف السبب بعد قليل..

كما قلت لك.. أنا في الرابعة والخمسين من عمري.. زوجتي تصغرنى بحوالى أربعة أعوام.. أى أنّها بلغت المرحلة المعروفة بسن اليأس منذ سنوات قليلة.. إنقطع طمثها، وراح إقبالها على الممارسة الجنسية ينخفض شيئاً فشيئاً.. وتوافق هذا مع التراجع التدريجى -بحكم السن- في قدرتي على الأداء أثناء العلاقة الجسدية..

النتيجة: تباعدت الفترات الفاصلة بين لقاءاتنا الجسدية لتصل إلى شهور ثم ماهو أكثر مع أعباء عمادة الكلية.. اللقاء نفسه في المرات الأخيرة البعيدة لم يتجاوز دقائق قليلة (مع استخدام منشطات مستوردة) نستلقى بعدها متهاكين، قبل أن نستغرق في نعاس عميق.. لذا -وبعد كل هذه الأعوام- لك أن تتخيل مدى ذهولى ودهشة

زوجتي من قدرتي على مضاجعتها طيلة الليل «كشاب في أوج عنفوانه»
على حد قولها..
والأكثر إثارة للجنون هو أنني لا أذكر شيئاً من كل هذا...!!

ألقيت نظرة من خلف الستائر الزرقاء المتسخة.. كل شيء في الشارع
طبيعي.. المكتبة.. الفراجي.. بوتيكا الملابس الحريمي.. محل الفول
والفلافل.. العرببة الخشبية المحملة بثمار الفول الحراق يقف بجوارها
كهل يرتدي جلباباً ويرفع عقبرته بالنداء على بضاعته.. صبي المقهى
يكنس الرصيف أمام أبواب مقهاه.. عايزين نسمع أبله فضيلة.. راح
تحكيلنا حكاية جميلة..

كل شيء طبيعي.. لم يلحظنا أحد ونحن نحمل الجوال الضخم من
السيارة إلى مدخل البناية..

أعدت الستائر إلى موضعها.. مشيت على الأرض الموزايكو المتربة، بينما
أخلع سترتي وقميصي.. عند مروري بجوار المرأة لمحت بطرف عيني
جسدي التحيل المشدود وشعري الطويل المنسدل على كتفي، ولحيتي
الكثة المشعثة.. كم مضى على من الوقت لم أهتم فيه بتنظيف
جسدي...؟! لا أذكر حقاً..

وقفت في منتصف الصالة.. تأملت الجسد الممتلئ وقد أخرجه الرجال
من الجوال، ونزعوا عنه ثيابه.. تناولت سكيناً ضخماً من على المنضدة..
أشرت بطرفه إلى الجسد مخاطباً الرجال:
- علّقوه..

مطواة سويسرية.. self- defence.. مجموعة من شرائط الأقراص
المخدرة أعرفها جيداً بحكم عملي.. شريط فياجرا مستورد.. نصف
فص من الأفيون..

أشياء تعودت رؤيتها والتعامل معها -بدون تعاطي طبعاً- أثناء
تعاملي مع المدمنين ومرضى الإكتئاب في مستشفى الخاص.. لكن
بصدق لا أملك تفسيراً لوجودها في درج الكومودينو المجاور لفراشي...!!

نظرت عبر شاشة الكاميرا الرقمية.. الصورة ليست ممتازة، ولكنها تفي بالغرض.. صحيح أنَّ الإضاءة معتمدة إلى حدٍ ما لأتني قمت بإسدال جميع الستائر، ولكن إضاءة الفلاش مع لمبة السقف ستقوم بعمل لباس به..

الجسد العاري الممتلئ معلّق إلى جانس بالسقف.. يدها مقيدتان خلف ظهره.. رأسه يكاد ينفجر بالدماء المحترقة فيه.. فمه مكمم.. الدماء متجلطة حول جروحه، بينما آثار الحروق تملأ الذراعين والمؤخرة.. أمّا العينان فمليّتان برعبٍ لا حد له..

الرجال الثلاثة واقفون حول الجسد المعلّق.. أولهم يحمل سوطاً.. الثاني يقبض بأصابعه على عصا خشبيّة غليظة، أمّا الثالث فقد لف على يده سلك كهرباء.. الحق أنهم يستحقون كل مليم تقاضوه وسيتقاضوه بعد أداءهم الإحتراقي طيلة الساعة الماضية..

الجميل أنَّ الرجل لم يصدر منه أثناء تعذيبه -بفضل إحكام الكمامة على فمه- سوى أنين خافت ذكرني بأنين الأسطي (عمّار) الذي ملأ مسامعي طيلة الشهور الماضية.. ولكن بحق، كان هذه المرّة أشبه بموسيقى عذبة لا يستطيع (موتسارت) نفسه إبداعها..

إقتربت من الرأس المحترق.. شعره أشعث.. وجهه متورّم.. قطرات العرق تسيل على بشرته ممزجة بالدموع المنهمرة من عينيه.. سألته بصوت هادئ:

- أمازلت مصرّاً على الصمت..؟..

هزّ رأسه بعنف.. إبتسمت قائلاً للرجال:

- نزلوه..

زخّات المياه الدافئة تنهمر بغزارة من الدش.. تدفع رغاوى الشامبو والبادي جيل عطر الرائحة.. تنزلق بنعومة على جسدي العاري المكدود لتتجمّع في البانيو قبل أن تنساب عبر البالوعة.. الماء الساخن يغمرني فيبعث بي إرتياحاً خاصاً يجعلني لا أرغب في الخروج إلى حيث الهواء البارد..

أرفع وجهي لأعلى مستقبلاً القطرات المنهمرة.. أغمض عينيّ وأفكر..

هل هو (ألزايمر)..؟..

قفزت إلى ذهني على الفور الصور الشهيرة في كتب التشريح للجداول الليفية التي تتكون على المخ والمميّزة لهذا المرض الرهيب.. برغمي إرتجفت.. أحقاً هو (ألزايمر)..؟.. أمر وارد.. لربما كان هذا النسيان هذه أحد أعراضه الأولى.. فقدان متقطع للذاكرة..

زفرت بعمق طارداً قطرات الماء من أنفي، ثم عدت أستقبل الزّخات بوجهي.. إستعذت بالله في سري من الشيطان الرجيم.. لآمل في سعة رحمة الله.. لعله التوتر والإرهاق.. لعله خرف الشيخوخة.. لعله أي شيء إلا هذا المرض المخيف..

أزحت الستارة الرقيقة.. غادرت البانيو بحذر حتى لا أنزلق على أرضية المسبح المصنوعة من البورسلين.. رحت أجفف جسدي المبتل بمنشفة وريدية كبيرة.. أجفف بسرعة.. الجو بارد حقاً.. بخار الماء يملأ فراغ المسبح.. يتكاثف على الجدران المكسوّة بالسيراميك.. أجفف جسدي بعناية..

هنا لاحظت شيئاً..

هرعت إلى المرأة الكبيرة التي تملأ حوض غسيل الأيدي.. كادت قدمي المبتلتان أن تنزلقا.. مسحت بكفي بخار الماء المتكاثف على سطح المرأة.. رفعت ذراعي الأيمن ودققت النظر.. جلدي يقشعر وشعر ذراعيّ ينتصب..

متى وأين وكيف انطبع هذا الوشم الصغير لثعبانين يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل على ذراعي..!!؟؟

إنصرف الرجال أخيراً..

جلست إلى المنضدة.. قمت بإيصال الكاميرا باللاب توب، ثم حمّلت الفيديو الذي صورته إليه.. بطرف عيني، ألقيت نظرة عابرة على الجسد العاري المثخن المقيد إلى مقعد خشبي بالقرب مني..

الكمامة على الفم تؤدي عملاً طيباً، ورغم ذلك فالأنين لا ينقطع.. كم هذا ممتع..

في الدقائق التالية قمت بإرسال الفيلم إليها كمكلف مضغوط..
أشعلت جواناً جديداً، وطفقت أنتظر..

تفرّس العقيد (محمد السّمان) في وجهي وسألني:

- ماذا هناك؟..

قلت بابتسامة مرتبكة:

- لا شيء..

رمقني للحظة وكأنّه يسبر أغوارى بعينيه، قبل أن يقلب في أوراق الملف الموضوع على مكتبه قائلاً:

- الإنتخابات القادمة لن تكون سهلة أبداً يا دكتور (حازم).. نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة (الإسكندرية) موقع مهم جداً، لانريده أن يضيع من أيدينا كما حدث في إنتخابات نادى جامعة (القاهرة) العام الماضي و..

بصعوبة منعت نفسي من التلفت حولي..

- أساتذة (٩ مارس) يعرفون ذلك جيّداً..

أنا متأكد من أننا -سيادة العقيد وأنا- وحدنا تماماً في حجرة مكتبه..

- قائمتهم تضم أسماءً قويّة حقاً..

فمن أين يأتي صوت الأئین الذي يملأ مسامعي...؟؟!!!!

- منعهم بأي ثمن..

كأنّ أحدهم قد تمزقت أوصاله منذ وقت قليل في الجوار...!!!!..

ألقيت نظرة على ساعة يدي ثم قلت لها:

- لا وقت يا عزيزتي.. لابد أنّهم وصلوا..

- (بقلق): من هم؟..

لم أجبها.. نهضت من أمام الكاميرا.. ألقيت نظرة عبر النافذة من خلف الستائر الزرقاء المتسخة..

غريبٌ هذا.. الشارع ساكن تماماً.. لا مازّة.. لا سيّارات.. المحال كلها مغلقة.. إختفت عربة الفول الحراق ومعها صاحبها العجوز.. حتى صوت مذياع المقهى الذي لا ينقطع طيلة اليوم لم يعد له وجود..

هواء بارد يهب فيحرّك بعض الأوراق القذرة الملقاة عبر الشارع،
ويبعث قشعريرة باردة في جسدي..
شعرت بأحشائي تنقلص من فرط التوتر.. تحركت إلى الردهة.. ألقيت
نظرة عبر النافذة المظلمة على المنور.. وهنا رأيتهم..

حمداً لله..

جميع الفحوصات وتقارير الأشعة التي أجريتها -بشكل سرى طبعاً-
في مستشفى بالهايتس جاءت سلبية تماماً.. لا مشكلة عضوية لدي في
المخ.. لكن هذا لا يجزم بشيء.. مرض (الزايمر) لا يمكن تشخيصه إلا
بتشريح المخ، وبما أن هذا أمر مستحيل إلا بعد موتي، فلا وسيلة
للتشخيص إلا باستبعاد الأمراض الأخرى، ومراقبة ظهور أعراض جديدة
له كتدهور في القدرات العقلية أو العجز عن أداء بعض الأعمال اليدوية
البسيطة وغيرها..

من هذه الناحية تأكدت من أنني على خير ما يرام.. ذهني متيقظ
دوماً، وأدائي لعمل أفضل ما يكون بدليل التدابير المحكمة التي
اتخذتها لإدارة انتخابات نادي أعضاء هيئة التدريس القادمة.. هذا أمر
يستلزم تركيزاً وجهداً كبيرين لا يتوفران لمرضى (الزايمر)..

بأى حال يمكنني الاطمئنان قليلاً للوضع الحالي.. لم يثبت المرض
على بصورة مؤكدة أو حتى شبه مؤكدة.. لأحاولن تجاهل ما حدث،
وأركز أكثر في الانتخابات القادمة، والأعراض ستفرض نفسها في حال
إصابتي بـ (الزايمر) لا قدر الله..

فقط لو يزول هذا الطنين الشبيه بالأنين من أذني..!!!!..

عدت قائلاً بلهجة جادة:

- لقد وصلوا كما توقعت.. رأيتهم عبر النافذة المظلمة على المنور..
عددهم كبير..

هتفت بانفعال:

- من...؟!..

- لا أعرف بالضبط إن كانوا من رجال الشرطة أم رجال هذا الخنزير..

يرتدون ثياباً سوداء ويحملون الأسلحة..

- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك...؟..

رفعت الهاتف الخلوى أمام الكاميرا..

- تعقبوا هاتفه المحمول بالأقمار الصناعيّة.. أعتقد أن طبيعة المباني من حولنا لعبت دوراً ما في تأخر توصلهم لموضعنا..

- لماذا لم تتخلص منه...؟..

تقصد الهاتف المحمول.. إبتسمت ولم أرد.. صاحت:

- إهرب إذن..

- سأفعل يا عزيزتى.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

بينما أراجع بريدى فى مكتبى بالجامعة، وجدت مظروفاً يحمل شعار المؤسسة القانونيّة التي أتعامل معها.. فتحته، ورحت أقرأ محتوياته:

عقد بيع أملاك

فى ظل أحكام القانون ٤ لسنة ١٩٩٦

إنه فى يوم الموافق
قد باع السيد (سعد نعمان الديب) التابع وكيلاً قانونياً عن السيد
(ممتاز نجيب خشبة) بموجب التوكيل رقم (.....) إلى (حسن سيد
الأهل) وكيلاً قانونياً عن السيد (حازم طه أبو زيد) بموجب التوكيل
رقم (.....) العقار رقم (....) حى (الزهور) قسم (باراداييس هايتس)
(بقصد استعماله كسكن شخصى .

وقد اتفق المتعاقدان وهما بكامل الأهلية على البنود الآتية:

بند ١ :

بند ٢ :

بند ٣ :

بند ٤ :

.....

رفعت حاجي متسائلاً:

- صديقان..؟..

لم ترد، وإن بدا التأثر واضحاً على ملامحها.. هزّت رأسها موافقة،
بينما خيطان من الدموع ينسالان على وجهها.. إبتسمت بارتياح..

- الوداع إذن يا صديقتي العزيزة..

وقبل أن تتفوه بحرف، نهضت من أمام الكاميرا.. الطرقات قويّة على
باب الشقة.. كم سيتحمّل..؟.. عبرت الصالة بخطوات سريعة واثقة
نحو الغرفة الداخليّة.. يدي اليمنى تقبض على زجاجة البلاك ليبل
الصغيرة، وعندما ممرت بالجسد المقيّد إلى المقعد الخشبي، مددت
أصابع يدي اليسرى لأقبض على المسند الخلفي للمقعد وجرفته خلفي
نحو الغرفة ..

طرقات عنيفة.. الجسد يئن.. يئن..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

جررت المقعد بحمله الثقيل و دفعته داخل الغرفة.. العرق يسيل
غزيراً على جذعي العاري.. بأصابع مرتعشة أشعل جواناً أخيراً.. إلى
جوارى تستند إلى الحائط بندقيّة آليّة دفعت لرجالي مبلغاً طائلاً كي
يجلبونها لي.. الطرقات تزداد عنفاً.. حقاً أحسنت التصرف بوضع
المكتب الثقيل خلف باب الشقة ليدعمه..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

نفث دخان الماريجوانا.. نظرت إلى إمارات الهلع الحيواني المرتسمة على وجه الرجل.. إبتسمت.. رشفة من البلاك لييل.. ثم رفعت الزجاجاة وسكبت ما تبقى فيها على جسده العارى الجريح.. الطرق شديد حقاً.. الأئين ينقلب إلى صراخ مكتوم.. نفس طويل من السيجارة.. نفث الدخان بعمق ثم نظرت في عينيه مباشرة.. ربت على رأسه الأصلع، وقلت بصوتٍ عميق:
- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهى كل شيء..
وفي اللحظة التالية، قذفت ما تبقى من الجوان المشتعل على جسده الغارق بالكحول..

قال لي:

- لو أردت رأيي يا دكتور (حازم) فهذه الصفقة ليست ممتازة..
إلتقطت نفساً عميقاً وسألته:
- ماذا تعنى ؟..
تراجع في مقعده قائلاً :
- تلك الفيلا التي كلفتني بشرائها من (ممتاز خشبة).. لقد دفعنا فيها مبلغاً طائلاً يفوق قيمتها الفعلية بكثير.. صغيرة، وموقعها متطرف بعيد عن الـ down town.. كما أنها ليست مجهزة و..
قاطعته بصوت مرتجف:
- أنا كلفتك بشراء فيلا..؟..
نظر إلى بحيرة وكأنه لا يفهم تساؤلي، قبل أن يقول:
- الفيلا يا دكتور (حازم).. هل نسيت..؟!.. عندما هاتفني الإسبوع الماضي، وطلبت مني شراءها من (ممتاز بك) بأى سعر .. لقد أرسلت لك العقد الإبتدائي منذ يومين.. ألم يصلك بعد..؟..
تماكنت نفسي بمعجزة.. رسمت ابتسامة على شفتي بصعوبة وقلت:
- نعم .. نعم .. لا تؤاخذني.. إنها المشاغل كما تعلم.. لقد وصلني العقد بالفعل..
إبتسم قائلاً:
- كان الله في العون يا دكتور..

شعرت بالمكان يدور من حولى بينما هو يردف بزهو:
- لقد بذلنا مجهوداً ضخماً لإتمام هذه الصفقة، فالسيّدة (خشبة)
زوجة (ممتاز بك) - كما علمت من وكيله القانوني- لم تكن ترغب في
بيع الفيلا لأنها تمثل لها ذكرى خاصة، ولولا السعر الضخم الذى
عرضناه لما قبل (ممتاز خشبة) -رجل الأعمال الفذ- البيع.. ودعنى
أصارك يا دكتور أننى لولا إصرارك على الحصول على تلك الفيلا لما
دفعت فيها أكثر من نصف المبلغ الذى دفعناه و.. و.....

قبضت بقوة على البندقيّة الآليّة.. هرعت إلى مدخل الغرفة.. ثنيت
إحدى ركبتيّ أمامى، وارتكزت على الأخرى على الأرض.. أسندت كعب
البندقيّة إلى كتفى متخذاً وضع تصويب جيّد عند الباب.. الردهة تمتد
أمامى مباشرة حتى باب الشقة الذى بدأ ينهار أمام قوة الضربات..
الصراخ الشنيع يتصاعد من الجسد المشتعل إلى جوارى، ورائحة
اللحم المشوى تفعم المكان.. الجسد يتلوى من الألم الرهيب،
وينقلب بالمقعد ليسقط على الأرض..
قلبي ينبض بعنف.. أتففس بصوتٍ مسموع.. لن يهضمونى -فكرت-
بسهولة.. أزحت بجانب ساعدى خصلات شعرى الطويلة الملتصقة
بفعل العرق على جبهتي.. رحت أدندن بصوت خفيض بالأمريكيّة..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الباب والمكتب من خلفه يتهشمان أخيراً.. أجذب إبرة البندقيّة.. أرى
الأردية السوداء والخوذات اللامعة..
تنقبض عضلاتى بقوة.. أعصر زناد البندقيّة..

الغبار يكسو كل شئ..

تحركت بخطوات وجلة على الأرضية الخشبية تاركاً آثار أقدامى مطبوعة على الغبار.. الهواء مكتوم.. لابد أن النوافذ مغلقة منذ مدة طويلة.. خطوت نحو النافذة العريضة في الحائط المواجه.. أزحت الستائر التي تغطيها، فتصاعدت منها سحب الأتربة.. سعلت..

ضوء النهار يملأ المكان.. أمد يدي و أضغط مزلاج النافذة.. أسحب الضلفة المنزقة، فيندفع الهواء النقي داخل الصالة..

أدّرت عيني في المكان.. ليست فيلا بالمعنى المفهوم.. هي أقرب إلى شاليه مكون من غرفتين وصالة وحمام وأوفيس.. الأثاث قليل مكسو بالتراب.. صورة كبيرة لـ (جيفارا) معلقة على أحد الحوائط، وأخرى لـ (جمال عبد الناصر) على حائط آخر..

بالرغم من أنني واثق من أنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا المكان.. إلا أنه بدا لي مألوفاً.. مألوفاً لدرجة أثارت رعبى..

أنا أعرف هذا المكان جيداً.. أعرفه وكلّفت وكيلى بشرائه..

المشهد لا يصدق بالفعل ..

أنا أصرخ بكل قوّى بينما سبابتى تعتصر الزناد.. الطلقات تشق فراغ الردهة من الجانبين.. تتطاير من حولى.. كتلة النيران المجاورة لى تتلوى صارخة.. قطرات العرق واللعباب تتناثر من وجهى وفمى.. البندقية ترتد للخلف مراراً (و هو رد فعل خبرته جيداً)، ومظاريق الطلقات الفارغة تتساقط كالمطر بين قدمى..

كم عددهم..؟.. كم سقط منهم..؟.. لن أعرف أبداً..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

سمعت دوى زجاج يتحطم..

إلتفت يساراً بحركة حادة، لأرى أحدهم يخترق نافذة الغرفة مهشماً زجاجها .. يتدحرج على أرضية الغرفة.. ينهض واقفاً ويصوب سلاحه نحوى بسرعة لا تُصدق.. أدرت فوهة البندقية تجاهه.. أطلقت النار بلا تردد.. ورأيت جسده يثب إلى الوراء ليرتطم بالحائط قبل أن يسقط على وجهه.. جسد ثانى يعبر النافذة في نفس اللحظة.. أدير البندقية نحوه.. أضغط الزناد.. لا شيء إلا تكة معدنية تعلن عن فراغ الطلقات.. أقذف البندقية الفارغة وأندفع نحو الجسد المتشح بالسواد.. يرفع سلاحه نحوى.. أقبض على ماسورة المدفع الألى بأصابع من فولاذ.. أزيحها لأعلى.. الرصاصات تغادر فوهتها بعنف لتصنع خطأً من الثقوب ممتد رأسياً ثم أفقيّاً من الحائط للسقف.. أنزع السلاح بعنف من قبضته.. ثم ألتحم معه..

ما هذا الصوت..؟..

تبادل الضربات.. أنا لاعب أيكيدو سابق، وتصعب هزيمتى فى قتال يدوى.. تمر ثوان قليلة قبل أن يفاجأ برأسه بين كفى.. أديره بعنف لأسمع صوت قرعة مخيفة لفقرات عنقه إذ تتحطم قبل أن يسكن جسده تماماً..

ألقيته أرضاً.. رفعت رأسى إلى مدخل الغرفة.. سحب من الدخان الأبيض قادمة من الردهة.. قنبلة دخان..؟.. إن حنيت لألتقط مسدساً من على الأرض، فوجدت الدماء تغرق بطنى وجانبى الأيمن.. !! متى أصبت..؟.. وكيف لم أشعر..؟!.. الدوار ينتاب رأسى.. رفعت كفى الملوثة بدمائى.. أشعر بها تزن اطناناً.. نظرت إليها.. مسحتها بقمى ولحيتى..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الغرفة تدور بي.. أنظر إلى الأرض.. ثلاثة جثث إحداهم متفحمة تماماً..
شظايا الزجاج المكسور متناثرة مختلطة بمظاريف فارغ الرصاص..
المسدس في يدي أقبض عليه بصعوبة.. الدخان الأبيض يزداد
ويكثف.. أكاد أراهم يتقدمون من خلاله بحذر.. أسلحتهم مشهورة..
الآقعة الواقية من الدخان تغطي وجوههم..
تحركت بخطوات متثاقلة بين سحب الدخان.. رحت أسعل.. أسعل..
غادرت الحجرة، وحاولت اختراق السحب البيضاء ببصرى لأرى أى شئ..
لا فائدة..
أسعل.. الدماء تتناثر من فمى..

احرق ابن السافلة..
احرق..
احرق..
احرق..

الدخان الأبيض يخفى كل شئ، ولكننى أراهم أمامى جميعاً يصوبون
أسلحتهم نحوى.. رجال الشركة.. قوَّات الشرطة.. فرق الكاراتيه..
جيش الدفاع الإسرائيلى.. المارينز الأمريكان.. (لوسيفر) نفسه.... يالهذا
الدوار..!!
رفعت المسدس في قبضتى.. أطلقت صرخة من أعماق روحي..
إندفعت بكل ما تبقى لى من قوة مخترقاً سحب الدخان وأنا أصرخ..
ضغطت الزناد مرّة..
إثنتان..
ثلاثة..

إقتلعتنى طلقاتهم من على الأرض.. جسدى يطير إلى الورا.. يشق
الهواء.. يهوى ليرتطم بأرضية الردهة.. الغريب أننى لا أشعر بأى
ألم.. فقط أشعر بأننى أغوص فى الأرض.. أرى خيوط العنكبوت التى
تغطى سقف الردهة تبتعد.. تبتعد..

وجوه تطل علىّ من أعلى.. مازلت أشم رائحة الشواء.. ولكننى سعيد
لأنّ الأئين قد توقف.....

لا لم يتوقف..
حتى عندما استيقظت مفزوعاً من نومى.. ظل يتردد خافتاً فى
مسامعى...

تحسست جسدى بلهفة.. تنهدت..
الظلام يخيّم على الغرفة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل.. أنفاس
منتظمة تصدر عن زوجتى النائمة إلى جوارى.. دقائق خافتة قادمة من
ساعة الحائط.. صفير الرياح التى تعوى فى الخارج.. أصوات.. أصوات..

آآآآآآآآآآآآ... ممممممممممم...

فزع هائل ملأ نفسى.. ماذا أصابنى..؟.. أئبة قوّة شيطانية سيطرت
علىّ..؟.. أقوم بأفعال لا أدرى عنها شيئاً، ولا أذكر عنها شيئاً.. مصرع
(أحمد خشبة) يزورنى مراراً فى كوابيسى.. ثم الأئين الرهيب..
مممممممممم ... ممممممممممممممممم.....

أئين طويل متألّم تسلل إلى أذنى..

عشرات بل مئات التفاصيل وجدت نفسى أعرفها وأتعاش معها
وكأننى مررت بها من قبل.. أوفلتقل أنّها ذكريات قديمة مهملة..

مممممممممم ... ممممممممممممممممم.....

بالنسبة للدكتور (أوبرايان)، توصل العلماء إلى أنّ التلاحم الذى تم
بين سياله الحيوى، والطاقة النفسية المنفصلة عن التيار الكهربى (والتي
هى فى الأصل جزء من السيلال الحيوى الذى تم انتزاعه من أحد
عينات الإختبار البشرية).. هذا التلاحم هو السبب فى حالة الهياج التى

أصابته والرؤى التي يراها.. تلك الرؤى التي هي عبارة عن ذكريات مطبوعة على الطاقة النفسية التي غزت كيانه..

بشكل أو بآخر.. إن فصل الإكتوبلازم الخاص بالباشمهندس (أحمد حشبة) عنه -مع خروج أنفاسه الأخيرة- وانتقل إلى...!!!..

ثمة جزء ما ظل مستعصياً على التحول إلى كهرباء.. جزءاً روحياً غير منظور إلا في مجال للأشعة تحت الحمراء.. جزء يظل مرتبطاً بالتيار الكهربائي حتى لحظة تحوله إلى طاقة حركية أو حرارية أو صوتية حسب الجهاز الذي يُستخدم التيار الكهربائي في تشغيله.. في هذه اللحظة يتحرر الجزء النفسي من التيار الكهربائي.. يفصل عنه.. يخترق الأسلاك والموصلات.. يسبح في الهواء ليختلط بأقرب سيال حيوي له..

.....  ... 

.....  ... 

.....  ... 

صرخت وأنا أسد أذني بكفى.. هبت زوجتي من نومها مدعورة.. هتفت:

دفت وجهی بین یدی و انخرطت فی بکاء حار.. مدت أصابعها تضئ الأناجورة المجاورة لها على الكومودينو وهى تهمس:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

بمجرد أن أضاءت الأباجورة شعرت بالأنين في مسامعي يتحوّل إلى صراخ مدوّ.. شهقت بفزع.. عدت أعطى أذنيّ بكفى وأنا أصرخ:
- أطفئِ النور..

برغم أنّ هذا الفرض مستحيل من الناحية البيولوجية والفيزيائية، إلا أنّه بدا لي التفسير الأكثر ملائمة لتلك الأعراض غير المسبوقّة التي صرت أعاني منها.. أثار الأمر رعبى بحق.. هل هذا ممكن فعلاً..؟.. ما الذى يمنع حدوثه..؟.. ألم يحدث من قبل مع (أحمد خشبة)؟.. بلى.. ولكن هذا تم من خلال ظروف معيّنة لم تتوافر في حالتي.. ومن أدراك أنّ ظرفاً آخر لم يتوافر فيتسبب في إنتقال إكتوبلازم الفتى إليك بعد مصرعه..؟.. ظرف مثل ماذا..؟.. أى ظرف.. أليس من المحتمل أن يكون للإكتوبلازم المتحرر إرادة ذاتيّة وقدرة على الإنتقال إلى شخص بعينه..؟.. ولكن هذا مستحيل.. مستحيل أو غير مستحيل.. لن يفيدك بشئ إطلاق الأحكام المجردة.. دع العلم يقول كلمته..

كلام سليم جداً.. لم أضع وقتاً.. من جديد هرعت -بمجرد شروق الشمس- إلى مستشفى الخاص.. هو كما قلت لك تخصصى لعلاج الأمراض النفسيّة والعصبيّة، وبه معمل مزوّد بأحدث أجهزة الفحص والتحليل والأشعة.. جلست إلى نائبى الشاب الدكتور (محسن عبد الفتّاح) -وكانت آثار النوم مازالت ظاهرة على وجهه بعد أن أيقظته مبكراً- وشرحت له سلسلة الفحوص والتحليل التي سنقوم بها.. بدا عليه الغباء وهو يسألني:

- أين الحالة الذى سنجرى عليها هذه الفحوص..؟..

أجبتة بنفاد صبر:

- لا توجد حالة.. سنجرى الفحوص علىّ أنا لإختبار الأجهزة..

أطلت الدهشة من عينيه، وفتح فمه ليسأل فرفعت كفى مقاطعاً بحزم:

- لا أسئلة.. إبدأ من فضلك..

وبعد ساعة واحدة كنت جالساً أمام المونيتور أتابع الفيلم الذى تم التقاطه لي داخل غرفة الأشعة خلال مجال للأشعة تحت الحمراء..

المؤثرات التي تعرضت لها تتوالى على الشاشة أمام عينيّ، وسيل البيانات التي تنقلها الأقطاب التي تم توصيلها بجسدي تتابع بانتظام.. النتيجة: سلبية تماماً.. لون وشكل وحركة السيل الحيوى الخاص بى طبعى جداً.. لا أثر لأي شيء غير عادي..

سألني الدكتور (محسن) الواقف خلف مقعدي:

- هل هناك شيء ما يا دكتور..؟..

لم أرد.. جرت عيناى بسرعة على النتائج المطبوعة للفحوص التى أجريتها خلال الساعة الماضية.. لا جديد.. كل شئ على مايرام..

عاد الفتى يسألني بالحاح:

- هل هناك مشكلة ما يا دكتور...؟..

رفعت عينين زائغتين إليه مردداً:

- لا جدید.. کل شیء علی ما برام..

.....

..... ...

.....  ... 

الفترة التالية كانت عصيبة بحق.. مرّت الأيام بسرعة، ثم بدأت عاصفة إنتخابات نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة (الإسكندرية).. كانت القائمة التي وضعتها مع العميد (السمان) تضم أسماء مرموقة، ولكن على الجانب الآخر كانت القائمة المضادة تشمل العديد من أساتذة (9 مارس) والإخوان، وأغلبهم من ذوى الشعبيّة الجارفة بين زملائهم، وأعترف بأننى كنت أميل لبعضهم بالفعل.. ولكن هذا موضوع آخر..

إمّلت الجامعة باللّفات الداعيّة، وتوالّت المؤتمرات الانتخابيّة والسجلات بين الفريقين.. لم يكن الأمر سهلاً، لأنّها ليست انتخابات اتحادات الطلاب.. التعامل مع الأساتذة يختلف كثيراً في الأساليب والمحاذير، وخاصة أنّ هؤلاء القوم لهم خبراتهم التي اكتسبوها على مدى ثلاثة عقود سابقة.. ومن جانبي، قمت باختيار أعضاء اللجنة

المشرفة على العملية الانتخابية بنفسى، وفتحت حساباً خاصاً من ميزانية الجامعة للإنفاق على الحملة الدعائية لقائمتنا (بشكل سرى طبعاً)..عمل غير أخلاقي..؟.. كنت لأوافقك لو كانت الظروف عادية، ولكن الأمر كان جد خطير.. القائمة الأخرى لديها أفكار وسياسات تحو إلى تسييس الوسط الجامعى، وهو ما يتعارض بشدة مع منهجى كرئيس للجامعة، ولا مناص عن مقاومته بأى وسيلة، والضرورات كما قلنا تسح المحظورات..

.....  ... 

..... ...

أول وأهم وأخطر أزمة ستواجهك هى النشاط الإخوانى فى الجامعة..
وهو السبب الحقيقى فى إقالة سلفك الدكتور (ماحد)..

الانتخابات القادمة لن تكون سهلة ابداً يا دكتور (حازم).. نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة (الإسكندرية) موقع مهم جداً، لانريده أن يضيع من أيدينا كما حدث في انتخابات نادى جامعة (القاهرة) العام الماضى و..

بشكل أو بآخر.. إن فصل الإكتوبلازم الخاص بالباشمهندس (أحمد خشة) عنه - مع خروج أفاسه الأخيرة - وانتقل إلى...!!!...

احرق ابن السافلة..
احرق..
احرق..
احرق..

عيناه متقدتان بالغضب.. قال بصوت يجمد الدم في العروق:
- فسر لي ما حدث..
أطرافي باردة كالثلج .. قلت بحروف مرتعشة:

- مجرد خطأ يا (محمد بك).. خطأ بسيط قمت بتداركه على الفور..

ضرب بقبضته على سطح مكتبه صائحاً بصوت هادر:

- أعرف أنه خطأ.. وأطلب تفسيراً له حالاً..

خفضت رأسي ولم أعرف بم أرد..

ماذا أقول له..؟.. أنني أمر بحالة ميتافيزيقيّة غير مفهومة..؟.. أخبره

أنني لم أكن في وعيي عندما مزقت كشف النتيجة المزورة التي أرسلها

لي العقيد (سليمان قنديل) - قائد الحرس الجامعي - كي أعتمدها..!!؟..

أنني لا أذكر شيئاً عن تلك المكالمات التليفونيّة التي سببت الرجل فيها

وأخبرته أن يدس نتائج المزورة في مؤخرته..!!؟..

هل سيصدقني عندما أخبره أنني لا أذكر شيئاً مما جرى، وأن مدير

مكتبي هو الذي روى لي هذه التفاصيل الصادمة..!!؟..

- (بغضب): أجبني ولا تقف كالصنم هكذا..

قلت بصوتٍ خفيض:

- صدقني يا سيادة العميد.. كنت أمر بظروف خاصة في غاية الصعوبة

و..

قاطعني:

- طظ في ظروفك كلها.. ما شأن الظروف الخاصة بالعمل..؟..

عدت أطرق برأسي أرضاً من جديد.. العرق يغمر جبیني، ويدي

اليسرى ترتعش بصورة لا أسيطر عليها..

- (ثائراً): حينما هاتفني العقيد (سليمان) وأخبرني بمَ فعلت لم

أصدق.. هل جننت يا دكتور..؟.. هل نسيت كلامي لك عندما أتيت إلى

مكتبي قبل توليك منصبك..؟..

رفعت رأسي هاتفاً بحرارة:

- الرحمة يا (محمد بك).. أعطني فرصة أخرى بالله عليك.. أنا خادمكم

المطيع.. لقد نفذت أوامرك بالحرف طيلة الفترة السابقة.. إعتمدت

النتيجة المطلوبة، وذهبت إلى العقيد (سليمان) في مكتبه واعتذرت له

وقبلت رأسه.. أرجوك.. فرصة أخرى واحدة..

راح يحدثني لثوان بنظرات مخيفة، قبل أن يشير بكفه نحو باب

المكتب قائلاً:

- إذهب الآن وانتظر مني تليفوناً..
 هوى قلبي بين ضلوعي.. كدت أبكي وأنا أهتف مستعطفاً:
 - لا تقص علي يا (محمد بك).. أبوس يدك.. إمنحني فرصة أخيرة..
 أنا خادمك.. أنا رهن إشارتك.. أنا..
 - (بلهجة قاطعة): تفضل...

هوی قلی بین ضلوعی.. کدت أبکی وأنا أهتف مستعطفاً:

- لا تَقْضِ عَلَىَّ يا (محمد بك).. أبوس يدك.. إمنحني فرصة أخيرة..
أنا خادمك.. أنا رهن إشارتك.. أنا..

- (بلهجة قاطعة): تفضل...

لا أعرف كيف أصف لك كيف مرّت علىّ الأيام الفائتة منذ خروجي من مكتب العقيد (السّمّان) وحتى هذه اللحظة.. هل أنت معي..؟ في لحظة واحدة يتداعى الحلم ، وينهار كل ما كافحت من أجله.. كيف..؟ بأي منطق..؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ..

من مكتب العقيد (السَّمَان) وحتى هذه اللحظة.. هل أنت معي..؟.. في لحظة واحدة يتداعى الحلم، ونهار كل ما كافحت من أجله.. كيف..؟..

بأي منطق...؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

لم يتصل بي حتى الآن.. صرت أذهب كل يوم إلى الجامعة، وأتابع سير العمل في المستشفى بآلية تامة.. أرى وجوهاً.. أسمع كلاماً.. دون أن أعي شيئاً مما أرى أو أسمع.. كي اني كله يربض متحفزاً مترقباً رنين هاتفى المحمول.. منتظراً سماع صوت (السَّمان) ليطمئننى أو ليخبرنى بنهاية أعلامى وطموحاتى..

العمل في المستشفى بآلية تامة.. أرى وجوهاً.. أسمع كلاماً.. دون أن أعي شيئاً مما أرى أو أسمع.. كي اني كله بريض متحفزاً مترقياً رزين هاتفي

المحمول.. منتظراً سماع صوت (السَّمَان) ليطمئننى أو ليخبرنى بنهاية أحلامي وطموحاتي..

من جديد أحاول تحليل الموقف.. كيف حدث هذا..؟.. الفحوص والأشعة تقطع بأنني سليم ، وسأل الحوي خال من أي شيء غير عادي..

أَيُّ أَنْ الْخَلْلَ هُنَا لَيْسَ عَضْوَةً.. فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ نَفْسًا؟..

حقاً لم أعد أدر.. شيئاً فشئ أفقد قدرتي على التفكير العلمي المنظم.. وكيف لي أن أفكر أصلاً بينما الـ...

..... ...

..... ...

..... ...

يَمْلَأُ أُذُنِيَّ وَعَقْلِي وَكِيَانِي كُلَّهُ..؟..

لاحظت زوجتي في دهشة أنني صرت عصياً سريع الغضب.. سألتني

عن سبب غيابي المتكرر عن المنزل في غير أوقات العمل، فلم أجد ما أرد به عليها.. أنا نفسي لا أدري..

أرد به عليها.. أنا نفسي لا أدري..

إستيقظت ذات ليلة من نومى لأجد نفسى فى مكان مجهول.. أصابنى الهلع.. إستغرقت وقتاً لأستوعب أنّ هذا المكان هو الفيلا التى إبتعتها -من دون أن أدرى- من (ممتاز خشبة).. أذكر جيداً أننى أويت إلى فراشى فى فيلتى.. كيف إذن جئت إلى هنا..؟.. ومتى..؟.. لا أعرف..
أثار رعبى أكثر ذلك الجسد المستلقى على الفراش الذى نهضت من عليه لتوى.. هذا الشعر الطويل.. إنها امرأة.. امرأة مغطاة بملاءة بيضاء مستغرقة فى النعاس بجوارى..!!.. من هى..؟!.. وكيف جاءت إلى هنا..؟.. وكيف جئت أنا نفسى لأجدنى إلى جوارها..!!!!
لحظات من الحيرة والعجز عدت بعدها إلى الفراش، وأدرت ظهري لها.. إما أن هذا حلم وسأستيقظ منه، وإما أننى أتيت إلى هنا حقاً بوسيلة شيطانية، وسأعود بذات الكيفية التى أتيت بها.. أغمضت عيني بقوة.. يا إلهى الرحيم.. لا تدعنى لهذا الجنون..

ممممممممم ... ممممممممممممممممم
ممممممممم ... ممممممممممممممممم
ممممممممم ... ممممممممممممممممم

لاحظت (نشوى) -زوجتى- ما صارت إليه أحوالى من تدهور وعصبية وقلة التركيز والكوابيس المتواصلة طيلة الليل.. أدركت بذلك الأثنى أننى أمر بمشاكل غير معتادة تختلف عن مشكلات العمل التقليدية.. أتتى فى التراس عقب صلاة فجر عليها غطفة الصلاة، تحمل صفحة عليها فنانين من الشاى الأخضر بالنعناع يتصاعد منهما البخار.. جلست إلى جوارى وراحت تداعبنى بلطف، قبل أن تسألنى عمّ بى..
نظرت إليها وفكرت.. لِمَ لا..؟.. كنت أفضل عدم إقحامها فى الموضوع، ولكن الأزمة غير العادية التى أمر بها وصلت لدرجة لا تُحتمل.. وعقلي أفضل من عقل واحد.. دعك من أننى بالفعل فقدت القدرة على التفكير السليم..

كانت خيوط أشعة الشمس تتسلل على استحياء من بين الغيوم التى تكسو السماء، عندما وضعت فنان الشاى على المنضدة، وبدأت

أروى لها..

إستغرق الأمر مئتي ما يقرب من الساعة، تناوبت خلالها الإنفعالات
إيّاها على وجهها، حتى انتهيت.. (طبعاً تجنبت ذكر بعض التفاصيل
كقصة تلك المرأة التي صحت ليلاً فوجدتها إلى جوارى في فيلا خشبة
القديمة).. صمتت قليلاً مفكرة، قبل أن ترفع عينيها إلى متسائلة بهدوءٍ
أدهشني:

- متى بدأت تسمع أصوات الأئين..؟..

- لا أذكر..

- حاول أن تفعل..

صمتت مفكراً للحظات قبل أن أهرز رأسي قائلاً:

- لا أذكر..

- (بالحاج): قبل أم بعد اتصال تلك الإعلامية بك..؟..

- بعد..

ظلت تتطلع إليّ صامتة، فقلت بعصبية:

- فيم تفكرين..؟..

- (ببطء): التشخيص واضح يا عزيزي..

نظرت إليها متسائلاً، فتابعت:

- بعيداً عن كل هذا الكلام عن انتقال الإكتوبلازم من شخص
لآخر.. هذه حالة إزدواج شخصية double personality واضحة جداً..
ويدهشني أنك (وأنت أستاذ الطب النفسي) لم تشخصها..

إزدواج الشخصية أو الـ double personality هو مرض نفسي شهير
عبارة عن اضطراب نفسي يحدث فيه -في ظروف معينة- انشقاق
جزء من الشخصية غالباً ما يكون جزء مكبوت أو كامن ليمارس قيادة
الشخصية للحظات أو ساعات أو أيام، فيفعل خلالها ما تعجز عنه أو
تخجل منه الشخصية الأساسية في سياقها المعتاد..

الحالة مشهورة للعامة، وظهرت في أعمال أدبية وفنية عديدة كرواية
(ستيفنسون): (الحالة الغريبة لدكتور جيكل ومستر هايد) ورواية
(إحسان عبد القدوس): (بئر الحرمان) التي تحولت لفيلم شهير.. وإن

كان هناك خطأ كبيراً بين هذا المرض وبين مرض آخر هو الفصام (Schizophrenia) وهو اضطراب نفسي شديد ينتج عن خلل عضوى بالمخ ناتج بدوره عن اضطراب فى الجينات أو فى تركيبة المخ أو فى كيمياء المخ أو كل ذلك معاً.. ولكن هذا بعيد عن موضوعنا..

يندرج إزدواج الشخصية تحت بند حالات الإضطرابات الإنشاقية (Dis-sociative disorders).. وهى حالات هيسترية تصيب فئة من الناس يعجزون عن رؤية وقبول مناطق معينة من أنفسهم أو يتنكرون لبعض احتياجاتهم أو يعجزون عن التعبير عن رغباتهم ومخاوفهم، فيلجأ جهازهم النفسى إلى حيلة الإنشقاق، خاصة أن هذا الجهاز لديهم يكون هشاً وضعيفاً، لذلك يسهل على الجزء المتمرد داخل النفس أن يقوم بانقلاب مؤقت فيستولى على مركز قيادة الشخصية لفترة معينة تطول أو تقصر، يمارس خلالها كل ما كان يتمناه من طيش أو نزق أو تحقيق نزوات أو إعلان رغبات أو التهرب من مسئوليات، إلى أن تفرغ الشحنة، فتعود السلطة مرة أخرى إلى القيادة المعتادة للشخصية، تلك الخاضعة تماماً للمعايير الإجتماعية السائدة المكبله بقواعد أخلاقية أو عائليّة ليست مقتنعة بها، ولكنها تخشاها..

كل هذا جميل.. ولكن ما شأنى أنا به..!!؟

مممممممممم ... ممممممممممممممممم

مممممممممم ... ممممممممممممممممم

مممممممممم ... ممممممممممممممممم

قالت بينما أصابعها تداعب أغصان شجرة الياسمين عطرة الراححة القريبة من حاجز التراس:

- هل تذكر تشخيصك الأول لحالة (أحمد ممتاز خشبة)؟.. لقد أخبرته -فيما أذكر- أن ما يمر به من أعراض كالأحلام وسماع أصوات الأئين ما هو إلا محاولة من عقله الباطن لتأنيبه بعد تنصله من مسؤولياته كمعمارى مثقف، وتخليه عن قضية العمال المعتقلين (تلك التى افترضت أنت أنه على علم بها بشكل ما).. طبعاً الصورة

اختلفت بعد معرفة موضوع (إيجى - نيرجى) وحقيقة إمكانية إنتقال الإكتوبلازم الحامل لذكريات وانفعالات صاحبه من جسدٍ لآخر.. ربما يكون إكتوبلازم ذلك العامل الصريع قد انتقل بالفعل إلى (أحمد خشبة)، غير أنَّ الحال يختلف معك.. (أحمد خشبة) لقي مصرعه قتيلاً أى نعم، ولكن بشكل طبيعي.. أى أنَّ سياله الحيوى غادره بشكل طبيعي كما يحدث لأى ميّت أو قتيلاً.. دون أن تستقبله أيّة أجهزة.. وبالتالي فلا مجال للقول بأنّه انتقل إليك بأى صورة بديل أنَّ نتائج الفحوص والأشعة أثبتت أنَّك سليم تماماً من الناحية العضويّة.. وهذا يعود بنا إلى تشخيصك الذى بدأت به سابقاً والذى أجده ينطبق على حالتك بشكل يكاد يكون خال من الثغرات..

- (مشدوهاً): كيف..؟.

- رد فعلك الأول بمجرد معرفتك قصة (إيجى - نيرجى) كان -كرد فعل أى شخص فى موضعك- هو الذهول والاستبشاع الشديدين.. الأمر مريع بالفعل.. لدرجة أنَّك أخفيتَه عنيّ.. (تنظر لى نظرة لائمه).. وعندما حاورك الدكتور (زكريا) وأقنعتك بشريّة ومشروعيّة عمل الشركة، ظل جزء ما بداخلك معترضاً مستبشعاً.. هذا الجزء الذى حرصت أنت على قمعه وكتبته فى أعماقك لأنّ خروجه وتمرده سيجلب علينا وبالأكبر كما حذرك الدكتور (زكريا)..

والتقطت أنفاسها للحظة قبل أن تتابع:

- الذى حدث بعد ذلك أنَّ الجزء المتمرد بداخلك بدأ يعلن عن نفسه بشكلٍ أقوى.. بدأت تسمع أصوات الأئين -أئين العمال المعذنين داخل ماكينات التعذيب- بشكلٍ مستمر.. ترى تفاصيل مصرع (أحمد خشبة) فى أحلامك، وهذا العَرَض الأخير بالذات له دلالة واضحة لأنّ الجزء المتمرد داخلك يرغب فى مقاومة (إيجى - نيرجى) على ذلك النحو الجذرى الذى قام به (خشبة) من حرق (يوسف محي الدين) مدير الشركة والصدام الدموى مع قواتها.. ومع تفاقم الصراع الداخلى فى أعماقك، بدأت تدخل فى طور من الإضطرابات الإنشقاقيّة..

ولمّا وجدتني أتابعها بعينين خرساويّتين، سألتنى بقلق:

- هل تتابعنى..؟.

أومات برأسى مجيباً دون أن أنطق بحرف، فالتقطت نفساً عميقاً وتابعت:

- بدأ ذلك الجزء المتمرد من عقلك الباطن ينشق عنك.. يسيطر على قيادتك لأوقات معيّنة يغيب فيها عقلك الواعى المؤمن بدواعى الحرص وتجنب الخطر، ويقوم -أى الجزء المتمرد- بممارسة كل ما تكبته وتكتمه فى أعماقك من ثورة وغضب.. ونظراً لأن (أحمد خشبة) أصبح بالنسبة له مثلاً أعلى بما قام به من مقاومة بطوليّة للشركة -من وجهة نظره طبعاً- فإنّه فى إنشقاقه عنك يميل إلى تقمص دور (خشبة) وممارسة أفعاله.. هل تذكر تلك المرّة الّتي نمنا فيها سوياً وتضاجعنا طيلة الليل، ثم فوجئت فى الصباح بأنك لا تذكر شيئاً عنها..؟..

قلت بحيرة:

- نعم..

- هذه واحدة من المرات الّتي مارس فيها الجزء المتمرد سيطرته على عقلك الواعى متقمصاً دور (أحمد خشبة).. قمت أنت -فى غيبةٍ من وعيك- بشراء تناول أقراص (الفياجرا) -تلك الّتي وجدت بعض منها فى درج الكومود- وضاجعتنى بقدرة شاب فى عمر (خشبة) بصورة لم تحدث منذ كنّا شباباً، وعندما عادت السيطرة إلى عقلك الواعى، نسيت كل هذا، وأثار ذهولك أن ضاجعتنى ووجدت بقايا أقراص (الفياجرا) بحوزتك.. وليس هذا فقط..

- ماذا أيضاً..؟..

إعتدلت مجيبة:

- هناك أيضاً المخدرات الّتي عثرت عليها فى درج الكومود.. وشم الثعابين المطبوع على ذراعك.. فيلا (خشبة) الّتي قمت بشراءها.. وربما أشياء أخرى فعلتها ولا تذكرها.. كل هذا قمت به ويشير إلى تقمصك لشخصية (أحمد خشبة) تحت تأثير سيطرة الجزء المتمرد منك على عقلك الواعى..

وتنهدت مردفة:

- والمخيف فعلاً أنّ كل هذه الأعراض مقدمة لما هو أخطر..

رددت بخوف:

- أخطر...!!

راقبت للحظة يمامة رمادية حطت على أغصان شجرة الياسمين، قبل أن تدير عينيها إلى قائلة:

- الجزء المتمرد مارس سيطرته على وعيك أثناء انتخابات مجلس إدارة النادي، وهو الذى فجّر ثورتك على العقيد (سليمان قنديل) عندما طالبك بتعديل النتائج.. توارى الدكتور (حازم أبو زيد) الرصين العالم بحقائق الحياة وبمن يسيطر على مقاليد الأمور في الجامعة وانفجر (أحمد خشبة) الشاب الطائش الثائر ليمارس نزقه وثورته فيسب الرجل ويكاد يفسد نتائج الانتخابات تماماً لولا أن عادت السيطرة لعقلك الواعى قبل ضياع كل شئ.. وهذا أخطر ما في الموضوع.. لو لم نبدأ في معالجة حالة الإنشقاق الهيستيري هذه، فستكفل بضياع مستقبلك السياسى تماماً..

- (بيأس): هذا إن لم يكن ضاع بالفعل..

تشخيص -فكرت- منطقي جداً.. طبيعة نفسية بارعة هى حقاً وإني بها لفخور..

هممفف (زفرة)..

مريضٌ أنا إذن بالفعل.. ومريضى ليس بسيطاً.. يا أرحم الراحمين.. رغماً عني إحتشدت الدموع في عيني.. دفنت وجهي بين كفيّ هامساً بصوتٍ باك:

- يا إلهي..

نهضت لتجلس بجوارى.. إحتوتني بين ذراعيها، وربت على كتفي قائلةً بدفاء:

- هَوْنٌ عليك يا عزيزي.. الأمور لم تفلت بعد من أيدينا.. يمكنك أن تكلم الدكتور (زكريّا).. الرجل يحبك.. سيدعمك ويقف إلى جوارك بإذن الله..

إستكنت بين ذراعيها.. تمتمت:

- وماذا عن الإضطراب الإنشقاقي..؟

ضمتني بقوة إلى صدرها وهى تقول:

- سنبدأ برنامج العلاج على الفور.. برنامجنا سيقوم على الإستبصار

بالكيانات والذوات التحيّة بداخلك بشكل أكبر.. والتعرف على الرغبات والإنفعالات التي تكتبها وتقهرها في أعماقك.. سنعمل على التصالح بين الكيانات المختلفة، وتقوية نفسك للوصول بها إلى درجة من النضج لتستطيع تجاوز هذه المحنة.. هل أنت معي؟..

- (بخفوت): نعم..

أبعدتني بذراعيها.. حدثت في عيني مباشرة قائلة بنبرة جادة (تستدعيها دوماً في مواقف محددة):

- ولكن تذكر.. قبل أي شيء لابد أن تؤمن من أعماقك أنّه لا إثم عليك فيما فعلت.. هذا أمر مؤكد.. ما تقوم به (إيجي - نيرجي) سليم تماماً من الناحية الشرعيّة، وليس فيه شيئاً مما يغضب الله ويستدعي ثورتك.. واجه نفسك بهذه الحقيقة واستمت في ترسيخها بداخلك.. وفكر في المستقبل الرائع الذي ينتظرك، وما يمكن أن يحيق به من جراء أي تهور..

و عادت تضمني إلى صدرها مرددة برقة:

- وستشفى إن شاء الله يا حبيبي..

أكثر ما أثار دهشتي هو تلك البساطة التي تلقت بها الحقيقة الخفيّة لشركة (إيجي - نيرجي).. توقعت أن نصيبها صدمة من الذهول والألم والخوف، ولكنني فوجئت بتلك الإنفعالات تتوالى على وجهها ثم تتلاشى بأسرع مما تولدت.. كأنني كنت أحكي لها عن أحداث خياليّة أو أحداث حقيقيّة تدور في مكان آخر.. نظرت لها بحيرة وكأنني أراها للمرة الأولى.. هل هي إنسانة قويّة، أم بلا قلب؟.. أم أنّها لم تستوعب بالضبط ما أخبرتها به؟.. أم أنني أنا الذي أبالغ في ردة فعلي؟.. تأملتها وهي واقفة أمامي ترفل في عبادة الصلاة وأشجار الحديقة الخضراء الزاهية من خلفها.. امرأة طيبة صالحة هي.. كافحت معي طيلة السنوات السابقة بلا كلل أو تعب، وكانت مثلاً للزوجة حسنة الدنيا كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم.. ولكن..

ثمة شعور.. شعور بسيط بالحنق ينبثق من قلبي تجاهها.. رغم كل مزاياها إلا أنني أشعر أحياناً -قليلة جداً- وكأنّها لا تعبأ بي.. كأنني صرت

بالنسبة لها أداة لجمع المال والإرتقاء لمستوى إجتماعى واقتصادى أعلى.. أتذكر إصرارها على بقائى فى الخليج لسنوات طويلة واعتراضها الشديد على عودتى حتى لا تضيع فرصة جنى المزيد من المال.. المواقف المتزمتة التى اتخذتها من أشقائى أثناء توزيع تركة والذى رحمه الله (وقدرتها على تقديم الأدلة الشرعية لكل مواقفها حتى لو تعارضت)..

ما تقوم به (إيجى - نيرجى) سليم تماماً من الناحية الشرعية، وليس فيه شيئاً مما يغضب الله ويستدعى ثورتك.. واجه نفسك بهذه الحقيقة واستمتت فى ترسيخها بداخلك..

طموحها الجارف وتطلعها المتنامى للأعلى كان دافعاً قوياً لى دوماً لتقديم التنازلات.. منذ بدء عملى بالجامعة كانت دوماً حاضرة.. تلح وتضغط علىّ لطاعة ومجاملة رؤسائى ولو على حساب العملية التعليمية.. فلان ابن الدكتور علان لابد أن يحرز الترتيب الأول على الدفعة حتى يمكن طلبه كمعيد.. ترتان له موقف سياسى، ومطلوب حرمانه من درجات العمل.. مطلوب عدم تعيين معيدين -رغم حاجة القسم- من هذه الدفعة لتبقى أماكن شاغرة لعدد من أبناء الأساتذة فى دفعة العام القادم.. إلخ.. تنازلات.. تنازلات.. همفففف (زفرة).....

أرجو منك أن تنسى لحظة المصارحة هذه.. ولنعد إلى موضوعنا.. (أمل)..؟.. ماذا عنها..؟.. ألم أخبرك بحكايتها..؟.. لم أستكملها..؟.. عجباً!!!.. ظننتنى فعلت..؟..

fine.. أبدلى ثيابك، وستجدين (لاندروفر) سوداء تحمل رقماً مفرداً بانتظارك أمام مدخل بيتك.. سيكون المستر (فريد شهاب الدين) المستشار القانونى لـ (Egy - Nergy) بانتظارك داخلها.. سيكون عليك الذهاب معه ولا تنسى اللاب توب..

ألقيت نظرة حذرة على (اللاندروفر) من أعلى سطح البيت.. سيارة فاخرة بالفعل تشغل أكثر من نصف عرض شارعنا الضيق.. نظرة أخرى على بقية الشارع.. كل شئ يبدو طبيعياً.. تراجعت للخلف..

.....
.....
.....

ما الذى سأجنيه من انضمامى إليهم..؟.. الثروة..؟.. النجاح..؟.. النعيم..؟.. الأمان..؟.. حسناً.. كم سأعيش إذن لأتمتع بكل هذا..؟.. عشر سنوات مثلاً..؟.. عشرين..؟.. لنقل أربعين مثلاً.. جميل.. ماذا بعد إذن..؟.. ما الذى سأحتفظ به معى يوم يضعون جسدى فى القبر ويهيلون عليه التراب..؟..

كان (كمال فودة) يتكلم ببطء وثقة كاسحة كأنه القدر، بينما رأسى يموج بأفكار محمومة يرتجف لها جسدى.. سأموت وأقف أمام خالقى وخالقه وخالق السماوات والأرض يوم المشهد العظيم.. مذنبه.. كسيفة.. منكسة الرأس.. مرتعشة البدن.. مُحَمَلَة بالجرائر.. سيسألنى لِمَ شاركت فى قتل وتعذيب عباده.. بم سأجيب..؟.. سأقول: لم أعذب أحداً يا رب.. ولكنك شاركت بالصمت.. عرفت الحق ولم تجهرى به.. كان بوسعك إنقاذهم من الألم والعذاب، ولكنك أثرت السكوت.. كنت

خائفة يا رب.. ولكن بِمَ سأجيب إذا سألتني لِمَ خفت منهم ولم أخف من خالقهم..؟..

هَبَّت نسائم باردة من الشرفة إقشعرَّ لها جسدِي وجعلت الستائر تطاير بقوة.. كنت واقفة وسמاعة الهاتف المحمول في أذني.. (كمال فودة) يتكلّم ويتكلّم.. متى يمكن أن يحدث هذا..؟.. الآن..؟.. ما المانع..؟.. لربما كان ملك الموت يدنو مِنِّي في هذه اللحظة بالذات.. إرتجف جسدِي لهول الفكرة..

قال (كمال فودة):

- أمامك مسز (أمل) الفرصة للقفز من خندق العناصر غير ذات المعنى في معادلة العالم الجديد، إلى وضعٍ آخر.. حقيقى ومجسد.. ليس مجرد طنطنة وجعجة بلا طحين.. Pleace.. كونى موضوعيّة وتحررى من أيّة شعارات بالية وحماقات عاطفيّة..

هلا أبلغتني بقرارك..؟..

بدا لي صوته -على عكس ما كان منذ لحظات- ضعيفاً خافتاً مختنقاً، وكأنه صادر عن قزم قمئ.. إلتقطت نفساً عميقاً..

- (بصوت مبجوح): تريد قراراً يا مستر (كمال)..؟..

..Sure -

.....

.....

.....

هَتَفَت بلوعة:

- ولماذا أنت بالذات وليس غيرك..؟..

تهدت.. جذبتها برفق إلى باب الشرفة المفتوح.. أشرت إلى شجرة مجاورة لسورها.. إلى عصفور رائع الجمال يقف بين الأوراق الخضراء.. يمد منقاره القابض على بعض الطعام، ويسقطه -الطعام طبعاً- في أفواه صغاره القابعين في عِشِّهم..

- هل ترين هذا العصفور الذي يطعم صغاره..؟.. يغادر عشه

فجراً.. يظل يحلق في السماء حتى يرجع بالطعام إلى الصغار.. هذه هي مهمته المقدسة في هذه الدنيا..

وربّت على وجنتها وحاولت أن أبتمس وأنا أتابع:

- النار تحرق.. الماء يسقى.. الشمس تضيئ وتدفئ.. الهواء.. الزهور.. القمر.. البحر.. الكل له دور جاء إلى الدنيا لأدائه.. ونحن بنو آدم لسنا إستثناء.. ولا أحد له أن يقوم بدور آخر.. هل أنت معي..؟..

لم ترد.. خيطان من الدموع صنعنا مرجيين لامعين لهما على وجنتيها عصرا قلبي عصراً.. إحتضنتها بقوة هامسة:

- إعتنى بنفسك جيداً..

قلتها وأسرعت أغادر الشقة.. سمعت صوتها الباكي من خلفي يناديني، ولكنني لم أتوقف.. رحت أصعد الدرج بسرعة إلى السطح وأنا أكم دموعي بصعوبة..

.....

.....

.....

أخذت نفساً عميقاً لأتمالك نفسي.. خطوت بحذر على أرض السطح الملى بالكراكيب ومخلفات البناء.. صياح الدجاج القادم من العشة الخشبية المجاورة يملأ المكان.. تشبّت بأسياخ الحديد البارزة من بلاطة السطح، ومددت ساقى لأنتقل إلى سطح البناية الملاصقة محاذرة السقوط في المنور المشترك بين البنائتين.. هبطت سالماً البناية بسرعة.. نظرة من بين فراغات الزخارف الرديئة التي تملأ حديد باب المدخل.. اللاندروفر مازالت متوقفة في موضعها.. إرتديت منظارى الشمسى ورفعت ياقتي معطفى.. أزعجت الباب الثقيل ببطء، وانسلت من الفتحة بين الضلفتين.. مشيت بخطوات واسعة نحو مدخل الشارع المزدهم.. الخوف كل الخوف أن..

- (صوت عال): إفضل يا دكتور..

هوى قلبي بين قدمي.. بالله عليك يا عم (حبشى).. دعني وشأني هذه المرة.. تجاهلته وزدت من إتساع خطواتي و..

- (بصوتٍ أعلى): دكتورة (أمل).. إتفضلى نورينا..
الله يخرّب بيتك.. إختلست نظرة من وراء كتفى كانت كافية جداً لألمح
أبواب اللاندروفر تتفتح ويغادرها عملاقين يرتديان البذل و المناظير
الداكنة..

- مدام (أمل)..
جاءت هذه بالطبع من أحدهما.. لم أتوقف طبعاً.. كان الرعب قد
سرى في كياني كله كالكهرباء، فلم أدّر بنفسى إلا وأنا أعدو بكل قوتي نحو
مدخل الشارع.. لابد أنّ أهل الشارع وأصحاب الحوانيت المجاورة لن
ينسوا منظر المدام المحترمة التى يعرفونها منذ سنوات وهى تعدو
هاربة من مطاردة رجلين لها..
كانت سيّارتى مازالت في موقع التصوير في الساحل الشمالى (لا تنس أنّ
ميخائيل هو من أقلّنى إلى هنا عقب سقوطى صباح أمس)..

هل كان هذا منذ أربعة وعشرين ساعة فقط...!!؟..

وحتى لو كانت هنا، فلم تكن لدىّ أى فرصة لبلوغها..
إخترقت الشارع المزدحم بصعوبة.. لم أتوقف لحظة أو ألتفت
خلفى.. وصلت شارع (لاجيتيه).. الزحام هنا أخف قليلاً.. أجرى..
ألهث.. أكاد أنكفى على وجهى.. أستعيد توازنى.. أجرى.. كنت بعيدة
النظر عندما إرتدبت حذاءى الكاويتشوكى..
- مدام (أمل).. توقفى..

تضاعف رعبى.. هم مصرون على اصطيادى.. اللعب الآن صار
مكشوفاً.. متّك لله يا عم (حبشى).. كانت لتكون مناورة ناجحة أربح
بها وقتاً لأختفى وأرتب أوراقى، ولكنك نسفتها تماماً بصوتك الجهورى
هذا.. ألهث.. أنا في الأربعين من عمرى.. جسدى صار ممتلئاً لا يسمح
بهذه المغامرات.. أجرى.. أتنفس بصعوبة..

محطة ترام (الإبراهيميّة).. الترام أصفر اللون يغادر ببطء.. إلى
أين..؟.. لا أعلم.. أجرى.. ألهث.. أجرى.. عربات الترام تزداد سرعة..
أثب درجات المحطة القليلة.. أعدو على الرصيف.. ألهث.. الناس تنظر

لى بدهشة.. أسمع خطوات ركض العملاقين من خلفى.. أكاد أشعر
بأطراف أصابعهما الممدودة تلمس طرحتى.. بما تبقى لى من قوّة أثب
لأتعلّق بالعمود المعدنى المثبت بمدخل عربة الترام الأخيرة.. أتشبّت
به.. آلام مبرحة فى ذراعى.. أسمع شهقة.. الترام يتجاوز المحطة..
وجوه الركاب تحدد بى فى دهشة.. الأذرع تمتد لتسحبنى و..
هنا شعرت بالأصابع القويّة تلتف حول كاحلى.. شهقت برعب.. أدت
رأسى فوجدت أحد العملاقين يتشبّت بحافة باب العربة بيد، ويقبض
على كاحلى بالأخرى.. صرخت بفزع وأنا أحاول جذب ساقى من بين
أصابعه الفولاذيّة.. الركاب متجمدون فى أماكنهم.. الوغد متشبّت بقوّة..
خصلات شعره تطاير مع اندفاع الهواء بسبب سرعة الترام، وشبح
إبتسامة يتلاعب على شفتيه وكأنه يقول لى «لن أتركك فلا تتعبى نفسك
بالمقاومة»..

بادج أحمر مستدير يحمل حرفيّ (E.N) مثبت على صدر سترته..

يضع قدمه على إحدى درجات سلم المدخل.. كيانه يتضخم أمام
عينيّ المذعورتين حتى ليكاد يسد فتحة الباب و..
وفى اللحظة التالية سمعت دوى إرتطام هائل.. تخلت الأصابع الفولاذيّة
عن ساقى، واختفى العملاق من أمامى.. تعالت صرخات الركاب.. إندفع
كثيرون منهم ليطلوا من الشبايك.. كلام كثير.. إستغرقت وقتاً لأفهم
أنّ جسد العملاق (وكان نصفه لا يزال خارج العربة) إصطدم بأحد
أعمدة الإنارة المزروعة على جانب قضبان شريط الترام فأطاح به..
كنت مازلت راقدة على الأرض.. صدرى يعلو ويهبط، وقلبى ينبض
بعنف.. أنهضونى وأجلسونى على أحد المقاعد.. التعليقات والأسئلة
تتهمر من حولى كالمطر.. لم أجد بى قدرة على التفوه بحرف من فرط
الإجهاد والانفعال.. بأصابع مرتعشة أشعلت سيجارة.. شعرت بسرعة
العربة تنخفض، فأدركت أن محطة (كامب شيزار) قد دنت..

كان إسمه أول من ورد على ذهنى عندما بدأت الأحداث الأخيرة..

إستغربت جداً.. كمّ مضى من الزمن على المرّة الأخيرة الّتي وقعت فيها عيناى عليه..؟! عشر سنوات تقريباً.. لا أقل من هذا..
كان آنذاك شاباً نحيفاً.. طويل القامة.. ليست بملامحه وسامة زائدة أو قبح زائد.. ملامح عادية جداً تجد مثلها الكثير في وجوه جيرانك أو زملائك بالعمل أو الجالسين قبالتك بالترام..
فقط تميّزه تلك النظرة المفعمة بالثقة والإصرار والتحدى.. نظرة شخص يعرف ما يريد.. ويعرف أنه سيحقق ما يريد.. أو على الأقل لن يهدأ له بال حتى يحقق ما يريد..
(أحمد بشير الهلالى).. طالب الحقوق المشاغب.. الثائر المتحمس..
الناصرى المخلص، وصداع الأمن بجامعة (الإسكندريّة).. كنت قد حدثك عنه من قبل لو تذكر..

أذكر أنّ نوعاً من التنافس على قلبى إشتعل بينه وبين (بشير الهلالى) طالب الحقوق الشاب، وصاحب الميول السياسيّة الناصريّة الّتي جلبت على رأسه الكثير من المشاكل..

دعك من أنّ (بشير) كان يغادر المعتقل ليعود إليه مرّة أخرى، وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن التسع سنوات..

كم مرّة تحوّل للتحقيق..؟! كم مرّة تعرّض للفصل..؟! كم مرّة تعرّض للإعتقال..?!

مرّات عديدة.. سنوات ضاعت من عمره بين المعتقلات.. مَحَنَ عِدَّة تعرّض لها كوفاة والدته مثلاً وهو معتقل على ذمّة إحدى قضايا أمن الدولة (قُبض عليه أثناء قيادته لمظاهرة طلابيّة ضدّ التطبيع فيما أذكر).. الشلل الّذى أصاب ثلاثة من أصابع يده اليمنى من جراء التعذيب الوحشى.. ومآس غيرها خرج منها قوياً متماسكاً بفضل صلابته نادرة إمتاز بها دوماً..

علاقتى به..؟! بدأت مع عامى الدراسى الثانى بكلّيّة الإعلام.. فى ندوة نظمها مجلس الكليّة حول العلاقة بين الديمقراطية والإصلاح، وكان

رئيس الوزراء ضعفاً على الندوة.. فى مثل هذه الحالات يتم اختيار أسماء الحضور من الأساتذة والطلبة بدقة شديدة بحيث لا يُسمح بحضور الندوة إلا للعناصر المعروفة للأمن وإدارة الجامعة بولاءها للحزب أو على الأقل العناصر الغير مثيرة للمتاعب.. وذلك حتى لا تحدث أثناء الندوة أيّة منغصات قد تسبب حرجاً للضيف العظيم أو لإدارة الجامعة..

لا أحد يعرف كيف تمكن (بشير الهلالي) -كذا كنّا نناديه متجاوزين إسمه الأوّل- من تجاوز النطاق الأمنى المحكم، والتسلل إلى قاعة الندوات.. كنت جالسة بين رفيقائى نستمع إلى حديث سيادة رئيس الوزراء المكرر حول الخطوات الواسعة التى قطعتها الحكومة فى مسيرة الإصلاح، عندما علا صوت (الهلالي) كالرعد من بين مدرجات الفتيان:

- عن أى إصلاح تتكلّم يا دكتور والبلد يحتضر منذ عقود..؟..

مازلت حتى الآن أذكر تلك اللحظات القليلة الصامتة المشحونة بالكثير من الإنفعالات والتّى مرّت عقب هتاف (بشير).. أذكر امتقاع وجه رئيس الجامعة واحتقان وجوه نوابه.. وحده رئيس الوزراء هو الذى تمالك نفسه بحنكة إكتسبها خلال سنوات بقائه فى منصبه (وكانت آنذاك قد جاوزت الخمس سنوات).. إكتسى وجهه بابتسامة الرجل الديمقراطى الذى يرحب بمناقشة جميع الآراء حتى المعارضة لرأيه.. قال:

- من الذى يحدد ما إذا كان البلد ينمو أو يحتضر..؟..

بدا الفتى -آنذاك- قوياً واثقاً وهو يجيب:

- أحوال الناس..

- (مبتسماً): أحوال الناس من الحسن إلى الأحسن.. الدخول فى إزدياد دائم .. العلاوات فى إرتفاع مستمر.. الغذاء مدعوم .. الكساء مدعوم .. العلاج مدعوم .. الكهرباء مدعومة.. معدل النمو يرتفع عامراً بعد عام.. الناس مرتاحة ومبسوطة.. ما الذى يضايقك أنت..؟..

قالها وهو يفتح كفيّه ويتلفت حوله بحركة مسرحيّة المقصود بها استجلاب السخرية من كلام (الهلالي) الذى هدر صوته:

- الناس المرتاحة المبسوطة هم فقط المسؤولين أمثال سعادتك يا دكتور.. أما أهل البلد الحقيقيّون فيعيشون حياة إلى الموت أقرب..

إهبط يا دكتور إلى الأحياء والحواري وشاهد الناس وهم ينبشون القمامة بحثاً عما يسد رَمَقهم.. وهم يحفرون الأرض بأظافرهم بحثاً عن الماء.. وهم يذبحون بعضهم البعض للظفر برغيف عيش.. رغيف عيش يا دكتور..

مع آخر حروف كلماته إندلع التصفيق مدوياً من بين أكف الحاضرين من الطلبة والأساتذة، وقد إنتشوا لوجود من يصرخ بما يروونه ويعلمونه وتمتلئ به صدورهم، وكنت أنا أكثرهم حماسة.. وبدأ لي (الهلال) لحظتها بطلاً شامخاً قادماً من عالم الأساطير.. شجاعاً لا يتردد في البوح بكل ما يملأ صدور الجالسين العاجزين عن الفعل مثله.. إنتقلت عيناى إلى رئيس الوزراء الذى ظل محتفظاً بالإبتسامة إياها، وقال (بعد أن انتهى التصفيق طبعاً):

- أنت شاب متحمس، ولكن تنقصك الموضوعيّة.. بالتأكيد هناك مشاكل وسلبيّات عدة، ولكن من الجيّد أن تنظر أيضاً إلى النصف المملوء من الكوب.. مشكلتك أنت وأمثالك من الشباب أنكم تأخذون ثقافتكم من صحف المعارضة التي لا تبغى سوى الإثارة والتحريض.. ولكن لو هبطتم إلى الواقع ونظرتم حولكم بحياديّة لوجدتم إنجازات كبيرة تحققت وتحقق..

- إذا كنت تتحدث عن الواقع الخيالي المصنوع على شاشات التليفزيون الحكومى، فلك كل الحق فيما تقول وأكثر.. أما الواقع الحقيقى فنحن مغموسون فيه حتى شعورنا.. نعانى ونشقى ونتعذب..

بدأت الإبتسامة المستفزة تتلاشى من على شفتيّ الرجل، وهو يقول بنبرة تحمل الغضب:

- هناك برلمان منتخب يدافع عن حقوق المواطنين ويحاسب الحكومة إذا قصّرت في أداء واجبها..

- (متهمكاً): ذاك برلمان يعرف القاصى والدانى كيف تم انتخابه.. أقصد تعيينه بواسطة ضباط الشرطة وأمن الدولة وتحت إشراف لجنة السياسات بالحزب..

إحتقن وجه الرجل وهو يقول غاضباً:

- لا تردد كلاماً لا دليل عليه.. هذا يعرضك للمساءلة القانونيّة..

- الأدلة ملء الأسماع والأبصار لمن يريد لها يا دكتور..
هنا تدخل رئيس الجامعة.. أمسك بالميكروفون وصاح:
- أخرجوا هذا الوقح..

تحرك رجال الأمن وكأثماً تم توصيلهم بقابس كهربى.. هرعوا يجذبون
الفتى من ملابسه ويدفعونه خارج قاعة المؤتمرات وهو يردد بصوتٍ
مدو:

- كفى غشاً وخداعاً.. إنكم تعتصرون أرواح الناس عسراً بينما ألسنتكم
لا تتوقف عن ترديد الأكاذيب.. لو كنت صادقاً أخبرنا ماذا حدث
لصاحب العبارة والوزير الذى سرطن الناس والمليارديرات الذين نهبوا
ثروة الشعب وفروا إلى الخارج و.. و..
ظل يهتف ويهتف بينما الأمن يجره من ثيابه حتى تلاشى صوته تماماً
مع خروجه من القاعة..

إنكم تعتصرون أرواح الناس عسراً بينما ألسنتكم لا تتوقف عن ترديد
الأكاذيب..

ياالله.. هل كنت تقرأ المستقبل حقاً يا (بشير)..؟!.. هل كنت تعلم
شيئاً عن مشروع (إيجى - نيرجى)..؟!.. لكم كنت دقيقاً صائباً.. ولكم
كنت قوياً عندما دفعت ثمن نضالك من صحتك وسنوات عمرك التى
ضاعت فى المعتقلات..

أين صرت يا (بشير)..؟!.. وماذا فعلت بك الأيام..؟!.. ما سمعته عنك
منذ سنوات أنك نزلت إلى (القاهرة) وافتتحت مكتباً للمحاماة هناك..
أمازلت معارضاً متحمساً كما كنت..؟!.. أم أن اليأس تملكك ومرور الزمن
أنهكك..؟!.. هل تذكرنى..؟!..

آخر لقاء تم بيننا عندما حضرت لتعزيتى فى وفاة (مجدى).. طلبت منى
آنذاك أن أوكلك لترفع قضية تعويض تختصم فيها إدارة المستشفى
التي تسببت فى موت طفلى ووزير الصحة، بل ورئيس الجمهورية ذاته..
ساعتها رفضت أنا الأمر تماماً، ولم أجد محاولتك معنى محاولتك
لإقناعى فتيلاً.. كنت أرى أنه ما من فائدة أجنيها من وراء كل هذا بعد

أن خسرت ما هو أغلى وأثمن من أى شئ.. أسرتى.. بل على العكس..
ستنتفح أبواب الجحيم فوق رأسى ورأس أهلى من وراء تحدى الكبار،
حتى لو كان ذلك قانونياً، ولن يغفروا لى أبداً ما سيصيبهم جراء هذا..
أما أنت فكانت متحمساً كعادتك..

- حالة طفلك الراحل ليست الوحيدة.. هناك المئات يلقون نحبهم
سنوياً فى المستشفيات بسبب الإهمال وقلة الخبرة.. وينبغى محاسبة
جميع المسؤولين عن هذه الجرائم البشعة، حتى نضع حداً لها..
- محاسبة الطبيب أو مدير المستشفى أو حتى عميد كلية الطب
ممكن.. و لكن رئيس الجمهورية...!!
- أولهم رئيس الجمهورية لأنه هو ونظامه المسؤولين ولا أحد سواهم
عن وضع هؤلاء الفشلة على مقاعدهم..

وإزاء إصرارى على الرفض، غادرت أنت غاضباً.. أذكر جيداً كلماتك
الأخيرة التى ألقيتها على مسامعى أثناء توديعى لك على درج البناية..
- تذكرى جيداً أن نقطة الخلاف بينى وبين (مجدى) رحمه الله كانت فى
أنه يتجاهل السبب الأصلى للمشكلة، ويفضل الدوران حولها وإحتوائها
كما تفعلين أنت الآن.. كان ينادى بالإصلاح ويتجاهل دعاوى الثورة
والتغيير التى صرخ بها شرفاء كثيرون.. وصدقنى وفاة طفلك وزوجك
من بعده ما هما إلا آثار ذلك الفساد الذى نخر أعمدة البلد، والذى
تجاهل زوجك وتجاهلين أنت الآن أن منبعه هو الرأس وليس القاعدة..
قد تتفق أو تختلف أنا وأنت و(مجدى) رحمه الله فى الأساليب، ولكن كل
منا يعرف أن الآخر ليس وغداً ولا أفقاً.. فرغم خلافاك، كان (مجدى)
يردد دائماً أنكم تتحدثان بلغتين مختلفتين ولكنكما تقولان نفس الكلام،
وكان احترامه لك لا يهتز..

(بشير).. هل تسمعين...؟..

أنا فى ورطة يا (بشير).. البلد كلها كذلك.. ستقول لى أنها كذلك منذ
دهر، ولكننى أحمل لك تفاصيل مرعبة أثق أنها ستصيبك بالذهول.. لا
أعرف أحداً سواك يمكننى اللجوء إليه والإعتماد عليه..
أين أنت يا (بشير) ..؟..

غادرت الترام بسرعة وسط نظرات الركاب من محطة (كامب شيزار)..
حالة من التوجس والخوف إنتابتهم فلم يجرؤ أحدهم على استيقافي،
حتى الكمسارى لم يطالبني بقطع تذكرة.. الشارع الرئيسى مزدحم..
لو كانت اللاندروفر ورائى، فلن تستطيع اللحاق بى وسط هذا الزحام..
جسدى لا يزال يرتعش من انفعال المواجهة السابقة.. أسمع زنين
هاتفى المحمول..

- هل تعرفين ما فعلت بنفسك أيتها العاهرة..؟..
قالها بالأمريكية وبصوت بارد مشحون بغضب هائل..

-
- هل تظنين أنك بوسعك عمل شئ..؟.. هل تعتقدين أنك قادرة على
تحدى..؟.. ألا تعرفين يا سافلة أنك ستكونين فى قبضتى خلال دقائق..؟..
إلتقطت نفساً عميقاً لأتمالك نفسى، وقلت:
- مستر (كمال).. لا رد عندى على أسئلتك.. ولكن لى تعليق واحد يردده
أحياناً المصريون الذين ترغب أنت فى إمتصاص أرواحهم.. هل تحب
سماعه..؟..
- ما هو..؟..
- يحموك ف كنكة..

وفى اللحظة التالية كان الهاتف المحمول يسبح فى الهواء، ثم يهوى
ليتهشم على أسفلت الشارع قبل أن تسحقه عجلات السيّارات،
وهى خطوة تأخرت عليها كثيراً، لأننى أعلم أن تكنولوجيا التتبع عبر
الأقمار الصناعيّة تستطيع بسهولة التوصل إلى مكانى عن طريق هاتفى
المحمول..

رحت أجد السير بسرعة بين الشوارع والطرق.. فى تلك اللحظات
ملأنى شعور غريب.. لكأنّ حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدرى ويخنق
أنفاسى إنزاح لتوه.. شعرت بنفسى خفيفة تكاد قدمائى لا تلمسان
الأرض.. شعور عارم بالثقة أفعمنى.. أنا قويّة.. وقوية جداً كذلك..
وسأغلب هؤلاء السفلة بإذن الله..

دلفت إلى مكتب إتصالات.. وطلبت رقماً من الفتاة السمراء المحببة
الواقفة خلف الكاونتر الخشبى.. أشارت لى بدخول إحدى الكبائن

ففعلت..

- (بغضب): أين ذهبت يا هانم..؟..

(محمود) -شقيقى الأكبر- عصبي جداً.. لاريب أن أُمى اتصلت به مولولة وأخبرته بما كان مئى..

- إسمعنى..

- أُمك منهارة تماماً.. مَن هؤلاء الناس اللّذين كنت تجرين منهم فى الشارع..؟..

بهذه السرعة..!!.. طبعاً.. بالتأكيد صدم منظرى -وأنا أعدو فى الشارع- الكثيرين ممن يعرفوننى وممن لا يفعلون.. ولابد أن العديد منهم هرعوا إلى بيتنا ليستفسروا..

- سأخبرك فيما بعد.. فف..

قاطعنى غاضباً:

- بل ستخبرينى الآن..

- إسمعنى..

قلتها بصوت عال ولهجة حادة لم يألّفها مئى.. بُهتَ للحظة فأسرعت بكلمات سريعة أخبره بأننى أعانى مشكلة ضخمة فى عملى ستضطرنى للسفر لفترة قد تطول، وطلبت منه أن يبذل مجهوداً مع أُمى لإقناعها بالسفر معه إلى (جدة) حتى لا تبقى بمفردها فى البيت..

بان القلق واضحاً فى صوته وهو يقول:

- ما الأمر بالضبط يا (أمل)..؟.. ومن اللّذين كانوا يطاردونك..؟..

تهددت قائلة:

- ثق أننى بخير وأمان.. هو تحقيق صحفى أقوم به لا مجال لسرد

تفاصيله الآن.. إدع الله أن يوفقنى..

- وكيف سأعرف أخبارك..؟..

- إن شاء الله سأكون على اتصال مستمر بك.. إتفقنا..؟.. أستودعك

الله..

- إنتظرى.. ماذا عن (إيهاب)..؟..

شعرت مع سؤاله بغصة فى حلقى.. صمتٌ للحظات، ثم أجبته

بصوت مبحوح:

- أخبره بأننى لن أجد من هو أفضل منه.. ولكننى لست مستعدة الآن للزواج..

- لماذا يا (أمل)..؟.. أخبرينى بما يجرى..

- الوقت لن يسمح.. إلى اللقاء..

- إنتظرى.. ماما تريد محادثتك..

- لن أستطيع.. إلى اللقاء..

أنهيت الإتصال وأسندت رأسى إلى جدار الكابينة الخشبي.. دمعة باردة سالت على وجنتى.. لم أكن مستعدة لسماع صوته الحبيب الملتاع فى هذا التوقيت.. أنا بحاجة إلى كل مؤازرة ودعم للحرب القادمة، وتوسلات أُمى لى بالعودة هى آخر ما ينقصنى.. أزحت باب الكابينة وقلت للفتاة الجالسة خلف الكاونتر:

- رقم آخر من فضلك يا آنسة..

- أين أنت يا رِيسة..؟.. طلبتك أكثر من مرة ووجدت هاتفك مغلق.. كيف حال صحتك الآن..؟.. وك..؟..

قاطعته وأنا أبتسم رغماً عني:

- توقف عن الثرثرة واسمعنى..

- تحت أمرك..

- أين أنت الآن..؟..

- خرجت لتوى من القداس بـ (مار جرجس).. سأذهب إلى المكتب على الفور..

- إسمعنى جيداً.. لدى مصلحة عاجلة سأضطر للسفر من أجلها.. ستتولى إدارة المكتب بنفسك وتقوم بتنفيذ الحلقتين المتبقيتين من البرنامج، وإستلام ما تبقى من دفعات حسابنا من المحطة.. وسيكون بيننا اتصال مستمر إن شاء الله..

- هل ستتغيّبين كثيراً..؟..

- العلم عند الله.. هناك شئ آخر..

- (باهتمام): ما هو..؟..

صمتٌ للحظة ثم قلت:

- الأعمار بيد الله.. لو قدر لي الله ألا أرجع، فسيكون المكتب مسئوليتك.. سأرسل لك بإذن الله توكيل رسمي بالبيع والتصرف في الأملاك.. إنقل ملكية نصف المكتب إلى حوزتك، والنصف الآخر ستبحث عن مشترٍ له.. هل أنت معي..؟..

- (منزعجاً): لم تقولين هذا الكلام يا ريّسة..؟..

- قيمة النصف المباع ستوزع على ورثتي وفقاً للشرع.. وأنا واثقة تماماً
من أنك ستتصرف بأمانة..

فوجئت بصوته يتهدج بالبكاء وهو يقول بحرارة:

- أنا لا أريد شيئاً يا رِيسَة.. فقط عودي لنا بالسلامة..

إنهمرت الدموع من عيني وأنا أقول:

- تَمَنَّ لِي التَّوْفِيقَ يَا (مِيخَائِيل) ..

- سأصلي من أجلك.. وستعودين سالمة إن شاء الله..

- شكراً يا صديقي العزيز..

- (مصر).. الى نازل (مصر).. الى نازل (مصر)..

إتخذت موضعى فى الميكروباص إلى جوار النافذة فى الصف قبل الأخير.. أنظر عبر زجاج النافذة.. الموقف مزدحم بالرائحين والغادين.. الكل يتحدث.. الكل يدخن.. الكل يتعارك.. الكل يضحك..
تشششششششششش

أنظر إلى يميني عبر النافذة الأخرى، فأرى ذلك الفتى النحيف الأسمر يقذف -بسرعة البرق- قطع العجينة الخضراء في وعاء الزيت المغلي، وبعدها بثوان يمد المغرفة فيلتقط بها أقراص الفلافل ذهبية اللون رائعة الجمال شبيهة الرائحة تلتهم بالزيت..

- (مصر).. الى نازل (مصر).. الى نازل (مصر)..

الشمس متوالية كعادتها في ذلك الوقت من السنة خلف الغيوم.. عربات الميكروباص لا تتوقف عن الحركة جيئةً وذهاباً.. إلى جوارى سِدَّة عجوز بدنة ترتدي السواد وتحمل كيساً بلاستيكياً تفوح منه

رائحة رنجة واضحة.. تسألني وهى تلهث:
- هَيِّ العريَّة دى بَتَزَلِّ فين ف (مصر) يا بنتى..؟..
فتحت فمى لأجيب عندما تطوع رجل أصلع كثر الشارب يجلس فى
المقعد الذى يسبقنا بالإجابة:
- (عبود) إن شاء الله يا حاجة..
- (مصر).. (مصر).. الى نازل (مصر).. الى نازل (مصر)..

الجو بارد.. من تليفزيون المقهى القريب أسمع (تامر حسنى) يردد أن
«كل مرّة أشوفك فيها.. بابقى نفسى آ.. آ...».. العربة تتمايل وتتأرجح إذ
يدخلها رجل ملتح ضخم يرتدى الجلباب الأبيض.. يحنى رأسه ويتحرّك
بصعوبة حتى يستقر على الأريكة الخلفيّة ورأى.. رائحة المسك الّتى
تفوح منه تفعم أنفى فتطرد منها رائحة الرنجة..

- (مرسى مطروح).. واحد (مرسى مطروح)..
- و(المرسى ابو العباس) ما انت محمل نفر واحد قبل ما أطلع انا
يا بن الوسخة..
شخرة مجلجلة تدوى فى الفضاء ثم..
- عشنا وشفنا اليوم الى ولاد الـ «.....» بتوع (غيط العنب) طلع لهم
فيه صوت.. طب ورحمة شرف أمك ما انت محمل النهاردة نفر واحد
يا «...» يا بن الـ «.....»..
«أجيلك أقولك إنك كلك على بعضك عندي بالحياة.. طب آ.. آ...»..
الرجل الملتحى من خلفى يزفر بضيق مردداً؛ «أستغفر الله العظيم»..
أصوات الصفعات واللكمات والسباب البذئ المنهمر كطلقات المدفع..
الأجساد تتدافع والأذرع تمتد لتحول بين المتعاركين..
- (عامريّة).. (عامريّة).. الى نازل (العامريّة).. (عامريّة)..

بالتفاصيل الحبيبة الّتى تحيط بنا طيلة الوقت دون أن ننتبه إلى
حميميّتها .. فقط نستشعر مذاقها عندما نفتقدها.. تهتدت.. لو
استمرت (إيجى - نيرجى) -فكرت- فى عملها، فستلاشى كل هذه التفاصيل

في غضون السنوات القليلة المقبلة..
أنتقل ما بين فيس بوك وتويتر و(مصراوي) و(الدستور الأصلي)
والجزيرة على محمول جديد -ابتعته قبل ساعة- دون أدنى تركيز.. طويت
الجريدة وأسبلت جفني.. العربية تتحرك أخيراً لتغادر الموقف.. المسافة
من (الإسكندرية) إلى (القاهرة) تستغرق ثلاث ساعات تقريباً.. منذ عودتي
إلى بيت أسرتي في (الإسكندرية) وأنا لا أطيق البقاء في (القاهرة) ولا أسافر
إليها إلا عندما يتطلب عملي ذلك.. غير أنني الآن أجدها الملاذ الآمن
لي بعد كل ما حدث..
هل كنت حمقاء بالفعل عندما رفضت عرض (كمال فودة) وتحديثه
هو ومن خلفه..؟..

(عرض لا يمكن رفضه) بلغة (المافيا).. لأن قبوله يعني أن تربح كل
شيء، ورفضه ليس فقط أن تخسر حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل
ستتحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها..

لا أعتقد أنّه صادق تماماً في عرضه يا دكتور (حازم).. هو فقط يريد
أن يضمن أنّ دليل إدانته لن يتسرّب إلى أي جهة.. دعك من أنهم مَحُوا
الفيديو الذي يحمل إقرارات (يوسف محي الدين) من على بريدي
الأيكتروني، فمن الممكن جداً أن أكون قد صنعت منه نسخة أو أكثر،
وأرسلته إلى أي أحد من خلال صندوق بريد أليكتروني آخر (وهو للأسف
ما لم أجد فرصة لفعله بسبب الإنهيار العصبي الذي أصابني).. هو
إذن يريد التأكد من إخفاء سرّه، وبمجرد أن يفعل، تنتفى حاجته إليّ -
دعك من مسرحيّة حاجته إلى خدماتي الإعلاميّة- وبالتالي يصبح التخلص
منّي هو الحل الأمثل..

كم تساوى قدرة فرد واحد أمام كيان قارّى ك (هالبرتون)..؟..
الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل قسمة أي رقم على الصفر..

لا يا سيد (كمال).. كذبت في هذه أيضاً.. سواء أنت.. سواء والدك..

أو حتى (هالبرتون) هذه.. لستم آلهة ولا حتى أنصاف آلهة.. برغم قدراتكم الخرافية إلا أنني أشعر بأنني أقوى منكم جميعاً.. لأنّ الله معي وهو نعم المولى ونعم النصير..

لم أدر متى ولا كيف غفوت.. ولكنني وجدت نفسي أسير حافية القدمين على رمال الشاطئ البيضاء.. السماء صافية.. الأمواج تداعب أصابع قدمي برقة.. من بعيد أرى جسدين يقتربا.. راحا يدنوان مني بينما تفاصيلهما تتضح أكثر فأكثر..

- (بدهشة وفرح): (أحمد)..!!؟؟..

وجهه ناصع وسيم كما لم أراه من قبل.. إبتسم فظهرت سنته الأمامية المكسورة وقد اكتملت.. قال وهو يصفحني:

- وحشتيني..

صافحته بحرارة وأنا أقول: وانت كمان..

أشار إلى رفيقه قائلاً:

- مش هاتسلمي على صاحبي..؟؟..

نظرت إلى الرجل الأسمر.. متوسط القامة متين البنيان.. وقعت عيناى على ساعده الأيمن فوجدته مبتوراً.. هتفت بدهشة:

- إنت؟..!!..

قال (أحمد):

- الأسطى (عمار)..

صافحني الرجل بيسراه وهو يبتسم..

- إزّي حالك يا مدام ..؟؟..

رددت عليه بتمتمة غير مفهومة، وأنا أحدق فيهما بانبهار..

قال (أحمد) بجديّة:

- أنا قلقان عليكى يا (أمل)..

- ليه..؟؟..

- الطريق أدامك طويل وخطير..

قلت بثبات:

- هامشيّه لآخره إن شاء الله..

نظر لى بإعجاب للحظة قبل أن يقول:

- مهمتك مش سهلة أبداً.. عارفة إيه اللي ها يحصل لو فشلتى أو عرفوا يوصلوك...؟..

نظرت له مستفسرة، فأشار بسبابته جهة البر.. أدت رأسى حيث يشير، فلفحتنى موجة حارة لاهبة جعلتنى أشهق.. رأيت ناراً هائلة مشتعلة على مرمى البصر.. سمعت صراخاً وأنيباً وعويلاً.. سحابة سوداء عظيمة من الدخان تملأ السماء.. ملايين الأطياف الصارخة المتألمة تنبعث من بين أسنة النيران.. تتصاعد لأعلى.. تُشَفِّط بواسطة أنبوب عملاق شفاف.. أرى من بين الأطياف وجه أمى وأبى الراحل.. أشقائى وأزواجهم وأبناءهم .. (مجدى) و(ميدو).. (ميخائيل).. عم (حبشى).. كل من أعرفهم ومن لا أعرفهم يتعذبون ويصرخون بألم رهيب.. الأنبوب العملاق ممتد من البر إلى البحر.. إلى هناك إلى (باراديس هايتس).. السماء صارت حمراء قانية بلون الدم.. الرمال برتقالية.. الأمواج سوداء كالحة..

أصوات الأنين تتصاعد لتملاً رأسى.. يا أرحم الراحمين.. ياللحرارة.. أغمضت عيني بقوة، وسددت أذنى بكفى.. رحت أين.. أين..

سألتنى السيِّدة العجوز الجالسة إلى جوارى بحنانٍ فطرى:

- فيه حاجة يا بنتى...؟..

فتحت عيني.. نظرت إليها بعينين متسعيتين.. زفرت بعمق وقلت:

- لا أبداً يا أمى.. ده بس كان حلم وحش..

إستعازت بالله من الشيطان الرجيم وطلبت منى أن أفعل بالمثل ففعلت..

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، واصطبغ الشفق بلونٍ أحمر قان.. تساءلت:

- فاضل كثير على (مصر)..؟..

أجابنى أحدهم:

- إحنا خلاص على وصول..

ساد الصمت بعدها إلا من صوت أزيز المحرّك، وصفير الرياح بالخارج.. أخرجت مصحفاً من حقيبتي.. وعلى ما تبقى من نور الشمس

الغاربة بدأت أقرأ بصوت خفيض..

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم .. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً و هم لا يُفَتِّنون)

في (القاهرة) حاولت الإتصال بـ (ميخائيل).. أخبرتنى خطيبته (ميران) - بلهجة تفوح منها رائحة الإتهام- أنَّ المباحث ألقت القبض عليه.. لا بسبب الدعوة التي رفعها (رأفت عابدين) -مالك محطة (ASC)- على مكتبنا يتهمنا فيها بالتربح من وراء البرنامج الذي نفذه لحساب محطته من خلال عمل دعاية غير مباشرة لأحد توكيلات الملابس الجاهزة بما لا يتفق والعقد المبرم بيننا وبينه..

ألقت المباحث القبض على (ميخائيل) بتهمة التهرب من الضرائب باعتباره مدير المكتب في غيابي.. صعقتني الخبر أول الأمر، لأنني أدفع ضرائبي بانتظام، ولدي أوراق تثبت هذا.. ثم فطنت إلى أنَّ الأمر يتجاوز ذلك..

ولكنك لا تستطيعين تخيل مدى ما أستطيع القيام به..

إذن فقد بدأت (إيجي - نيرجي) تتحرك.. هاهو (ميخائيل) بين برائن الأمن.. ويعلم الله ما الوسائل التي سيستخدمونها لإجباره على البوح بمكاني (وهو ما لا يعرف عنه شيئاً).. ياللفتي البائس.. طمأنت الفتاة الباكية بأنَّ الأمر لا يعدو كونه خطأ قانوني لأنَّ موقفنا المالي سليم تماماً.. وبعد أن أنهيت إتصالي بها، حاولت الإتصال بـ (محمود) أخى سواء على هاتفه المحمول أو هاتف منزله بـ (جدة).. لا مجيب.. تقلصت أحشائي.. أمِنَ الممكن أن ...؟..

أنا -سيدتي- ملك (مصر) الغير متوج..

جَرَّبْتُ الإتصال بمنزلنا في (الإبراهيميَّة) .. نفس النتيجة .. منزل شقيقتي
(سموحة) .. نفس النتيجة ..

أعدت السَّمَاعَة إلى موضعها .. غادرت مكتب الإتصالات وأنا أكاد لا أرى
أمامي شيئاً .. لا يحتاج الأمر لعبقرية خاصة .. لقد سقط أهلى كلهم في
قبضة الشركة ..

بل ستحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر .. لا معنى لها ..

إعتصرت قبضة باردة قلبي .. أمى .. إخوتي .. يا الله .. كيف أنتم الآن ؟ ..
ومضت بذهني صور خاطفة لهم وهم قابعون في أفبية كالحة الجدران
عارية من الأثاث يتعرضون لأبشع ألوان التعذيب .. بل لربما هم -
هذه اللحظة بالذات- داخل ماكينات (إيجى - نيرجى) ..
أغمضت عيني بقوة .. ورحت أمشي بخطوات أسرع .. أسرع ..

.....
.....
.....
.....

سامحني يا دكتور (حازم) إذ لن أخبرك عن مكاني الحالي .. أنا في مكان
ما من قلب (القاهرة) .. لا تحاول التخمين .. لربما كنت في باحة (الأزهر
الشريف) .. ولربما كنت أسير في شوارع وسط البلد أو أقف أمام مذبح
(سانت تيريز) بد (شبرا) .. أنتظر الأوتوبيس في الحي السابع أو أعبّر ميدان
التحرير .. سنترال (ألماطة) أو محطة (كوتسيكا) .. (القاهرة) شاسعة جداً
وسيصعب عليهم الإيقاع بي فيها .. أما أنا فلن يصعب على العثور على
(بشير الهلالي) .. سأجده وأحكي له كل ما أعرف عن (إيجى - نيرجى) .. أنا
أعرفه جيداً .. ستثور ثأثرته ويتابه جنون أنا في أشد الحاجة إليه لينزع
الخوف من قلبي .. ستتشابك أصابعنا، وستتحرك معاً لنفصح هذه
الجريمة غير المسبوقة .. ولسوف ننقذ أبناء وطننا من الفناء في آلات
هؤلاء المجرمين بإذن الله ..

سنكون بحاجة لعونك وعون كل شريف في هذا البلد يا دكتور (حازم) في حربنا القادمة ضد (كمال فودة) ومن معه.. أعلم أنّ التحدى ليس سهلاً، ولكننى أثق كثيراً في عقلك وأخلاقك وتقواك برغم أى خلاف سابق بيننا.. وأتوقع منك المساندة عندما أطلبها منك..
إنتظر مكالمتى التالية وتأهب للحرب القادمة يا دكتور (حازم).. فهى لن تكون هيئة على الإطلاق.. ولكن خوضها بأى حال أهون من نتائج تجاهلها والفرار منها..

obeikandi.com

لم تتصل بي منذ ذلك الحين.. ولم أسمع عنها أية أخبار.. كنت غارقاً حتى النخاع في مشكلتي الجديدة.. وحاولت بإخلاص إتباع خطة العلاج التي وضعتها زوجتي.. سافرت معها في رحلة قصيرة لأداء العمرة.. وعدت لأعتكف في بيتي.. أصلى وأقرأ القرآن وأستمتع بجمال الطبيعة من حولي.. أفادتني هذه الفترة جداً في التقرب من الله عز وجل.. عملت بالجامعة..؟.. أباشره هاتفيّاً مع نوابي..

تجلس (نشوى) معي يوميّاً.. تناقشني في موضوعات مختلفة، تؤدي كلها بنا في النهاية إلى موضوع شركة (إيجى - نيرجى).. تمارس طريقته في الإلحاح والإقناع بضرورة التفكير بمنطقيّة والنظر إلى الأمام والسعي لمستقبل أفضل و.. و.. وكنت سعادتها عندما أخبرتها أنني تحسّنت، وأنّ الكوايبس وأصوات الأئين زالت عني..

كنت أكذب بالطبع للخلاص من إلحاحها.. الأئين لم يفارق أذني يوماً.. وأكثر من مرّة أوى إلى فراشي، ثم أستيقظ لأجد نفسي في ملهى ليلي.. أو مستلقياً على الفراش في فيلا (أحمد خشبة) - التي ابتعتها من دون أن أدري - وبيجواري نسوة لا أعرفهنّ.. أو أوضاع غريبة شاذة أخرى لا داع لذكرها..

أنا إنسان ملعون.. أتتني الفرصة لأداء رسالتي في الحياة، فتخاذلت مع أول عقبة.. كذا فعلت بلا مداراة.. وما أصابني هو لعنة الصمت على الظلم والبؤس.. ومالم أقم بدوري، ستظل هذه اللعنة ملتصقة بي، وهو ما أفضل الموت عليه..

كذا يرى (أحمد خشبة).. ولكنني لا أفعل.. لماذا تصيبني أي لعنة من دون أن أرتكب ما يستوجبها..؟.. كنت طيلة عمري نموذجاً للإستقامة والنجاح ومراقبة الله في السر والعلن.. لم

أقصر يوماً ولم أرتكب ما يغضب الله.. حتى في هذا القصة.. لم أفعل
ما يخالف الشرع أو القانون.. مجرمون يُحاسبون على جرائمهم كما
يقضى الشرع الحنيف.. فائدة تعم على الأمة من وراء ذلك سواء في
صورة طاقة أو استثمارات أو أموال سائلة.. ما الخطأ في هذا..؟.. بل
ما شأنى أنا به أصلاً..؟..

لابد أن تؤمن من أعماقك أنه لا إثم عليك فيما فعلت.. هذا أمر
مؤكد..

سليم أنا إذن.. لا غبار على.. ضميرى مستريح ويدائ نظيفتان تماماً..
صدقنى.. أنا مقتنع بهذا تماماً.. أقسم بالله العظيم أنا مؤمن بكل
هذا من صميم قلبى.. ولكن...

ممممممممم ... ممممممممممممممممم
ممممممممم ... ممممممممممممممممم
ممممممممم ... ممممممممممممممممم

الأنين لا ينقطع.. والكوابيس لا تتوقف.. وأعصابى لم تعد تحتمل..
فى الليلة السابقة لإتصالى بك، بدأت فكرة الإنتحار تلح علىّ بشكل
مستفز.. الخلاص من كل هذا العذاب بشكل جذرى سريع.. ها هى
الفرصة -فكرت- قد جاءت للشيطان على طبق من ذهب للإيقاع بى..

.....
.....
.....

همفففففف (زفرة)..
.....
.....
.....

إسمعنى جيّداً..

أنت عرفت القصة بكامل تفاصيلها.. لا أظننى نسيت شيئاً..
إن كنت ترى أننى محق فى موقفى فبالله عليك أخبرنى بذلك.. أريد
أن يطمئننى أحد أننى سليم لا غبار علىّ.. أحتاج أن أسمع هذا من
شخص أثق به..

وإن كنت والعياذ بالله لا ترى هذا فافعل ما تجده صواباً.. أنت حر
الحركة عنيّ ولا يتهددك ما يتهددنى.. خياراتك مفتوحة ومجالك واسع..
يمكنك البحث عن (أمل) و(بشير).. يمكنك أن تجمع الأدلة.. يمكنك
إثارة القضية وفضح أسرارها.. يمكنك أن تفعل الكثير والكثير لأنّ ما
يكبلنى لا يكبلك.. فقط -وهذا أهم ما فى الموضوع- ليكن كل ذلك
بعيداً عنيّ..

خذ وقتك فى التفكير يا صديقى، ولكن بالله عليك لا تتأخر علىّ..
رجائى لك أياً كان موقفك أو رد فعلك أن تسرع لأنّ الأئين بالفعل يكاد
يقتلنى.. ولا أراى قادراً على تحمل المزيد..

obeikandi.com

خاتمة

obeikandi.com

أنا

من أنا؟..

لا أعتقد أنّ إسمى أو هويتي مهمين أو يمكن أن يفيدا أحداً.. أنا مواطن مصرى وكفى.. لى كل ما للمصريين وعلى ما عليهم.. وليس بى أى شئ يميّزنى عنهم، اللهم إلا ذلك السر الرهيب الذى أخبرنيهِ الدكتور (حازم أبو زيد) قبيل وفاته بعدة أيام..

كيف تُوفى؟.. غريب هذا!!.. ألم يبلغكم الخبر؟.. لقد عُثر على جثته العارية مهشمة أسفل ذلك الجرف العملاق شرق (باراداييس هايتس) الذى تقع عليه تلك الفيلا التى ابتاعها من (ممتاز خشبة) رجل الأعمال الشهير..

حادث مدو بالفعل نظراً لأنّ الراحل كان شخصيّة مرموقة تشغل منصباً هاماً، وكانت مرشحة لتولى منصباً وزارياً فى التعديل القادم.. قرأت النعى فى (الأهرام)، وشعرت بالحزن..

تذكرت نظرتَه الصامته المنكسرة وهو يصافحني على رصيف ميناء (باراداييس هايتس) عند مغادرتي.. نوع من الرجاء يطل من عينيه الكسيرتين وهو يقول بخفوت:

- (يتصاعد البخار من فمه): طبعاً لا داعى لأن أذكرك بأن يَظَلّ إسمى بعيداً عن هذا الموضوع..

ربّت على كتفه مطمئناً، قبل أن أخطو على رصيف المرفأ، وأهبط إلى الزورق البخارى الخاص به -بالدكتور (حازم)- المستقر بين أقرانه من الزوارق الفاخرة الخاصة بسكان الجزيرة، والذى إنطلق بى على الفور صوب (الإسكندرية).. وبينما هو يشق الأمواج المظلمة وأنا أفرك كفى من البرد رغم دفء الكابينة التى أجلس فيها.. حانت منّي نظرة إلى الوراء.. رأيت الرجل يقف على رصيف المرفأ الخالى.. وحيداً.. نحيفاً.. بائساً.. ومن خلفه تتألق بشدة أضواء (باراداييس هايتس) بقصورها وأنديتها ومولاتها و مراقصها كأنّها شعلة من النار لتحيل الليل المظلم

نهاراً، وتنعكس أنوارها على سطح الأمواج لمسافات بعيدة..
النعى يحتل صفحة كاملة.. تتوسطه صورة كبيرة للراحل، تعلوها
آية قرآنية، وأسفلها حشد من أسماء عائلته وإعلان عن موعد ومكان
تلقى العزاء وهو قاعة المناسبات الملحقة بمسجد (مبارك) بـ (باراديس
هايتس)..

هل أنا واهم أم أنّ ثمة حزن دفين يطل من عينيه في الصورة..؟..

تناولت الصحف حادث الوفاة الغامض بمعالجات تنوعت ما بين
الرغبة في دفن الموضوع، والرغبة في نبشه للوصول إلى الحقيقة، لأن
الراحل كما أسلفت لم يكن شخصاً عادياً..

ترى ما هي ملابس وفاته..؟.. هل زلت قدمه مثلاً فهوى من
النافذة..؟.. أم قتله رجال الشركة بعد أن عرفوا بشكل أو بآخر صلته
بنشاطهم..؟.. أم أنّه قرر الانتحار فوثب من النافذة بكامل إرادته..؟..
وإن كانت الأخيرة فهل كانت لشعوره بالذنب أم أنّ الشخصية المنشقة
المتمرّدة بداخله سيطرت عليه ودفعته لقتل نفسه..؟..

أثار انتباهي تحقيق عن هذا الموضوع نشرته (الشروق)، ذكر فيه
أنّ الشاهدة الرئيسية في القضية وهي أخصائية تدليك (الإسم الرسمي
لفتيات الليل في باراديس هايتس) نفّث معرفتها بشخصية الراحل،
ويكونه رئيساً لجامعة (الإسكندرية)، وادّعت بأنّ الإسم الذي أخبرها
به هو (أحمد خشبة) -إسم مالك الفيلا السابق- وذكرت أنّه كان
غريب الأطوار كثير الشرود، وأنّه كان يعتمد على مولد خاص لتوليد
الكهرباء بعيداً عن مصدر التغذية الذي يغذى (باراديس هايتس) كلّها
بالكهرباء...!!..

أكد أراه وهو يقف عارياً أمام النافذة المفتوحة.. الستائر تتطاير
من حوله.. القمر فضي كامل الإستدارة.. صفحة البحر الزرقاء اللامعة

ممتدة إلى مالانهاية.. يتنفس بعمق.. إبتسامة ارتياح وخلص ترتسم على شفتيه..

وفي صفحة أخرى من ذات الجريدة لفت انتباهي خبر جانبي صغير عن تكرار إصابة بعض الشباب في (باراديس هايتس) بنوبات من الهياج الغير مبرر، عزاه أطباء إلى إدمان المخدرات وعقاقير الهلوسة.. طويت الجريدة وأنا أبتسم بمرارة.. برغم كل شيء.. هاهم أولاء ضحايا (إيجى - نيرجى) يعودون بعد موتهم لينتقموا من قاتليهم بطرقهم الخاصة.. وإني لواجد في هذا عدالة من نوع خاص جداً لم يكن يخطر ببال أحد من القائمين على هذا المشروع الرهيب.. لو فكرنا إذن بموضوعية لوجدنا أنفسنا أمام احتمالين:

١ - الدكتور (حازم أبو زيد) يكذب أو يختلق أوهام وأكاذيب كعرض لمرض نفسى يؤكد هو إصابته به، بغض النظر عن أسبابه..

العينان لامعتان مفعمتان بالراحة.. يفرد ساقيه.. يقف على حاجز النافذة.. يظل ثابتاً في هذا الوضع للحظات ثم..

٢ - الرجل صادق بالفعل، وهو الإحتمال المرعب الذى أتمنى نفيه، وإن كنت أميل إلى تصديقه لأن الحكاية معقدة جداً، ويصعب إختلاقها..

يهوى لأسفل من هذا الارتفاع الشاهق.. مفروود الذراعين.. مسبل الجفنين.. إبتسامة حالمة تتلاعب على شفتيه.. وكأنه يخلق في السماء بنشوة واستمتاع لا مثيل لهما..

والمصير الذى ينتظرنا جميعاً في هذه الحالة أشنع من أى كابوس حلم به فيلسوف أو شاعر أو أديب أو مفكر أو أى إنسان، ولم يكن -على حد علمى- من نصيب أى من شعوب الأرض حتى الآن..

أبتلع ريقى بصعوبة..

أين أنت الآن يا (أمل)..؟.. هل عثرت على "بشيرك" هذا، أم كانوا هم

أسبق في العثور عليكِ؟..
واقفاً على المكعبات الجريئة العملاقة بمحاذاة سور الكورنيش ..
البحر هائج و رذاذ الأمواج العالية يغرق وجهى و ثيابى .. مذاق الماء
المالح يداعب فمى ، بينما رائحة يود البحر تفعم أنفى .. أسمع حديث
رجلين يسيران من خلفى على الكورنيش:
- باين عليها نوة شديدة..
- أمال.. أشد نوة.. دى اللى هاتغرق البلد كلها..

يمن

من بعيد.. أرى أمواجاً سوداء عاتية كالجبال تعلو وتدنو أكثر فأكثر..
أرفع رأسى لأعلى فألمح أسراب النوارس تحلق فارة نحو البر على خلفية
من سماء ملبدة بغيوم غليظة داكنة تذكرنى بلوحات (ألجريكو)..
خائف..؟ نعم.. أنا خائف.. الخوف جزء مئى.. رضعته من صدر
أمى وتفسسته مع الهواء طوال حياتى حتى صار جزء من تكوينى.. لست
بأفضل من الدكتور (حازم) رحمه الله ولا أشجع.. خائف أنا طيلة
الوقت على نفسى وأهلى وبيتى وعملى..
همممفففف (زفرة)..
مشاركة عنيفة تنشب بين مجموعة من الشباب على الرصيف المقابل

للكورنيش.. يتبادلون الشتائم بأقذع الألفاظ، قبل أن تهمر اللكمات
والركلات كالمطر من وإلى الطرفين.. لم يتعاركون..؟ لا أعرف.. ربما
بسبب طواير الخبز.. أو لركوب الحافلة.. أو بسبب معاكسة الفتيات..
الأسباب مختلفة وكلها واهية.. ولكنّها شحنة الغضب المكبوتة في
أعماق كل منهم والتي جعلتهم أقرب إلى براميل من البارود يكفى عود
ثقاب واحد لإشعالها..

الرايات السوداء تخفق بقوة على امتداد الساحل.. النوة قادمة ولا
شك.. وستكتسح كل ما أمامها.. ماذا سأفعل..؟.. لقد فعلت.. كتبت
هذه الأوراق التي تقرأونها.. أتم الآن تعرفون السر مثلى تماماً..

والواجب الملقى على عاتقى صار على عاتقكم أنتم أيضاً.. نعم أنا خائف.. ولكنى بينكم لست كذلك..
المشادة التى تحولت إلى معركة تكاد تتحول إلى مجزرة.. الأسلحة البيضاء تلمع.. قطرات الدماء تتناثر.. الصرخات تتعالى.. والأمواج السوداء تعلو فى الأفق أكثر وأكثر..

تمّت بفضل الله

شريف ثابت

القاهرة - ٢٠٠٩

(*)- فكرة إستخلاص السيلال الحيوى عن طريق التعذيب هى نظريّة
متخيّلة للدكتور (أحمد خالد توفيق) فى روايتيه (كليمنجاور) و(الظاهرة)..

كتب أخرى للمؤلف

- الطيار- رواية عن (دار ليلي)- ٢٠٠٨
- مزاج صباحي- مجموعة قصصية عن (بوك هاوس)- ٢٠١٠
- حزب الكنبه - مجموعة قصصية عن (دار كيان) - ٢٠١١
- تحت الأرض- رواية عن (دار دَوْن)- ٢٠١١
- عالم أفضل : الميلاد - رواية عن (دار كيان) - ٢٠١٥

للتواصل مع الكاتب:

Sherif-thabet@hotmail.com

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالإنجليزية ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ، كلمنا ..
هنعمل كل اللي نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب ..
لأن في كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :



Kayan.publishing



kayan_publishing



Kayanpublishing



kayanpubishing



+KayanPubishing



KayanPublishing